الغلاف الأمامي

الأكثر مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز

أدريان يانج

سماء في العمق

"تشكيلة بديعة من الشخصيات التي تعيش في عالم ساحر خلقته الكاتبة. إنها حقًا قصة أخاذة ذات لغة ثرية ...".

- رينيه أديه، مؤلفة الكتب الأكثر مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore ليست مجرد مكتبة...

الغلاف الأمامي

الأكثر مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز

أدريان يانج

سماء في العمق

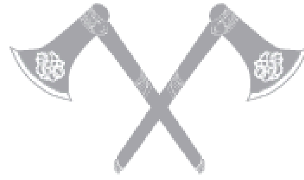
"تشكيلة بديعة من الشخصيات التي تعيش في عالم ساحر خلقته الكاتبة. إنها حقًا قصة أخاذة ذات لغة ثرية ...".

- رينيه أديه، مؤلفة الكتب الأكثر مبيعًا وفقًا لصحيفة نيويورك تايمز

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة

حقوق الطبع والنشر

سماء في العمق



أدريان يانج

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore
... ليست مجرد مكتبة



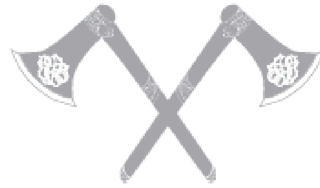
للتعرف على فروعنا

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت **www.jarir.com**

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: **jbpublications@jarirbookstore.com**

الطبعة الأولى 2024

SKY IN THE DEEP



ADRIENNE YOUNG

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore ...ليست مجرد مكتبة

إهداء

إلى جول

الذي لم يحاول يومًا ترويض قلبي الجَموح

الأول

«**إنهم قادمون**».

حدقت مليًّا إلى محاربي الأسكا الرابضين جنبًا إلى جنب، والمتوارين خلف التل الموحل، حيث اكتنفت سحائب الضباب الأجواء حاجبةً الرؤية، وقد تناهى إلى مسامعنا صليل نصال السيوف والبلطات وهي تقرع السترات المدرعة، وتناهى إلى مسامعي وقع أقدام سريعة تتحرك في الطين الموحل، بينما ارتفعت دقات قلبي مع خليط الأصوات، وسحبت أنفاسًا متتاليات ثم لم ألبث أن زفرتها بحدة.

التقطت أذناي الصفير الخشن لوالدي عبر الصف، وبحثت في الوجوه المعفَّرة بالتراب، حتى أبصرت عينين شديدتي الزرقة تحدقان إليّ؛ كانت لحيته المجدولة التي وخَطَها الشيب تتدلى على صدره وراء تلك البلطة التي تتشبث بها قبضته الضخمة. أشار بذقنه إليّ فأطلقت صفيرًا بدوري. كانت تلك طريقتنا عندما يخبر أحدنا الآخر بأن يتوخى الحذر، متجنبًا الموت بأي صورة.

رفعت ميرا الضفيرة الطويلة فوق كتفي وأومأت نحو الحقل متسائلة: «معًا؟».

أجبت وأنا أنظر إلى الخلف، حيث يقف أفراد قبيلتنا جنبًا إلى جنب في بحر من الجلود الحمراء والدروع البرونزية، ينتظرون جميعًا النداء: «معًا دائمًا». ثم شققت أنا وميرا طريقنا معًا بصعوبة للوصول إلى المقدمة.

صاحت وهي تنظر بعينيها الكحيلتين نحو الأضلاع المكسورة تحت سترتي: «انتبهي للجانب الأيسر».

قلت والغضب يجتاحني شاعرةً بالإهانة: «أنا بخير. إذا كنت قلقة حقًا، فقاتلي مع غيري».

هزت رأسها رافضة كلامي، ثم وقفت لتتفحص درعي للمرة الأخيرة. وحاولت كتم ألمي حين شدت الأربطة التي تركتها مرتخية بعض الشيء عن عمد. وتظاهرت أنها لم تلحظ ذلك، لكنني لمحت النظرة في عينيها.

مررت يدي على الجانب الأيمن من رأسي، حيث فروة رأسي المحلوقة تحت الضفائر الطويلة وقلت: «لا تقلقي عليّ».

مدت يدها نحوي كي أثبت أحزمة درعها على ذراعها. لقد قاتلنا معًا في السنوات الخمس الماضية رفيقتي حرب وأحفظ كل جزء من سترتها المدرعة، تمامًا مثلما تحفظ هي كل عظمة مكسورة في جسدي.

قالت بابتسامة ساخرة: «لست قلقة، لكنني أراهنك على أنني سأقتل من الريكي أكثر مما ستقتلين اليوم». ثم ألقت إليّ ببلطتي.

سحبت سيفي من غمده بيدي اليمنى والتقطت البلطة بيدي اليسرى صائحة: «فيجر يوفير فيور».

ثبتت ذراعها تمامًا في درعها، ورفعته فوق رأسها بحركة قوسية؛ لتمد كتفها ثم كررت العبارة: «فيجر يوفير فيور».

كانت العبارة تعني في لغة الحرب: «الشرف قبل الحياة».

اخترق صفير الأجواء من الميمنة، فنبَّهنا كي نستعد. أغمضت عينيَّ، مستشعرةً ثبات الأرض تحت قدمي. واختلط ضجيج المعركة المندفعة نحونا بالصلوات العميقة لأفراد قبيلتي الآخذة في الارتفاع حولي كأنها دخان حريق هائل. تمتمت بالكلمات من بين شفتيّ، وأنا أدعو سيجر كي يحميني، ويعينني على دحر أعدائه.

«هيا!».

انحنيت إلى الوراء ثم طوّحت بالبلطة، كي تغوص بعمق في الأرض، ثم انطلقت متقدمة بسرعة إلى الأمام على التل. كانت قدماي تندفعان بسرعة مخترقتين الأرض الرخوة بحذائي، نحو غيوم الضباب أمامنا. بينما تابعت ميرا بطرف عيني وقد ابتلعنا الضباب تمامًا. واجتاحتنا البرودة مثل رذاذ الماء، حتى ظهرت عدة أشكال غير محددة في الضباب البعيد بدأت ملامحها الظهور رويدًا رويدًا.

لقد كانت قبيلة الريكي!

اندفع نحونا الأعداء كأسراب من الفراء والحديد والشعور المجدولة التي تتطاير في الريح، مع سيوف تتلألأ عليها أشعة الشمس. زدت من سرعتي عند رؤيتهم، واعتصرت قبضتي السيف لا إراديًا وأنا أندفع نحوهم قبل الآخرين.

تركت الزئير يتعالى داخلي من ذلك الجزء العميق الذي يستيقظ في القتال، وصرخت حين حطت عيناي على رجل قصير في مقدمة صفهم، يستقر على كتفيه فراء برتقالي، وأطلقت صفيرًا لميرا، وانحنيت وأنا أركض مباشرة نحوه. وعندما اقتربنا منهم، انحرفت جانبًا وأحصيت خطواتي، ورسمت طريقي الذي سأتبعه لحظة تصادم الأجساد الثقيلة. وكززتُ بقوة على أسناني حين وصلت إليه، مكشرةً عن أنيابي. ورفعت سيفي للوراء، وملت بجسمي نحو الأرض، ولوحت به حين مررت مستهدفةً أحشاءه.

رفع درعه في الوقت المناسب، وألقى جسده إلى اليسار، وضربني بحافته، فانفجرت بقع سوداء في مدى رؤيتي، وصفرت رئتي خلف أضلاعي التي تؤلمني، وأبت الأنفاس الرجوع. تعثرت، وحاولت استعادة توازني، ثم سقطت على الأرض، وعدت مع بلطتي، متجاهلة الألم الذي انفجر في جانبي. واصطدم سيفه بنصل البلطة فوق رأسه، وجذبه للوراء، ومن ثم حانت فرصتي.

كان جانبه مكشوفًا.

غرزت سيفي في ثقب في سترته المدرعة، فطوّح برأسه للوراء، وفغر فاه صارخًا، وهبط سيف ميرا على عنقه في حركة سلسة، ممزقًا العضلات والأوتار. وسحبت سيفي منه، فانبجست الدماء الحارة وتناثرت على وجهي. ركلت ميرا الرجل بعيدًا بكعب حذائها، بينما ظهر خلفها ظل آخر يلفه الضباب.

هتفت صارخةً: «انخفضي!»، وصوَّبت البلطة نحوه.

انخفضت ميرا بجسدها فانغرز النصل في صدر الريكي، ثم خذلته ركبتاه، فسقط جسده الضخم فوقها، وثبتها في التراب. وانفجرت الدماء من فمه، وغطت بشرتها الشاحبة بحمرة قانية.

اندفعت نحوها، وأدخلت أصابعي في سترته المدرعة من الجانب الآخر من جسده، ثم سحبته بعيدًا حتى تحررت، فقفزت على قدميها، وبحثت عن سيفها وهي تتلفت حولنا. أمسكت أنا مقبض البلطة وانتزعتها من بين عظام صدر الرجل.

أخذت سحب الضباب تتلاشى متقهقرةً أمام ضياء الصباح. وكانت الأرض من التل إلى النهر مغطاة بمحاربي العشيرتين، الذين كانوا يتجهون جميعًا نحو الماء. وأبصرت عبر الحقل والدي وهو يدفع سيفه خلفه في بطن أحد الريكي، ثم يقذفه إلى الأمام فينغرز في وجه آخر، وقد اتسعت حدقتاه عن آخرهما من القتال وامتلأ صدره بصيحات الحرب الرنانة.

صحتُ في ميرا وأنا أجري: «هيا!»، وقفزت فوق الجثث المتساقطة واتجهت نحو حافة النهر، حيث اشتد وطيس المعركة.

سددت سيفي نحو ساق أحد الريكي، فخرَّ صريعًا، ثم مررت من جانبه. ثم ضربت آخر بسيفي، وتركتهما كي يقضي عليهما رفاقي المقاتلون.

سمعت ميرا وهي تصيح: «إيلين!» ثم التفَّت حولي ذراعان عريضتان تضغطان بقوة حتى انزلق السيف من بين أصابعي. تأوهت وأخذت أركل لأتحرر، لكن مقاتلي كان قويًا جدًّا، فأنشبت أسناني في لحم ذراعه حتى تذوقت الدم، فدفعتني يداه بقوة إلى الأرض. فاصطدمت بها بشدة، وأخذت أتدحرج على ظهري وأنا أتنفس بصعوبة، فمددت يدي نحو بلطتي. لكن سيف الريكي كان يشق طريقه نحوي. فتدحرجت مرة أخرى، وتلمست أصابعي السكين المثبتة في حزامي، ووقفت على قدمي لأواجهه، وأنفاسي اللاهثة تتطاير أمامي.

كانت ميرا تقاتل بشراسة في الضباب من خلفي وهي تصيح: «إيلين!».

اندفع المقاتل نحوي، شاهرًا سيفه، وأنا أتقهقر مجددًا. شق كم السترة واخترق العضلات السميكة في ذراعي، فألقيت نحوه السكين، لكنه أمال رأسه جانبًا وتفاداها، رغم أنها كشطت أذنه. وحين نظر إليّ مرة أخرى، كانت عيناه تقدحان شررًا.

تراجعت متعثرة، وحاولت الوقوف وهو يلتقط سيفه. وحين اقترب مني وقعت عيناي على دماء الأسكا المسفوحة والتي تغطي صدره وذراعيه. كان سيفي وبلطتي وراءه على الأرض.

صرخت: «ميرا!». لكنها كانت قد تلاشت تمامًا عن ناظريّ.

تلفتُّ حولنا، وقد تصاعد داخلي شعور بالذعر قلما ينتابني في القتال؛ إذ لم يكن في متناولي أي سلاح، وكان من المستحيل القضاء على خصمي بيدي العاريتين. اقترب مني، وهو يكزُّ على أسنانه، ويقترب مني كدبٍّ ضخم قد حاصر ضحيته!

تذكرت في تلك اللحظة والدي؛ ويديه الملطختين بالتراب؛ وصوته العميق والهادر، وصورة بيتي والنيران تتلألأ حوله في الظلام، والجليد على الأرض في الصباحات المشمسة.

وقفت، وقد ضغطت بأصابعي على الجرح الساخن في ذراعي، وهمست باسم سيجر الإله، داعية إياه أن يقبلني ويرحب بي بعد الموت وأن يحمي والدي. وهمست: «فيجر يوفير

فيور».

تباطأت خطواته وهو يراقب شفتيّ وهما تتلوان دعائي الأخير.

هبت ريح لينة رطبة فتحرك الفرو تحت سترته المدرعة، واندفع حول فكه المائل. حدق، وزم شفتيه وهو يخطو الخطوات الأخيرة نحوي. لم أهرب، إذ لن أسقط حتمًا بسيف ينغرز في ظهري كالجبناء.

تألق النصل وهو يرفع السيف عاليًا فوق رأسه، مستعدًّا لشطري نصفين، فأغلقت عيني وتنفست للمرة الأخيرة. رأيت انعكاس السماء الرمادية على المضيق. وإزهار الصفصاف على جانب التل. كانت الريح تعابث شعري. وقد أصغيت إلى الأصوات الهائجة لأفراد قبيلتي وهم يقاتلون بعيدًا.

اخترق صوت عميق ومختنق الضباب صارخًا: «فيسك!»، ففتحت عيني بغتة.

تجمد الريكي أمامي بدوره، وقد اتجهت عيناه جانبًا ناحية الصوت.

اصطدم به شخص ذو شعر غجري جميل، وألقى سيفه على الأرض، مكررًا: «لا، لا تفعل يا فيسك»، ثم أمسك سترته المدرعة مثبتًا إياه: «إياك أن تفعل».

اضطرب عقلي، وتباطأت الدماء في عروقي، وقد توقفت نبضات قلبي.

«ماذا تفعل؟». تحرر الريكي منه، واستعاد سيفه من الأرض، وتجاوزه متجهًا نحوي.

استدار الرجل، وطوق الريكي بذراعيه وجذبه للخلف.

وهنا رأيت وجهه.

وتجمدت مفاصلي كطبقات الجليد على النهر.

«إيري»؛ خرجت الكلمة من شفتي كشبح.

توقفا عن الصراع، ونظرا لي بأعين متسعة. لم أصدق ما تراه عيناي.

«إيري؟». تشبثت يدي المرتجفة بسترتي المدرعة، وقد احتشدت الدموع في عيني، واضطرب قلبي.

نظر إليّ الرجل الممسك بالسيف، وجابت عيناه وجهي تبذلان قصارى الجهد للفهم. لكن عينيَّ كانتا تحدقان إلى إيري، وفي انحناءة فكه؛ وشعره المتموّج تحت أشعة الشمس، والدماء التي لطخت عنقه، ويديه اللتين تشبهان يدي أبي.

«ما الأمر يا إيري؟». أحكم الريكي قبضته على مقبض سيفه الذي ما زال نصله ملطخًا بدمائي.

لم أكن أسمعه. لم أكن أفكر، تلاشى كل شيء؛ العالم بكل تفاصيله.

اقترب إيري مني ببطء، وعيناه لا تغادر عينيّ. كتمت أنفاسي عندما رفع يديه إلى وجهي، وانحنى حتى لفحتني أنفاسه.

«اهربي يا إيلين».

تركني وقد تلوت رئتاي تبحثان عن الهواء. تلفتُّ حولي أبحث عن ميرا في الضباب، وفتحت فمي لأنادي والدي، لكن أنفاسي لم تخرج.

كان إيري قد تلاشى، ابتلعه الضباب، وتلاشى أثر رجل الريكى معه.

كما لو كانا شبحين.

كأنهما لم يكونا هنا قط.

حقًّا لا يمكن أن يكون له وجود؛ فالمرة الأخيرة التي رأيت فيها أخي إيري كان مجرد جثة ممددة على الجليد منذ خمس سنوات!

الثاني

اخترقت الضباب وركضت نحو النهر بأقصى سرعة، وأسرعت ميرا في أعقابي شاهرةً سيفها. تعلق بصري بالأشجار؛ بالاتجاه الذي اختفى فيه إيري. ووثبت عيناي من ظل إلى آخر، تبحثان عن إحدى خصلاته الذهبية في أدغال الغابة المظلمة.

قفزت امرأة من بين الأشجار نحوي، لكن ميرا عاجلتها بطعنة رشيقة من سكينها ثم حزَّت عنقها وتركتها تسقط، ثم استأنفت الركض خلفي.

دوَّى صفير انسحاب الريكي، وانفصلت حشود المتحاربين التي كانت ملتحمة في المعركة، كاشفةً عن الحقل الأخضر الذي تلطخ الآن بالدماء الحمراء للموتى من العشيرتين. انطلقت أتلوى وسط الريكي المنسحبين، وأمسك الرجال الشُّقر واحدًا تلو الآخر، وأنا أتأمل وجوههم.

جذبتني ميرا للوراء، وملامحها الحادة يعلوها الارتباك متسائلة: «ماذا تفعلين؟».

اختفى آخرهم بين الأشجار خلفها. فالتفتُّ أبحث بعينيّ عن القميص الأزرق الصوفي الذي كان والدي يرتديه تحت سترته المدرعة، صائحة بصوت مختنق: «آجي!».

استدارت رءوس الأسكا في الحقل نحوي. وأمسكت ميرا ذراعي، وضغطت براحتها على الجرح لإيقاف النزيف. وجذبتني إليها. «ما الأمر يا إيلين؟ ما الخَطب؟».

لمحت وجه والدي عبر الحقل بصعوبة شديدة، حيث غيوم الضباب ما زالت تحتل الأجواء ملقية ظلالًا كثيفة تحجب النظر.

ناديت بصوت مبحوح: «آجي!».

رفع ذقنه عندما سمع صوتي المختنق، وبحثت عيناه في الساحة الغاصّة بالجثث. وحين وجدتني، تحوَّلتا من القلق إلى الخوف. وأسقط درعه راكضًا نحوي.

انهارت ركبتاي، ودار رأسي. ركع بجانبي ومرر يديه على جسمي وأصابعه تنزلق على بشرتي المغمورة بالدم والعرق. تفحصني بعناية وقد تسلل الرعب إلى وجهه.

أمسكت بسترته المدرعة، وجذبته ليواجهني وأنا أتمتم بصوت مختنق: «إنه إيري!».

ما زال بوسعي رؤيته؛ بعينيه الشاحبتين، وأصابعه التي تتحسس وجهي.

نظر والدي إلى ميرا. ثم تنفس الصعداء، وقد تلاشت ملامح الذعر عن وجهه. أمسك وجهي بيديه محدقًا إليّ وهو يتساءل: «ماذا حدث؟». انتبه للدماء التي ما زالت تتدفق من ذراعي الجريحة، فتركني وانتزع سكينه ليقطع قميص الريكي الميت بجوارنا.

«لقد رأيته. رأيت إيري».

لف القماش الممزق حول ذراعي ثم ربطه بإحكام متسائلًا:

«عمَّ تتحدثين؟».

دفعت يديه عني باكية: «أنصت لي! إيري كان هنا! لقد رأيته!».

توقفت يداه أخيرًا، وقد امتلأت ملامح وجهه بالحيرة.

«كنت أقاتل رجلًا. كان على وشك...». ارتجفت، وتذكرت أننى كنت على حافة الموت الوشيك، ثم أكملت: «خرج إيري من بين غيوم الضباب وأنقذني. كان يحارب مع الريكي». توقفت لبرهة وأمسكت يده ثم جذبته نحو صف الأشجار، وأنا أحثُّه: «يجب أن نجده!».

لكن والدي وقف ثابتًا كالحجر الأصم. ورفع وجهه للسماء، وقد أغلق عينيه أسفل خيوط أشعة الشمس.

صرخت مجددًا: «هل تسمعني؟ إيري حي!». طوقت جسدي بذراعيّ لتهدئة ألم الجرح الممضّ.

نظر إليّ مجددًا، وقد تجمعت الدموع في زاويتي عينيه كألسنة صغيرة من اللهب الأبيض.

«لقد أرسل سيجر روح إيري لينقذك يا إيلين».

«ماذا؟! كلا بالطبع».

«لقد وصل إيري إلى سولبيورج». كانت كلماته مخيفة وحنونة في آن واحد، تكشف عن رقة لم يظهرها والدي قط. تقدم نحوي، ثم نظر مباشرة إلى عينيَّ وقال مبتسمًا: «لقد أنعم عليك سيجر يا إيلين».

وقفت ميرا خلفه، وقد اتسعت عيناها الخضراوان أسفل ضفائرها البنية المفككة.

قلت والكلمات تختنق في حلقي: «لكنني... رأيته».

«بالتأكيد». سالت دمعة على وجنة أبي الخشنة واختفى أثرها بين شعيرات لحيته الكثة. وجذبني نحوه مطوقًا إياي بذراعيه، وأغمضت عيني. كان الألم في ذراعي مبرحًا فلم أشعر بيدي.

طرفت بعينيّ، محاولة أن أفهم. لقد رأيته بالتأكيد. لم يكن شبحًا بل كان هناك بلحمه وشحمه.

أفلتني ثم احتضن وجهي بكفيه مجددًا قائلًا: «سنقدم تضحية هذه الليلة. لم أسمعك من قبل تصرخين عليّ بهذا الشكل. لقد أرعبتِني، يا عزيزتي». كانت ثمة ضحكة مدفونة في

أعماقه.

تمتمت: «آسفة. لقد ظننت...».

انتظرني كي تلتقي أعيننا مجددًا قائلًا بصوت عميق: «إن روحه ترقد في سلام. لقد أنقذ أخوك حياتك اليوم، فابتهجي». ثم ربَّتَ بقوة ذراعيَّ السليمة، فكدت أسقط.

مسحت دموعي براحة يدي، وأشحت بوجهي بعيدًا عن تلك الوجوه التي تراقبني. نادرًا ما بكيت أمام أفراد قبيلتي، إذ كان ذلك يُشعرني بالضآلة والضعف، مثل عشب أوائل الشتاء الذي تطؤه أحذيتنا.

كتمت الدموع، محاولة أن ألملم شتات نفسي، وأومأ لي أبي. لقد علَّمني أن أكون قوية وصلبة، لا شيء على وجه الأرض يمكن أن يهزني. عاد إلى العمل في الساحة، وتبعته أنا وميرا أحاول تهدئة أنفاسي المتهدجة، والتغلب على تلك الأفكار التي تتصارع في رأسي. توجهنا نحو معسكرنا، وجمعنا على طول الطريق أسلحة محاربي الأسكا المقتولين. وراقبت والدي بطرف عيني، ووجه إيري لا يفارق خيالي.

توقفت قدماي عند حافة إحدى البرك، ونظرت إلى صورتي المنعكسة التي تملؤها الأوساخ المتناثرة على وجهي المنعرج ورقبتي الطويلة بينما كانت الدماء الجافة تتخلل خصلات شعري الذهبية المنسدلة، وعينيّ! الزرقاوين المتجمدتين، مثل عينيْ إيري. جذبت أنفاسًا عميقة، ونظرت إلى السحب البيضاء الخفيفة الممتدة عبر السماء لمنع دمعة أخرى من السقوط.

نادتني ميرا وهي تجثو بجوار امرأة من الأسكا: «تعالي». كانت ممددة على جانبها، وعيناها شاخصتان نحو الأفق، وذراعاها مفرودتان وكأنها تمدهما نحونا.

فككت بحذر حزامها وغمدها، ووضعتهما جانبًا ثم شرعت أفك سترتها المدرعة، وأنا أتساءل: «هل كنتِ تعرفينها؟».

انحنت ميرا لتغلق عيني المرأة بأناملها وهي تقول: «معرفة بسيطة». وبلطف أزاحت الخصلات عن وجهها ثم همست: «لقد وصلت إلى نهاية رحلتك أيتها الأسكا».

في اللحظة التالية، انضممت إليها، ونطقت كلمات الطقوس التي نحفظها عن ظهر قلب. «نطلب من سيجر أن يقبل روحك في سولبيورج، حيث يحمل قومنا المشاعل في الدرب المظلم لتعبري إلى العالم الآخر».

تلاشى صوتي، كي تتحدث ميرا أولًا. «أوصلي حبي إلى أبي وأختي. واطلبي منهما أن يظلا يرعيانني دائمًا، وأخبريهما بأن روحي سوف تتبعهما إلى العالم الآخر».

أغلقت عيني وانسابت كلمات الدعاء المألوفة من بين شفتيّ: «أوصلي حبي إلى أمي وأخي. واطلبي منهما أن يظلا يرعيانني دائمًا. وأخبريهما بأن روحي سوف تتبعهما إلى العالم الآخر».

ابتلعت الغصة في حلقي ثم فتحت عيني، ونظرت إلى وجه المرأة الهادئ مرة أخرى. لم أتمكن من قول تلك الكلمات فوق جثة إيري كما فعلت عندما توفيت أمي، ولكن سيجر أخذ روحه، على أية حال.

همست: «هل رأيت شيئًا مماثلًا من قبل؟ شيئًا لم يكن حقيقيًّا؟».

طرفت بعينيها: «كان حقيقيًّا. روح إيري حقيقية».

«لكنه كان أكبر سنًّا. كان رجلًا بالغًا. لقد تحدث إليّ ولمسني يا ميرا».

نهضت، ونقلت بعض البلطات على كتفها وهي تردف: «لقد شهدت ذلك اليوم، يا إيلين. لقد مات إيري. رأيته بأم عينيّ. كان ذلك حقيقيًّا». كانت المعركة نفسها التي قُتلت فيها شقيقة ميرا. كنا صديقتين قبل ذلك اليوم، لكن أواصر صداقتنا توثقت أكثر بعد ذلك الحادث.

أتذكر ذلك اليوم بوضوح؛ صورة إيري كأنها تنعكس على الجليد؛ جثته الهامدة ترقد في قاع الخندق. ممددة على الثلج ناصع البياض، والدم يتسرب من حوله في بركة سائلة. ما زال بإمكاني رؤية شعره الأشقر المنتفش حول رأسه، وعينيه الفارغتين المتسعتين الشاخصتين إلى العدم.

«أعلم».

مدت ميرا يدها وضغطت على كتفي. «إذًا، تعرفين أنه لم يكن إيري بجسده بل كان مجرد روحه».

أومأت برأسي، وازدردت لعابي بصعوبة. كنت أدعو لروح إيري كل يوم، وإذا كان سيجر قد أرسله ليحميني، فإنه حقًّا في سولبيورج؛ الحياة الآخرة عند قومنا. قلت بأنفاس مختنقة: «كنت أعلم أنه سيصل إلى هناك آمنًا».

ارتسمت ابتسامة صغيرة على محياها وقالت: «جميعنا يعلم ذلك».

نظرت مجددًا إلى جثة المرأة الممددة بيننا، سنتركها حيث كانت - وكما توفيت - بشرف. مثلما فعلنا مع جميع محاربينا القتلى الشرفاء.

مثلما تركنا إيري.

افترَّ ثغرها عن ابتسامة مريرة، وعيناها تلتقيان بعيني. «هل كان وسيمًا كما كان من قبل؟».

همست: «نعم، كان فاتنًا كعادته!».

الثالث

عضضت على الشريط الجلدي السميك لغمد سيفي أعاني الألم الشديد، بينما كانت المُداوية تخيط الجرح في ذراعي. كان الجرح أعمق مما ظننت.

لم تفصح ملامح وجه كالدا عما يدور في خلدها من أفكار. قلت مؤكدة: «ما زال بوسعي القتال». وكانت تعلم ذلك يقينًا؛ فقد عالجتني من جراح معارك عديدة.

تنهدت ميرا بجواري، رغم أنها بدت كأنها تستمتع بالأمر قليلًا. رفعت عينيّ إليها قبل أن تنبس بكلمة.

نظرت إليّ كالدا برموشها الطويلة السوداء وقالت: «هذا قراركِ».

لم تكن تلك المرة الأولى التي تخيط فيها جروحي، ولن تكون بالتأكيد الأخيرة، ولكن المرة الوحيدة التي أخبرتني فيها بأنني لن أتمكن من القتال عندما كُسر ضلعان من أضلعي، وانتظرت خمس سنوات لأقتص لإيري ممن قتلوه، حيث مكثت شهرًا كاملًا في المعسكر، أنظف الأسلحة والغضب يلتهمني، في حين خرج والدي ومعه ميرا للمعركة دوني.

«لن يلتئم جرحك إذا استخدمت بلطتك». ألقت كالدا الإبرة في الوعاء بجانبها ثم مسحت يديها على مئزرها الملطخ بالدم.

حملقت إليها: « هراء، لا بد أن أستخدم بلطتي».

قالت ميرا بغضب، وهي تلوّح بيدها نحوي: «استخدمي درعًا في تلك اليد».

أجبتها بسرعة: «إنني لا أستخدم درعًا أبدًا في القتال، بل أستخدم سيفًا في يدي اليمنى وبلطة في يدي اليسرى. وأنتِ تعرفين ذلك». سألقى حتفي إذا غيَّرت أسلوب قتالي هذا.

تنهدت كالدا: «إذًا، عندما ينفتح الجرح مرة أخرى، فستضطرين للعودة لأخيطه مجددًا».

«حسنًا» ثم انتصبت واقفة، وجذبت كُم الرداء على ذراعي المتورمة، وحرصت على عدم إظهار أي ملمح للألم على وجهي.

كان ثمة رجل من الأسكا ينتظر دوره، فتقدم وجلس على الكرسي خلفنا. وشرعت كالدا تعالج الجرح في خده، فقال مخاطبًا إياي: «سمعت أن الإله سيجر أكرمكِ اليوم»؛ كان صديق والدي والجميع كانوا كذلك.

ردت ميرا وهي تبتسم بسخرية: «أجل». كانت تحب أن تراني وأنا محرجة.

لم تسعفني الكلمات للرد.

ربَّتَ بقبضته القوية كتفي السليمة، وفعلت معه المثل.

خرجنا من الخيمة التي تفوح منها رائحة الأعشاب الكريهة، وسرنا عبر المعسكر والشمس تلقي بأشعتها الدافئة وقد قاربت على الغروب، وقد أجهدني الجوع حين تسللت إلى أنفي رائحة الشواء الشهية، وكان والدي ينتظرني لتناول العشاء.

قالت ميرا وهي تضغط على يدي: «أراكِ في الصباح»، ثم مضت مبتعدة.

قلت: «ربما»، راقبتها وهي تسير نحو خيمتها. لم أكن مقتنعة بأن الريكي لن يعودوا قبل شروق الشمس.

وقف والدي عاقدًا ذراعيه على صدره، يحدق إلى النيران. كان قد اغتسل، لكنني لاحظت أن آثار الدماء والأتربة ما زالت عالقة ببقية جسده.

قال رافعًا حاجبيه الكثين: «هل عالجت جرحك؟».

أومأت برأسي، ورفعت الغمد عاليًا. حل غلاف البلطة المثبت على ظهري، وأمسك ذراعي يتفحصها.

قلت: «كل شيء على ما يرام». لم يكن يعتريه القلق كثيرًا عليّ، لكن بوسعي معرفة ذلك حين يفعل.

أزاح عن وجهي خصلة نافرة من شعري. إنني محاربة من الأسكا، لكنني ما زلت ابنته. «إنك تزدادين شبهًا بأمك كل يوم. هل أنتِ مستعدة؟».

ارتسمت على شفتيّ ابتسامة متعبة. إذا كان والدي يعتقد أن سيجر أرسل روح إيري إليَّ، فسأصدق ذلك أيضًا. كنت أرتعب من أية حقيقة أخرى تحوم في ذهني. «مستعدة».

سرنا جنبًا إلى جنب نحو الطرف الآخر من المعسكر. وشعرت بأن الأعين تراقبني، لكن والدي لم يول اهتمامًا لهم، فغمرني شعور بالراحة. كانت خيمة الاجتماع، والتي هي في الأساس الدار التي نقيم فيها طقوسنا، تقع في طرف معسكرنا، وقد تصاعد من منتصفها الدخان الأبيض نحو سماء المساء. وقف إسبن كتمثال ضخم تحت إطارها، والتالا بجانبه. كان زعيم قبيلتنا أعظم محاربينا، وأقدم زعيم لقبيلة أسكا عبر ثلاثة أجيال. رفع ذقنه، بينما عبثت أصابعه في لحيته الكثَّة.

نادى والدي: «آجي».

سحب والدي ثلاث عملات من سترته وسلمني إياها، ثم سار نحوهما، وأمسك كتف إسبن محييًا إياه، وفعل إسبن بالمثل ثم شرع يتحدث. لم أتمكن من سماع ما يقوله، لكنه صوَّب عينيه نحوي من فوق كتف والدي، فغمرني شعور مفاجئ بعدم الراحة.

«إيلين».

انتفضت. كان هيمنج ينتظر عند بوابة الحظيرة.

وضعت العملات في راحة يده المبسوطة، فأسقطها في المحفظة الثقيلة المتدلية من زناره.

ابتسم لي، فكشف عن صف أسنانه الأمامي التي فقد بعضها بسبب ركلة حصان قبل عامين. «لقد سمعت بما حدث». تخطى الجدار الحاجز للحظيرة وأمسك ماعزًا رمادية من قرنيها وهو يتساءل: «هل تُعجبك تلك الماعز؟».

انحنيت لأسفل، وفحصت الحيوان بعناية. «أدره». انتقل هيمنج، وجذب الماعز نحوه. وهززت رأسي بالرفض، ثم أشرت إلى ماعز بيضاء كبيرة في الزاوية قائلة: «ماذا عن تلك؟».

«إنها بقيمة أربعة بننجر». كافح هيمنج للحفاظ على قبضته على الماعز الرمادية.

هبطت يد ثقيلة على كتفي، ونظرت لأرى والدي وهو يتطلع إلى الحظيرة خلفي ويسأل: «ما قيمة تلك الماعز؟».

أطلق هيمنج سراح الماعز، واعتدل أمام والدي. «إنها بقيمة أربعة بننجر».

«أهي أفضلها؟».

أومأ هيمنج قائلًا: «نعم، يا آجي. إنها الأفضل».

«إذًا، هاك أربعة بننجر». ثم أخرج عملة أخرى وألقاها لهيمنج.

صعدت إلى الحظيرة لمساعدة الصبي في جر الماعز إلى البوابة. أمسك والدي بقرن وأمسكت بالآخر، بينما قدناها إلى المذبح وسط خيمة الاجتماع. كانت النار تشتعل بقوة، وشعلاتها تلتهم الخشب ويتسلل الدفء إلى درعي، بينما البرد يتسرب من الخارج.

جاء صوت إسبن من خلفنا: «هل بوسعي الانضمام إليكما؟».

استدار أبي، وقد اتسعت عيناه قليلًا ثم أومأ بالإيجاب.

تبعه التالا وهو ينظر إليّ. «لقد جلبتِ الشرف لسيجر بتدمير أعدائه، يا إيلين. وقد بادلكِ الشرف بالمقابل».

أومأت في عصبية، وضغطت بقوة على شفتي السفلية. لم يسبق للتالا أن حدثني من قبل. كنت أهابه في طفولتي، وأختبئ وراء إيري في دار الطقوس أثناء التضحيات والاحتفالات. لم تعجبني فكرة الوسيط بين البشر والإله وأنه يتكلم باسمه. كنت خائفة مما قد يراه في داخلي، وما قد يراه في مستقبلي.

وقف إسبن بجواري وقدنا الماعز إلى الحوض الكبير أمام النار المستعرة. سحب والدي تمثالًا خشبيًّا صغيرًا لأمي من سترته وسلمني إياه. وسحبت تمثال إيري من جيبي ووضعتهما جنبًا إلى جنب على الحجر أمامنا. كانت القرابين تدفعني للتفكير في أمي، فقد اعتادت أن تروي لنا قصة إلهة الريكي ثورا، التي انبثقت من الجبل مستعرة بالنيران، وأمطرت المضيق بألسنة اللهب. فنهض سيجر من البحر لحماية شعبه، وكل خمس سنوات، يتجدد القتال بين القبيلتين دفاعًا عن شرف كل قبيلة، ملتزمين بالنزاع الدموي بيننا.

لا أتذكر أمي بصورة واضحة. بيد أن ليلة وفاتها ما زالت حية في ذهني. أتذكر الحشود المتسللة لقبيلة الهيريا التي اجتاحت قريتنا في منتصف الليل، وسيوفهم تعكس ضوء القمر، وبشرتهم شاحبة كالموتى على النقيض من الفراء السميك الذي يضعونه على أكتافهم. وأتذكر كيف بدت والدتي، وهي ممددة على الشاطئ وبريق الحياة يخبو في عينيها رويدًا رويدًا. ووالدي ملطخ بدمائها.

جلست، أحتضن جسد والدتي الذي كان لا يزال محتفظًا بالدفء، بينما تبعهم الأسكا إلى البحر الشتوي، حيث اختفوا في المياه السوداء كالشياطين. لقد تعرضنا للعديد من الهجمات من قبل، لكن لم تكن كتلك الهجمة الشرسة حيث لم يجيئوا بغرض السطو، بل للقتل. ومَن يأسرونهم يقدمونهم قرابين لإلههم. ولا أحد يعرف مَن أين أتوا أو إذا كانوا

بشرًا من الأساس. علق إسبن إحدى جثثهم على شجرة أمام مدخل قريتنا، وما زالت العظام معلقة هناك، تهزها الريح. لم نر الهيريا منذ ذلك الحين. ربما أخمد إلههم غضبهم. ومع ذلك، يتجمد الدم في عروقنا عند مجرد ذكر اسمهم.

بكيت أنا وإيري على القربان الذي قدمه والدي في الصباح التالي، شاكرًا سيجر على رحمته بطفليه. وبعد بضع سنوات، قدم قربانًا آخر، حين توفِّي إيري.

قال والدي ممسكًا قرني الذبيحة بيديه: «استلِّي سكينك، يا إيلين».

حدقت إليه بارتباك. كنت أقف دائمًا وراء والدي وهو يقدم القرابين للإله.

«هذه ذبيحتك، يا عزيزتي. استلي سكينك».

أومأ أفراد قبيلة التالا بجانبه.

سحبت سكيني من الحزام، وراقبت تألق النار على حروف اسمي المنقوشة على السطح الأملس للنصل. لقد أهداني والدي تلك السكين قبل دخولي المعركة الأولى لي منذ خمس سنوات. ومنذ ذلك الحين أزهقت حياة الكثيرين.

جثوت بجانب أنثى الماعز، وجذبتها بين ذراعي، وبحثت أصابعي عن الشريان النابض بالحياة في رقبتها. ووضعت سكيني، وأخذت شهيقًا قبل أن أنطق الكلمات التي سمعت والدي وأفراد العشيرة يتفوهون بها طوال حياتي: «نكرمك يا سيجر بهذا القربان الطاهر. نشكرك على رزقك ونعمتك. ونسألك أن تحرسنا وتحمينا حتى نصل إلى سولبيورج مأوانا الأخير».

مررت النصل بسرعة عبر لحم الماعز الناعم، وشددت عليه بذراعي الأخرى بينما أخذ قربان الإله يركل بشدة. سُحبت الغرز في ذراعي، فشعرت بألم الجرح يجتاح معصمي، ثم اندفعت

الدماء الساخنة فوق يدي، إلى الحوض، وضغطت وجهي على فرو أنثى الماعز الأبيض حتى سكن جسدها تمامًا.

سادنا الصمت ونحن ننصت إلى صوت الدماء وهي تنسال في الحوض، ورفعت عينيّ إلى تمثالي والدتي وأخي على الحجر، كانا يتوهجان بضوء أصفر، والظلال تتراقص على وجهيهما المنحوتين.

لقد شعرت بغياب والدتي فور أن خمدت أنفاسها. وكأن روحها فارقت جسدها بتلك الزفرة الأخيرة. لكن ذلك الشعور لم يداخلني حين مات إيري. ما زلت أشعر به حيًّا يُرزَق. ولم يغادرني هذا الشعور قط.

الرابع

استيقظت القبيلة، كبيرها وصغيرها، على بوق الإنذار في منتصف الليل، حيث تعالى اندفاع حوافر الأحصنة المتوترة خارج خيمتنا، فقفز والدي على قدميه قبل أن أفتح عيني.

رأيت شبحه الضبابي في الظلام وهو يقول: «انهضي يا إيلين. كنتِ على حق».

نهضت، ومددت يدي نحو السيف بجانب سريري، وجذبت نفسًا والألم يشتعل بحدة واهتياج في ذراعي. انتعلت حذائي بصعوبة وارتديت سترتي المدرعة، وتركت أبي يساعدني في تثبيتها. مرر الغمد وغلاف البلطة فوق رأسي وعلى صدري، ثم ربَّت ظهري ليُعلمني أنني على أهبة الاستعداد. التقطت تمثال والدتي من جانب سريره ولثمته بسرعة ثم أعطيته إياه. فدسَّه في سترته، بينما دسست تمثال إيري في سترتي.

تسللنا تحت جنح الليل، متجهين نحو طرف النهر الذي طوَّق أحد جوانب معسكرنا، وقد التحمت السماء الخالية من النجوم بالأرض المسربلة بالظلام وراء النيران. طغى علي إحساس بوجود الأعداء؛ لقد أتى الريكي.

هدر الرعد من فوقنا، ولفحتنا الريح منذرة بهبوب عاصفة قريبًا. ولثم أبي جبيني بقبلة وهو يقول: «فيجر يوفير فيور». ثم دفعني نحو الطرف الآخر من الصف، حيث وجدت ميرا.

جذبتني إليها، ورفعت البلطة من جرابها على ظهري وناولتنى إياها. وشددت الضمادة حول ذراعي محاولة طرد الخدر من يدي. لم تفصح عن مخاوفها هذه المرة، لكنني كنت أعرفها لأنها كانت تجول في خاطري أيضًا. جانبي الأيسر صار بلا فائدة تقريبًا الآن. لقد قاتلت في الظلام مع عشيرتي من قبل، لكنني لم أكن مصابة بتلك الإصابة الخطيرة، وأثارت تلك الفكرة القلق داخل قلبي.

همستْ: «ابقي بجانبي». وانتظرتْ حتى أومأت برأسي موافقة، ثم قادتنا إلى الجبهة.

نشبت المعركة قبل أن نتخذ مواقعنا. وتعالى الصياح على اليسار، بجوار الماء. لكن صفنا ما زال يكتنفه الهدوء. رددت أدعية الحرب بصوت هامس، وعيناي تبحثان عن أية حركة من حولنا، بينما أخذت زخَّات المطر تتساقط. وبجواري، أغمضت ميرا عينيها، وشرعت تتلو الأدعية نفسها.

بدا الصفير التالي كنداء رقيق لطائر، فنهضنا نتحرك بصمت كجسد واحد في الظلام. وضعت يدي على ظهر الأسكا أمامي وشعرت بيد المحارب الساخنة خلفي. كنا نحافظ على وحدتنا بهذه الطريقة. انطلقنا بإيقاع واحد، حيث تشقق الصقيع الرقيق على العشب تحت وطأة أحذيتنا. وكان يلفنا من اليسار خرير ماء النهر، بينما تنامى من اليمين حفيف أشجار الغابة الكثيفة.

بدأ صوت الريكي يعلو رويدًا رويدًا حتى صار الصوت في مواجهتنا مباشرة وقد بدوا مثل أسماك البيرانا المتوحشة.

سرنا ببطء حتى صار صوتهم يقترب منا بشدة، وضغطت ميرا بمرفقها على جسدي، لتعلمني أن الريكي باتوا في مواجهتنا. طقطقت بلساني، فكرر أفراد القبيلة الصوت من حولي، ناشرين الرسالة عبر الصف. رفعت ميرا درعها والتصقت بها أكثر بينما نتحرك بسرعة. وخفق قلبي بشدة تحت سترتي، مرسلًا تشنجات في ضلوعي التي تؤلمني.

تناهى إلى مسامعنا صوت تأوه مكتوم بجوارنا أنبأنا بوصول أفراد الريكي إلى نهاية صفنا، فاندفعت شاهرة سيفي للأمام، بينما تشبثت بالسطح الصلب لأحد الدروع. أسقط الجسم ميرا على الأرض واندفعت مرة أخرى، مطوحة بسيفي حولي لينغرز فيهم. وهذه المرة، سمعت تهشم العظم على النصل. ركلت الجسد، محررة سيفي، ثم توغلنا، وقد انهمر المطر بينما انقشعت الغيوم عن السماء فتسللت خيوط القمر.

لم أستطع منع نفسي من تأمل وجوه محاربي الريكي، فأخذت عيناي تتفحص الوجوه في ساحة القتال.

شق ضوء البرق ظلمة السماء، وانتشر حشد المحاربين كالحشرات الزاحفة فوق الأرض، بينما دوَّى هزيم الرعد من حولنا، فارتجت الأرض بشدة.

غرزت ميرا سكينها في فخذ أحد المحاربين، فأسقطته على الأرض بدرعها، وعاجلته أنا ببلطتي، وتأوهت من الألم الممض في ذراعي. تلقفتني ميرا قبل أن أسقط، ثم سحبتني للأعلى فألقيت جسدي للأمام. وأمسكت مقبض بلطتي، ونحن نقفز فوق الجثة. وفجأة اقترب مني ظل امرأة تصرخ ناحية اليسار. فشهرت سيفي، وأصبتها في جانبها، فسقطت في الطين، وانحنيت إلى الأمام لأحافظ على توازني.

صاحت ميرا باسمي وهي منخرطة في القتال، بينما كنت أبحث عن بلطتي: «إيلين!».

فتشت أصابعي في العشب حتى وجدت المقبض، وركضت إليها هاتفة: «أنا هنا!».

ومض البرق مرة أخرى، في هسهسة وصفير، فلمحتها واقفة بجوار جثة أخرى.

توجهنا نحو دغل الأشجار، وعيناي تراقبان محاربي الريكي أمامنا. صرعناهم واحدًا تلو الآخر، ونحن نتبادل الإشارات فيما بيننا، حتى صار الطريق واضحًا. واندفعت ميرا بقوة، وحاولت موازنة عجز ذراعي وضلوعي. عضضت شفتي السفلى، بينما أكز على أسناني، وشددت قبضتي على السيف، محاولة سحب جسدي إلى الأمام.

ثم رأيته بطرف عيني، مثل لهبٍ شاحب يتحرك بخفة بين الأشجار.

توقفت فجأة، قلبي يكاد يقفز إلى حلقي وأنا أصيح: «إيري.»

شرعت أركض، وأنا أتتبعه بعيني وأتجنب محاربي الريكي بينما أقترب من خط الأشجار. كان يمسك بلطته، ويغمدها في أحد الأسكا ثم يبتعد ويُسقط آخر. وبجانبه، كان أحد

الريكي يشهر سيفه، ويجندل رجال عشيرتي عن يمينه ويساره. كان رجل الريكي نفسه الذي كاد يقتلني.

تابعتهما وهما يتحركان معًا بين الأشجار ويتوغلان في الغابة، ثم تناهى إلى أذني صوت ميرا من خلفي وهي تنادي باسمي.

قفزت فوق الجثث على أرض الغابة، وتسللت محتمية بستار الأشجار الكثيفة. وأعدت سيفي إلى غمده، بينما ملت بجسدي للأسفل، وأنا أدفع بلطتي أمامي وألوح بها في الهواء. اجتاحني الاضطراب عالمة أنه يجدر بي أن أتوقف وأعود إلى ميرا.

لم أنصت لصوت العقل بل انسقت لرغبتي الجامحة في اللحاق بإيري وهو يتوغل في الظلام. وازدادت ألسنة البرق توهجًا، وصوت المطر ينهمر فوق رءوسنا. وفجأة أمسكت بي يد في الظلام، أرجعت ذراعي إلى الوراء ورفعت بلطتي. التفت الأصابع بإحكام حول ساعدي، وانغرزت في معصمي حتى أفلتُّ البلطة. سقطت على ظهري وأمسكت اليد حذائي، وسحبتني في الاتجاه الآخر. مددت يدي نحو الأشجار عند مروري بجوارها، باحثة عن شيء أمسك به، بينما انزلقت فوق الأرض الندية وضلوعي تصرخ ألمًا.

انحنى الظل وسحبني لأقف على قدمي، ودفعني بقوة نحو إحدى الأشجار.

أخذ الريكي، الذي غرس سيفه في ذراعي من قبل، يحملق إلى وجهي. وكانت عيناه الزرقاوان تلمعان كالفولاذ المطروق في الظلام. وشعر رأسه يغطي وجهه، وقد انحل من عقدته، وجسده العريض يهيمن عليّ، بينما يضغط بيديه على سترتي المدرعة ليثبتني في مكاني.

ارتفع صوته فوق صوت المطر المتساقط: «كفِّي عن مطاردتنا».

تجاهلت ما قاله بينما تفتش أصابعي عن السكين في حزامي وصحت به: «أين هو؟».

دفعني ثم تركني واستدار مختفيًا بين الأشجار الكثيفة.

لكنني ركضت خلفه!

استدار بغتة ووضع مقبض بلطته على كتفي وقال مزمجرًا: «ارجعي الآن».

هتفت: «أين إيري؟».

دفعني مرة أخرى، لأصطدم بشجرة أخرى، بينما انزلقت على الجذع وهبطت على الأرض.

لكن رغبتي حثتني ثانية فنهضت وتبعته، وقلت مجددًا بصوت مرتجف: «أين هو؟».

حين استدار مرة أخرى، أمسك ذراعي المصابة، وغرز إبهامه في الجرح الذي أصابني به في اليوم السابق. صرخت ثم سقطت على ركبتي حيث انفتحت غرز جرحي القديم في ذراعي. واندلعت أمام عيني انفجارات ضوئية، وجاشت أحشائي، فشعرت وكأنني أطفو على الماء.

جثم فوقي، وقد حجبت الظلال وجهه وهو يقول بصوت راعد: «ستودين بنا إلى حتفنا. ابتعدي عن إيري».

هممت بأن أتفوه بشيء، لكنه ضغط بقوة، فزاغ بصري. كدت أفقد الوعي. وقد تردد صوته في رأسي، بينما دوّى من بعيد بوق قبيلة الأسكا معلنًا الانسحاب.

جاء صوت إيري من مكان ما خلفنا مناديًا: «فيسك»، كانت نبرات صوته تحفظها أذناي عن ظهر قلب.

وقف وراءنا، يحمل بلطة في كلتا يديه. وقال وهو يومئ نحو صف الأشجار حاثًّا رفيقه، ويتجنب في الوقت نفسه عينيّ: «هيا بنا».

«انتظر!». حاولت النهوض لكنني تعثرت، بينما كان يسير مبتعدًا. هتفت يائسة: «إيري!».

«ارجعي يا إيلين. قبل أن يراكِ أحدهم». ورغم الصرامة الشديدة التي اكتست بها ملامحه كانت كلماته مفعمة بالتوتر.

تأملت وجهه، وقد فغرت فمي مندهشة. كان وسيمًا مثلي ومثل أمي، لكنه كان يحمل نظرات أبي الصارمة وكتفيه العريضتين. لم يعد صبيًّا، لكنه كان أخي إيري بلحمه وشحمه.

قلت بصعوبة، محاولةً التقاط أنفاسي: «أنت إيري حقًّا». ووضعت بلطتي في جرابها على ظهري، متأملة ملامح وجهه وأنا مندهشة.

نادى رجل الريكي محذرًا: «إيري».

استدار إيري مجددًا، وأولاني ظهره وهو يقول بصرامة: «اذهبي، وانسي ما رأيتِه».

انحنيت على الشجرة، وأغلقت عينيّ؛ من الألم المنبعث من ذراعي وصدري. كان إيري حيًّا لا شك، وهذا يعني شيئًا مروعًا؛ شيئًا أسوأ بكثير من فقدانه.

تردد صوت آخر في الغابة وانزلقت قدماي في الطين وأنا أردد: «إيري».

توقف إيري لحظة واستدار ببطء وهو يتلفت حوله.

خرج أمامنا رجل ضخم الجثة في ضوء القمر الشاحب الذي يخترق الأشجار وهو يصيح: «فيسك».

تبادل ثلاثتهم النظرات لهنيهة، فشعرت بالبرودة تسري في الأرجاء. وشحذت حواسي. ثم حررت سكيني مرة أخرى ونظرت نحو النهر. لم أكن أقواهم، لكن ربما كنت أسرعهم رغم إصابتي الممضَّة.

كان بوسعي فعلها.

أطبق إيري فكيه، ثمة شيء يدور في ذهنه. ثم نظر مجددًا إلى فيسك. أومأ له إيماءة خفيفة ثم خفض بصره للأرض، وحبست أنفاسي.

كان فيسك يتجه نحوي بالفعل.

قذفت نفسي من الشجرة، دافعة جسدي إلى الأمام، لكنه أمسك بي وجذبني نحوه. وتصلبت أصابعه حول عنقي، وإبهامه يضغط على شريان الحياة. ركلت، محاولة الإفلات منه، لكنه أحكم قبضته فعجزت عن التنفس. غرزت أظفاري في يده حتى أظلمت الدنيا أمامي. ومن خلفه، كانت عينا إيري مثبتتين على الأرض.

اخترقتني نظرة فيسك، يداه كانتا كالفولاذ. أحسست بنبضات قلبي وهي تتباطأ رويدًا رويدًا، وازداد جسدي ثقلًا مع أنفاسي الشحيحة. وشخصت عيناي نحو النجوم المتلألئة عبر قمم الأشجار، بينما تلاشت ملامح كل شيء حولي شيئًا فشيئًا.

ثم ساد الظلام التام.

الخامس

أفقت على صرير عجلات خشبية وهي تحتك بالأرض الحجرية، وقد بدت ملامح الأشياء كالظلال وأنا أحاول أن أفتح عيني ببطء شديد، بينما تسللت رائحة مألوفة إلى أنفي.

كانت رائحة الشتاء القريبة إلى قلبي بما يحويه من زخَّات المطر وهي تنسال على أوراق أشجار الصنوبر والسرو العملاقة. نجحت في النهاية في أن أفتح عيني لأبصر السماء الزرقاء الفسيحة على امتداد بصري. وتناهى إلى مسامعي صوت حوافر الخيل؛ فقد كانت إحدى العربات على وشك أن تتحرك.

حاولت أكثر من مرة أن أنهض على قدمي باذلةً قصارى جهدي، إلا أنني لم أفلح فسقطت على ظهري في النهاية. كانت يداي مقيدتين من المعصمين، بينما ينزف الجرح على ذراعي مجددًا. وأبصرت بضعة من أفراد الريكي على خيولهم من حولي، فاتسعت عيناي محاولة استيعاب الأمر.

كنا في الوادي الشرقي. في طريقنا نحو الجبل؛ جبل ثورا، وقد احتشد أفراد الريكي في مجموعة ضخمة على امتداد بصري.

دق قلبي بشدة، وتلاحقت أنفاسي، راسمة نفخات ضبابية أمامي في الهواء البارد، فجثمت للخلف، أتأمل حافة الغابة عن يميني.

تراءى إيري أمامي عندما وضعت يديّ على جانب العربة، وأنا أستعد للقفز بيأس نحو الأرض، فتجمدت. كان يمتطي جوادًا رمادي اللون خلفي، ويصوب عينيه اللتين يشع منهما التوتر الشديد نحوي. هز رأسه هزة خفيفة وتطلع إلى الأمام. فالتفت لأرى صفًّا من الرماة يمتطون خيولهم جنبًا إلى جنب، والأقواس معلقة على ظهورهم، وعند رُكبهم حزم كاملة من السهام مرقَّطة الريش.

قست المسافة بيني وبين الأشجار؛ إذا حاولت الفرار فستنغرز لا شك في ظهري خمسة أو ستة أسهم، ما لم يدهسني أحدهم بحصانه أولًا.

اعتصرت ذهني، وقطرات الدم تنزف من جرح ذراعي، وأشعر بالألم الممض نتاج هذا الورم على جانب وجهي. لعقت شفتيّ فتذوقت الدماء الجافة، وأبصرت رجلين يستلقيان على ظهريهما، أحدهما دون ساق، والآخر وجهه ملفوف بضمادات ملطخة بالدم، في العربة التي تسير أمامي، فعاودت الجلوس مجددًا، وقد ضممت ركبتي نحو صدري.

كان إيري لا يزال يراقبني، وقد بدا شعره أعلى الجلد الأسود لسترته المدرعة كأنه شلال جليدي من الضفائر الملطخة بالدم. وأبصرت لحيةً نابتة على وجهه تنمو تحت عظمتي الخدين والعينين الزرقاوين المستديرتين.

كانت تلك العينان هما ما كنت أتوق لرؤيتهما طوال السنوات الماضية!

وضعت رأسي بين راحتيّ، ورحت أفكر في آخر مرة رأيته فيها. قبل خمس سنوات. كان يقاتل بجانبي في الساحة المغطاة بالثلوج وقد أمسك ببلطة في كلتا يديه، اللتين تغطيهما الدماء، وندف الثلج تتخلل شعره. كان مشتبكًا في قتال مع فتى من الريكي ثم سقطا في أخدود عميق في الأرض. ما زال صراخي يرن في أذنيَّ حين رأيته يختفي. زحفت على يدي وركبتي إلى حافة الأخدود، حيث كادت الأرض تنهار تحتي، فأبصرته ممددًا على ظهره، وقد خرجت أحشاؤه من جرح مفتوح، بينما كانت عيناه شاخصتين نحو السماء، وبجانبه تمدد جسد الريكي الذي طمر الثلج جزءًا منه.

رفعت رأسي، ورأيت عينيْ إيري تحدقان مباشرة إلى عينيّ في صمت، كأنما يتذكر اللحظة نفسها. ثم لكز حصانه، واندفع نحو الحشد، ثم تلاشى أثره مجددًا.

انتصب أمامي الجبل فوق الوادي؛ صخرة سوداء تلتحم بالغابة الخضراء تحت طبقات من القمم المغطاة بالثلوج، بعيدًا عن المضيق؛ بعيدًا عن الديار.

لم أكن أعرف أين يعيش الريكي، لكن لا بد أننا كنا في طريقنا إلى إحدى قراهم النائية، وكان من المستحيل العودة إلى الوادي إلا بعد انحسار الثلوج. إذا استطعت الهروب من الأساس، فيمكنني العودة إلى المضيق.

اهتزت العربة، فحاولت النهوض مجددًا على قدميّ. واتجه الريكي نحو الأشجار، حيث يتدفق أحد الأنهار في الغابة الكثيفة. توقفوا لسقاية الخيول، وميزت بسهولة هيئة إيري وهو يتناقش مع أحد المحاربين.

صوبت امرأة من الريكي عينين غاضبتين نحوي حين مرت متجهة نحو الماء. لم يقتلوني بعد. ولما كنت قد قاتلت الريكي لفترة طويلة فإنني أعرف السبب. أسرى الأسكا بلا فائدة، إما سيستعبدونني أو يبيعونني لعشيرة أخرى، وفي كلتا الحالتين سأخسر شرف الوصول إلى سولبيورج.

صفعتني يد بشدة على مؤخرة رأسي، وأطلق الرجل الذي يقود العربة ضحكة ساخرة قائلًا: «اجلسي وإلا ربطت قدميك وجررتك». ثم عاد إلى حصانه.

أطعته دون أن أتفوه بكلمة، وأخذت أراقب الموقف من فوق حافة العربة، حيث وقف إيري بجوار حصانه في ظل الغابة. كان يربط على ظهره بلطتين متقاطعتين، بلا غمد، على عكس الآخرين. مثلما كان يفعل في طفولتنا. ثبت نظرته على صف الأشجار الكثيفة، نحو فيسك، ثم صوبها نحوي لهنيهة مجددًا. ثم حول انتباهه إلى حصانه، وشرع يفحص السرج، ويمرر يديه على الجلد الأرقط. أما في العربة أمامنا فقد كان الرجل الذي فقد ساقه يتأوه.

اهتزت العربة عندما عاد السائق لركوب حصانه، وصاح لأحد الرماة حين خرج من الغابة. وسار عبر الساحة الخالية نحونا ممسكًا بيده قربة ماء، وحصانه يمشي الهوينى خلفه. كان شعره الأحمر الطويل، المتماشي مع لون لحيته، مضفورًا في ثلاث جدائل غير منتظمة.

حيا سائق العربة عندما وصل إليه، وأعطاه قربة الماء. تشبثت بالقضبان بأصابع مخدرة، وراقبتهما يتحدثان والحصان يسير بجانب العربة. دق قلبي بعنف، وعيناي تنتقلان من الحصان إلى الرامي، كانت جعبة السهام لا تزال مربوطة بالسرج.

جلست في وضع يسمح لي بالنظر للخلف إلى الحاجز. كان معظم الريكي مترجلين عن خيولهم وفي حالة من الانشغال التام.

جمعت حفنة من القش من تحتي، ومددت يدي بين الألواح إلى الحصان. وحين لاحظها، هز رأسه وسار خطوة نحوي.

كان الرجلان يتحدثان عندما مددت يدي لأخذ الزمام. أغمضت عينيّ، وتلوت دعاء صامتًا. وألقيت نظرة أخيرة على إيري، فصوب بصره نحوي بدوره وكأنه شعر بي، ثم لم يلبث أن اتسعت عيناه حين قذفت بنفسي من فوق الحاجز، وهبطت على السرج. انزلقت، وانحدر جسدي جانبًا، واستعدت توازني، عندما رفع الحيوان حافريه الأماميين.

صاح السائق: «أسكا!».

لكزت الحصان بكعب حذائي ووقفت على الركابين، وقد ملت للأمام لإبقاء جسدي منخفضًا قدر الإمكان، بينما انتشرت الفوضى في المكان. أبصرت من الجهة اليمنى الريكي وهم يركضون نحوي من بعيد، وقد استلوا أسلحتهم، وتواروا بين الأشجار ليقطعوا طريقي. كان ذلك الطريق هو الوحيد الذي بوسعي أن أسلكه، فإذا لم أصل للأشجار، فإن الرماة سيقتلونني.

صرخت محفزةً الحصان للركض بسرعة.

كان حصان إيري أمامي يركض دون فارس، مفزوعًا بسبب الضجة. وقف إيري وذراعاه متهدلتان، وقد اعتراه الارتباك الشديد. ومن خلفه، قفز فيسك على حصانه منطلقًا نحوي.

مرق بجواري سهم متطاير، فأصاب إحدى الأشجار خلفي، بينما تطايرت الشظايا في الهواء وأنا أمر بجوارها. حاولت الانخفاض أكثر. كان الريكي كالحجارة المتدحرجة على العشب، يتقدمون نحوي بوجوه خَبرتُها جيدًا في ساحة المعركة من قبل، وهم يشهرون أسلحتهم، وأقدامهم تزلزل الأرض.

تخطيت صف الأشجار، وقد ابتلعتني برودة الغابة، فنظرت إلى الوراء.

كان فيسك في مجال رؤيتي حين اختلست نظرة سريعة إلى النهر، كان ينطلق بسرعة السهم، وقد رفع قوسه مصوبًا إياه نحوي. ثم لم يلبث أن أبطأ سرعته، وتراجع ساحبًا سهمًا من السرج، ثم شد الوتر مطلقًا إياه، فقد كان الهدف بالنسبة له واضحًا.

صدحت في أذنيّ طقطقة في كتفي اليسرى. وساد السكون الغابة من حولي. كان رأس سهم قد اخترق جلد سترتي المدرعة. فرفع الحصان حافريه ومال جانبًا، فسقطت بقوة أرضًا وأنا أشعر بأن الهواء يفرغ من رئتي.

تدحرجت على جانبي الأيمن، محاولةً سحب قدمي، لكنني عجزت عن التنفس، وبعينين زائغتين أحسست بأن الأشجار تتمايل فوقي، وشعور بالغثيان يجتاحني. توقف الصياح، فدفنت رأسي في الأرض الرطبة، وأنا أتنفس بصعوبة تكاد رئتاي تنفجران من السعال الشديد.

اصطدم حذاء فيسك بالأرض قبالة وجهي حين ترجل عن حصانه، وطَنَّ رأسي بوقع خطواته وهو يقترب مني.

مد يده، وأمسك شعري، وسحبني مجبرًا إياي على الوقوف. وبطرف عيني، رأيت الآخرين يمسكون لجام الحصان. تأوهت؛ فقد انحشر السهم في مفصل كتفي، مرسلًا ألمًا مبرحًا طال كل ذرة من ذرات جسدي المنهك. حاولت مقاومة الألم والصمود بأي طريقة، إذ كان يجرني، وشعري بين قبضته، متجهًا نحو الأرض الخالية.

حيث كان إيري في انتظاري.

السادس

بأصابع متقرّحة حاولت جذب الحبال التي تربط يدي وقدمي بالعربة، محاولةً البقاء ثابتة على جانبي الأيمن، بينما أخذت العربة تتأرجح فوق الأرض غير المستوية، كان السهم ما زال ناشبًا بين عظامي مخلفًا ألمًا عميقًا يزلزل جسدي بأكمله.

كان إيري يركب خلفي وهو يراقبني. وكففت عن استشفاف تعابير وجهه، كي أركز كل قوتي المتبقية على الصمود. وحين هبط الليل، بدأت العربة تبطئ حركتها، فأبصرت عيناي شبه المفتوحتين النيران وهي تشتعل. واستسلمت للنوم قبل أن تهدأ ضجة المعسكر.

جاء الصباح كأنفاس لاهثة بطيئة. وازدردت لعابي بصعوبة بسبب حلقي الجاف. وأنصتُّ إلى أصوات استفاقة الريكي، وهم يخمدون النيران ويجهزون خيولهم. وعندما بدأنا الحركة مجددًا، رفعت ذراعيّ وساقيّ متشبثة بحواجز العربة لأثبّت نفسي، وكززت بقوة على أسناني، فخُيل لي أنها قد تنكسر.

آلمتني الحرارة الحارقة في كتفي، فشعرت بصداع رهيب كأن رأسي سينفجر. لم أبحث عن إيري مرة أخرى؛ فقد أوجعتني خيانته أكثر من ألم السهم. وما زاد من أوجاعي أنه كان على قيد الحياة طيلة هذا الوقت دون أن أدري عن الأمر شيئًا.

مر الوقت بطيئًا وأنا في حالة ما بين اليقظة والنوم؛ فلم أدر حقًّا إن كنت حية أم ميتة. وتباطأت العربة مرة أخرى، وعوضًا عن وقع حوافر الخيل على الصخور المنحدرة، سمعت سيرها على الجليد. تكوّرت على نفسي أكثر حين بدأنا الصعود للأعلى، وكتمت صراخي عندما غاص جسدي للأسفل.

لم نتوقف حتى استحال الدفء برودةً مع غروب الشمس، وتمازجت روائح الثلج والنار. ثم بدأت أسمع مزيجًا من صيحات الترحيب والتهليل وأصوات بكاء مكتوم؛ لقد كانت أصوات

عودة المحاربين إلى أسرهم وبيوتهم في الشتاء. كنت أعرف تلك الأصوات جيدًا. وبعيني خيالي أبصرت المضيق من فوق التل، حيث تبزغ الألوان الزرقاء والخضراء إثر انعكاس ضوء الغروب على صفحة الماء، ومن ثم تختفي أشعتها خلف السماء الضبابية. والشاطئ الممتلئ بالصخور السوداء تتكدس عليه الأخشاب الطافية المتكلسة. ربما وصل أفراد عشيرتي إلى هناك، وهم يستمتعون بدفء النيران في منازلهم المبطّنة بالألواح الخشبية. ويضطجعون على الأسرة ببطون مشبعة.

والدي؛ وميرا.

كان الوجع يضاهي ألم السهم المنغرز في لحمي.

تركني الريكي مستلقية هناك حتى توغلت الأصوات عميقًا في رأسي المشوش واهتزت العربة مجددًا. انكمشت خوفًا.

أتى صوت خشن من الظلام بجواري متسائلًا: «أين سأضعها؟».

تسلق جسم آخر العربة، فكتمت الألم في ظهري، مجيبًا «سأقوم أنا بذلك».

قُطعت الحبال الموثقة بها، وسحبت يدان رجلي، فانزلقت إلى نهاية العربة. وأثناء رفعي، اشتبك السهم بشيء فتأوهت بشدة، وقد تملكني شعور غامر بالغثيان مغلقة عينيَّ، وعندما فتحتهما مجددًا رأيت وجه إيري فوقي. طرفت بعينيّ، محاولة التركيز ثم زاغ بصري وأنا أفقد الوعي.

عندما أفقت كنت ممددة على الأرض في الداخل. وقد أضاءت النيران الغرفة المظلمة من حولي، كانت أشبه بحظيرة ما. أو ربما مخزن.

ضغطت يدٌ خشنة على وجهي، وقد همس صاحبها: «إنها محمومة».

قال آخر: «ربما بسبب العدوى. ضعوها على الطاولة».

رفعوني مرة أخرى ودارت بي الغرفة.

لسع الهواء البارد جلدي حين خلعوا عني السترة المدرعة، وأخذت أركل محاولة الوصول إلى سكيني، لكن جرابها كان فارغًا.

ظهر وجه إيري مجددًا يصيح آمرًا: «توقفي».

أمسكت به، وغرزت أصابعي في جلد سترته المدرعة. وصحت بأنين والدموع الساخنة تحتشد في عيني: «أخرجه».

«سنفعل». ثم اختفى مجددًا.

تحرّك ظل آخر أمامي، وضغطت يدان برفق حول رأس السهم وقال: «يجب أن ننتظر رونا».

«إنها تعالج جرحى أورفانجر. أخرجه منها فحسب». كان صوت أخي العميق صاخبًا في رأسي. أمسك ذراعي فسحبتها بعيدًا وأنا ألعنه. كنت أحتاج إليه بالتأكيد لينتزع السهم، ولكن محاولته للتخفيف عني أثارت اشمئزازي.

تحرّك الشخص أمامي فكشف ضوء النيران عن وجهه. كان فيسك.

انتفضت صائحة: «ابتعد عني!».

نزلت يده على فمي، وأمسكت عنقه بين أصابعي، ضاغطة على قصبته الهوائية، فأزاح يدي بعيدًا.

همست وأنا أتلوى على الطاولة: «لا تلمسني».

- «سيخرج السهم منك، يا إيلين، فاهدئي». كان إيري خلفي يمزق القماش إلى قطع صغيرة.

«لقد أطلقه عليّ!». حدجت فيسك، والغضب يتدفق في جسدي، وقلبي ينبض كأنه سينفجر بين ضلوعي.

صوب فيسك نحوي نظرة خاوية.

«إذا لم يكن قد أصابك في كتفك، لأصاب سهم آخر قلبك، ولكنتِ جثة هامدة ممددة في الغابة الآن. يجب أن تشكريه».

نظرت إلى إيري بغضب وخرجت الكلمات بمشقة من بين فكيّ المطبقين: «أشكره؟! إنني في هذا المكان البغيض بسببه».

مسح فيسك جبينه بظهر ذراعه قائلًا: «لقد حذرتك من اللحاق بنا». كانت يداه مضرجتين بدمائي.

«بوسعي انتزاع السهم الآن أو يمكنك الانتظار حتى تأتي رونا. لكن قد يستغرق الأمر بعض الوقت».

قال إيري بصوت متعب: «انتزعه». كانت عيناه منهكتين بالقلق، وهي نظرة أتذكرها جيدًا؛ نظرة ارتسمت على وجهه مرارًا.

مرة أخرى!

سمعت صوته يرن في عقلي. كانت خيوط الغروب تنحسر ببطء فوق المضيق، والظلام يكاد يحجب الرؤية. وأخذ والدنا يراقب من نافذة البيت، وضوء النيران يعكس ظله.

مرة أخرى، يا إيلين.

كان إيري يكبرني بعام ونصف العام فقط، لكنني كنت دائمًا أبدو أصغر بكثير. عجزت عن الإمساك بالدرع بشكل يناسب القتال، لذا فقد علمني كيف أقاتل من دونه، وأحمل البلطة

باليد اليسرى، والسيف باليد اليمنى. كان مجروحًا وينزف جراء تدريبي قبل أول معركة لنا.

مرة أخرى!

كانت النظرة نفسها تعلو وجهه الآن. كان يتساءل عما إذا كنت أتحلى بالقوة اللازمة.

تقدم فيسك نحوي فراقبته بحذر. كنت أعلم أنه لم يكن أمامي خيار آخر. كثيرًا ما جُرحت في معارك عديدة من قبل حتى كدت أفقد حياتي، ولكنني لم أشعر في حياتي بألم كهذا.

حدق فيسك إلى عيني وهو يسيطر عليّ بإحكام: «ستشعرين بالألم».

ناولني إيري شريطًا جلديًا فأخذتُه، قائلة بصرامة: «افعلها فحسب». عضضت بقوة على الشريط، وأخذت نفسًا عميقًا، ثم ركزت عيني على العوارض الخشبية في السقف.

وضع إيري ذراعه تحت عنقي ليثبت مؤخرة رأسي، وتشبثت به بقبضتين مرتجفتين. تكسر السهم خلفي، فتفجر في عيني ضوء أبيض ملأ الغرفة بأكملها. تأوهت في صدر إيري، وتعلقت يداي بثوبه، بينما أخذ فيسك ينقب عن رأس السهم حتى وصل إليه فأمسكه بأظافره.

انتظرني لألتقط أنفاسي. ثم نظر إليّ وسأل محاذرًا: «هل أنتِ مستعدة؟».

أطلقت أنفاسًا كالفحيح، ثم أومأت سريعًا.

أرجع ذراعه للوراء، وسحبه بحركة سريعة.

سقط السهم على الأرض، وترنحت تحت إيري ولم أشعر بجسدي. وبسرعة غطى فيسك الجرح بقطعة قماش مكورة وضغط على كتفي بشدة فعجزت عن التنفس. فتحت عينيّ كي أرى، لكنهما كانتا ثقيلتين.

عند الباب، توقفت قدمان رشيقتان تحت تنورة صوفية طويلة وسمعت صوتًا أنثويًّا يصيح بحدة: «بحق ثورا... إيري؟».

اعتدل، وتوجّه إلى الباب، ووضع يد فيسك لتمنعني من الانزلاق عن الطاولة. سقط رأسي جانبًا، وعاود وجه فيسك الظهور أمامي. كان شعره الداكن منسدلًا حول وجهه، بينما كان يعكف على تنظيف الجرح. لم أعد أشعر بالألم، لم أعد أشعر بأي شيء.

قلت بصوت مختنق: «مَن أنتَ؟».

كان هادئًا وقد بدت ملامح وجهه الحادة صارمةً في ظلال الضوء الخافت.

شقَّت دمعة حارة ببطء طريقها على جانب وجهي وأنا أعاود السؤال:

«مَن تكون بالنسبة لأخي؟».

زمَّ شفتيه، ووضع يديه على الجرح ثانية مجيبًا: «إنه أخي. وإذا تسببتِ في مقتله، فسأنحر عنقك، مثلما كان يجب أن أفعل في أورفانجر».

السابع

ألفيت نفسي وحيدة حين فتحت عيني. وشقَّ الضوء الأزرق الشاحب للصباح الألواح الخشبية فوقي داخل الحظيرة. جلست على الطاولة ثم بدأت أحس ثانية بالألم الممضّ، فارتعشت. وضعت يدي تحت قميصي، ولمست برفق الثقب الساخن والملتهب في كتفي. بينما تحسست تحته غرزًا جديدة في جرح بذراعي. فركت رسغيّ، وشعرت بالجلد الوردي المقشور يُسحب بشدة حيث كان مكان الحبل.

أحست قدماي العاريتان ببرودة الأرض، فانزلقت من على الطاولة لأقف. كان حذائي موضوعًا بشكل منظم فوق سترة درعي بجانب حفرة النار الفارغة. وتمثال إيري الصغير موضوع على الطاولة بجانبي. فالتقطته، ومررت إبهامي على الوجه الصغير، وأغمضت عيني، ورأيته في الضباب مرة أخرى. فانتفضت روحي واستيقظت من سباتها الطويل؛ لقد كان إيري حيًا يُرزق، لكن ما آلمني حقًّا أنه خاننا جميعًا.

أخي الذي شاركته أفضل سنوات طفولتي وقاتلت بجانبه، غدا الآن أسوأ من أي عدو. والدماء التي تجري في أوردتنا باتت الآن سُمًّا زعافًا.

أبصرت عبر ألواح الجدران قرية الريكي الصامتة تمتد إلى أسفل المنحدر، مكتسية بطبقة رقيقة من الجليد، وأشجار الصنوبر قاتمة الخضرة تمتد خلف المنازل كجدار سميك يعزلها عمن حولها.

انتعلت حذائي بصعوبة، وكززت على أسناني بسبب الألم المنبثق من جسدي، وزاد من ألمي تلك النار التي تنبعث من أضلعي جرَّاء سقوطي من صهوة الحصان. ربما انكسرت مجددًا. توجهت نحو الباب ورفعت بإصبعي المزلاج بهدوء، لكن حين دفعت الباب لم ينفتح؛ إذ كان موصدًا من الخارج. جثمت في الزاوية متكورة على نفسي، وضممت بإحكام ذراعي المصابة إلى جانبي ماكثة في سكون تام.

استيقظت القرية كعادتها كل يوم، حيث انبعثت الأصوات المألوفة من خوار الماشية الجائعة، وأواني الحديد وهي تتأرجح على قضبان خشبية فوق نيران الصباح، فيما انتشر عبق الجو برائحة الحبوب المحمصة فآلمتني معدتي وأغلقت عينيّ محاولة إخماد الغثيان في بطني.

بعد ساعات طويلة من مكوثي في البرد الرطب، تناهى إلى مسامعي في الغرفة المظلمة صوت إيري. فتح الباب، واندفعت أشعة الشمس الدافئة للداخل. ودلف رجل أشيب الشعر يرتدي ثوبًا أسود نظيفًا، كان طاعنًا في السن فخمنت أنه لم يقاتل في أورفانجر، وتفحصني بعينيه وأنا أكاد أتجمد في الزاوية كحيوان مذعور.

تحركت شفتاه خلف لحيته الكثة: «أهي مفيدة حتى؟ تقول رونا إن سهم سكن جسدها أمس».

دخل إيري خلفه، وحنى رأسه تحت إطار الباب المنخفض، ثم وضع حزمة من الحطب على الأرض. كان نظيفًا؛ فيما كان شعره مضفرًا، وثيابه جديدة. «تبدو قوية، إنها محاربة من الأسكا».

تمتم بشيء لم أسمعه بسبب طوفان الأفكار التي اجتاحت رأسي. كان إيري مع الريكي، ويتعامل معي كأنه مَن أسرني.

رمقني العجوز بنظرة عميقة: «أخبرتني رونا أيضًا سبب إصابتها بهذا السهم».

نظر إليّ إيري بعينين مستاءتين وقال: «هاجمها فيسك».

«ربما ستقضي الشتاء بأكمله وهي تحاول الهروب». هز الرجل رأسه مردفًا: «لن يقبلها أحد، وربما من الأفضل مقايضتها ببعض النقود حين يأتي التجار من ليوس خلال أيام».

وقفت، موليةً ظهري للجدار، فيما انتقل الألم من ذراعي إلى صدري، بينما نقلت بصري بين إيري والعجوز.

عاد الرجل إلى الخارج حيث الثلج، وزممت شفتيّ وهمست لإيري بنظرة غاضبة: «تقايضني؟ بمن؟».

أغلق المزلاج بهدوء، ووضع القدّاح على الطاولة، قائلًا باستخفاف: «إحدى قرى الريكي الأخرى».

صحت: «لا يمكنك أن تفعل ذلك».

فرك وجهه بيديه وهو يقول: «كنت قد خططت لإبقائك هنا طوال الشتاء، ثم مساعدتك على هبوط الجبل. لكنك أفسدتِ كل شيء، يا إيلين».

«أنا مَن أفسدت كل شيء؟ بل أنتَ مَن جلبني إلى هنا!».

نظر إلى الشق في الباب ثم صاح زاجرًا إياي: «صهٍ».

غلت الدماء في عروقي وهتفت: «لقد تخليت عن شعبك وإلهك لتخدم عدونا، يا إيري».

نظر إليّ مقتربًا بسرعة، وأمسك ثوبي وجذبني نحوه. «لقد تخلى عني الأسكا، وتركوني للموت. بينما أنقذ الريكي حياتي».

دفعته بعيدًا بذراعي السليمة، وأمسكت تمثاله الموضوع على الطاولة، وقذفته نحوه وكادت الضربة تصيبه، ثم قلت بكلمات غاضبة: «طيلة السنوات الخمس الماضية قتلني الحزن على فراقك. بينما كنت أنت هنا طوال الوقت! لم تسأل حتى عن آجي!».

تجمد إيري، وتراجع التوتر عن وجهه، كاشفًا عن هشاشة وضعف شديدين.

تقدمت خطوة وقلت بصوت مرتجف: «والدي».

أطرق برأسه أرضًا مرددًا: «والدنا؟». تصلب فكه وساد الصمت الغرفة. «خفت مما قد تقولينه».

«إنه حي، يا إيري، كان يقاتل في أورفانجر، وستُشعره بالعار إذا عرف حقيقتك».

هز رأسه، رافضًا الجدال معي، وهو يقول: «هل تظنين أنه سيأتي من أجلكِ؟».

«إذا لم أعد بعد ذوبان الثلوج، فسيأتي باحثًا عني».

نقل بصره إلى التمثال الملقى على الأرض. «هل أخبرته بأنني حي؟».

ومضت في ذهني صورة أبي يركض عبر الحقل نحوي، وعيناه تلمعان بالخوف. «حاولت ولم يصدقني. ظن أن سيجر أرسل روحك إليّ».

شرد ذهن إيري فجأة، وأشاح بنظره إلى الزاوية المظلمة في الغرفة. «ربما كان محقًّا فيما ظنه».

حدجته ببرود: «لم يكن سيجر مَن فعل ذلك، يا إيري، وإنما ثورا. لقد قتلت أفرادًا من عشيرتك. ماذا ستفعل عندما تموت؟ ستنفصل عنا للأبد!». وانهارت الكلمات تحت وطأة معناها. حتى أثناء حزني عليه، كنت أعتقد دومًا أنني سأراه مجددًا، وأننا سنلتقي جميعًا يومًا ما، لكن سيجر لن يسمح له أبدًا بدخول سولبيورج، ولا سيما بعد فعلته المشينة.

قال وهو يمرر أصابعه على لحيته الخفيفة، والغضب يتلاشى من صوته: «أنتِ لا تفهمين». ثم التقط التمثال من الأرض وقلّبه في يده. «لقد رأيتك و...».

استندت إلى الجدار، محاولةً أن أتمالك نفسي، بينما أراقب ملامح الأفكار التي بدت على وجهه.

ازدرد ريقه بصعوبة، وزوى ما بين حاجبيه قائلًا: «رأيتكِ وظننت أنني سأراك تموتين، وكاد قلبي يتوقف عن النبض داخل صدري».

كان ما قاله مفاجئًا لي، فقد توهج وجهي إثر كلماته، بينما تسربت من عينيّ الدموع الباردة وهي تلسعني. «ظننا أنكَ متَّ يا إيري، وحاولنا النزول إلى الأخدود لانتشال جثتك. وحاولنا...». ابتلعت الكلمات. ليس هناك تراجع عنها. «علينا أن نغادر، علينا أن نعود إلى المضيق».

تحاشى النظر إليّ وقال: «لا أستطيع».

قلت وأنا أتفحص وجهه وصوتي يرتفع مجددًا: «لماذا؟».

«يجب أن أجد وسيلة لإقناعهم بقبولك عبدة».

قلت بصوت مجلجل رن في أذني: «لا!».

«صه! إذا علم أحدهم أنني أتحدث إليك بهذه الطريقة...». تنهد مضيقًا: «إذا قايضناكِ، فستكونين حرة، ولكنك لن تعودي إلى الأسكا. أمامنا بضعة أيام قبل وصول تجار ليوس. وقطعًا سأجد حلًّا».

وبعين خيالي رأيت والدي ينظر إليّ، وعيناه الزرقاوان ثقيلتان ومجلَّلتان بالعار، فيما شعرت بثقل قلادة الأسر حول عنقي.

لم تصدق أذناي اقتراحه. «إنك تعلم أنه من المستحيل أن أصبح عبدة، يا إيري، إذ لن يقبلني سيجر أبدًا في سولبيورج، وقطعًا سأنهي حياتي قبل السماح بحدوث ذلك».

كان ذلك ما تعلمناه طوال حياتنا. فيجر يوفير فيور - الشرف قبل الحياة.

رفع عينيه إليّ، وقال بصوت خفيض: «إذا انتحرتِ، فستتركين أبانا وحيدًا في هذا العالم. لكن إذا تنازلتِ عن كبريائك وانتظرتِ حتى نهاية الشتاء، فستعودين إليه بعد ذوبان الثلوج، ستعودين إلى الأسكا وتستعيدين شرفك».

كززت على أسناني، وكورت قبضتي بجانبي. كان على حق تمامًا. صحت بصوت يرعد؛ من شدة الغضب والاشمئزاز: «إنني أكرهك».

لكنه تحمَّل كلماتي ولم يقاومها، تأملني لبرهة، وجالت عيناه في وجهي وكأنه يراني للمرة الأولى.

رد باقتضاب: «أعلم».

الثامن

أمدتني ألسنة النيران بدفء افتقدته خلال الأيام الماضية حيث جلست قربها، حيث بدأت أصابع يديّ وقدميّ المخدرتين استعادة حرارتهما. كان بوسعي الانتظار حتى يحل الظلام وأخترق الجدار، لكنني لا أعرف أين أنا بالضبط. ومن العسير أن أبقى على قيد الحياة في الجبل، وعضلات وأوتار كتفي ملتهبة وتتلوى كالثعبان تحت الجلد.

عندما هبط الظلام أخيرًا، رُفع المزلاج مجددًا، فوقفت أستند إلى الحائط. وظهر وجه صغير محاط بضفائر سوداء متموجة.

«جئت لأفحص جروحك وأساعدك على تنظيفها». كانت يدها تقبض على الشال المغزول الذي يغطي كتفيها، واليد الأخرى تحمل سلة على وركها. وأردفت مشيرة برأسها نحو بقعة دماء طازجة تتسرب من قميصي المتسخ: «إذا حاولت إيذائي، فسأدعك تموتين جراء تلك العدوى».

كانت تماثلني حجمًا تقريبًا، لكنها كانت تحمل ملامح رقيقة وترتدي ملابس شديدة النظافة، بالتأكيد لم تكن محاربة. لن أستغرق سوى ثانيتين للإطباق على عنقها.

تحركت بحذر نحوي، وعيناها السوداوان النجلاوان تفحصان وجهي، حيث خدي المتورم وشفتي المشقوقة. رفعت السلة على الطاولة، ووضعت قدرًا على الأرض أمام حفرة النار، وهي تراقبني بطرف عينها. وحين ناولتني قطعة صغيرة من الخبز، مزقتها إلى قطع بأصابعي المتسخة وأكلت بسرعة شديدة. كان الألم في فكي لا يقارن بجوع معدتي الشديد.

وضعت جرة وكومة من الملابس المطوية بعناية على الطاولة، ثم ملأت وعاء خشبيًا بالماء الساخن، فعبق الهواء بروائح اللافندر والسنفيتون.

خلعت قميصي متوخية أي احتكاك بكتفي الملتهبة، ورفعت نفسي بذراعي السليمة القوية لأجلس على الطاولة. أزالت الفتاة الضمادة المتسخة عن جرح السهم وانحنت تتفحصه، ثم تحسست أصابعها الجلد ببطء فتأوهت.

غمغمت: «يا لها من إصابة سديدة في وسط المفصل!».

تصلب فكي؛ من الألم المبرح. ربما تبدو نظيفة ورقيقة، لكنها ليست غبية بالتأكيد، وكانت تعلم أنني محاربة خطيرة، لكنها لم تخف مني، وتريد مني أن أعلم ذلك.

غمست قطعة قماش في وعاء الماء العطري وضغطتها بقوة على الجلد المتشقق في ذراعي. نظرت إلى السقف، وعضضت على شفتي، وانسدل شعري على ظهري العاري بينما أخذت تنظف الجرح. «هذا الجرح يبدو نظيفًا، ورغم أنه عميق لكنه سيلتئم». ثم نظرت إليّ وأردفت: «هل أصبتِ بالسيف؟».

أومأت برأسي، وأدركت أنها المرأة التي جاءت، الليلة الماضية. لقد خاطته بشكل أفضل مما فعلت كالدا. «هل أنتِ معالجة؟».

رفعت رأسها وكأنما أدهشها أنني أتكلم. «أنا أتعلم».

كانت تعصر القطعة الملطخة بالدماء في الماء، حين فُتح الباب خلفنا، فانتفضت. والتفت لأرى فيسك واقفًا عند المدخل. جلست مستقيمة، وأوليته ظهري، بينما أسدلت شعري الطويل على كتفي لأستر نفسي.

حدق إلى الثقب العميق في كتفي، الثقب الذي تسبب فيه. وفي الواقع، كانت كل الإصابات من صنيع يديه، ثم حول نظره إلى الفتاة قائلًا: «لقد أخبرك إيري أن تنتظريني يا رونا».

«لقد تأخرت. وأنا لديَّ مرضى آخرون عليّ الاعتناء بهم، الليلة».

اتكأ على الحائط، مواجهًا جانب الغرفة بينما عاودت الفتاة تنظيف الجرح.

«والآن، لنقم بتنظيفك جيدًا». ناولتني قطعة قماش أخرى ورفعت قدر الماء الساخن إلى الطاولة.

انهمكت في غسل الجزء الأمامي من جسدي، بينما أخذت هي تفرك ظهري ورقبتي. وبمجرد أن زالت معظم الأوساخ والدماء عن بشرتي، أخذت تجدل شعري المغبر والمتشابك، ثم أرجعت الخصلات للوراء بعيدًا عن وجهي. وعندما انتهت، التقطت قميصًا نظيفًا من السلة وساعدتني على ارتدائه.

بسطت ضمادة قماشية طويلة ووضعت ذراعي بزاوية على صدري وقالت: «أمسكيها».

أطعتها، وراقبتها وهي تلفها حول جسدي لتثبيت الذراع في مكانها.

ابتعدت لتنظر إليّ وقالت: «لم آتِ لمساعدتك على إزالة دماء قبيلتي عن شعرك الأشقر الجميل لأنني طيبة القلب، بل فعلت ذلك لأن إيري طلب مني ذلك. لقد استحق بجدارة مكانته بيننا، وأنتِ لن تدمريها».

رفعت حاجبي متسائلة: «وما الذي فعله بالضبط لنيل هذه المكانة عن جدارة؟».

أمسكت السلة، ووضعتها على وركها، ولم تلتفت للخلف حين فتحت الباب وتبعها فيسك. انغلق المزلاج بقوة، ونظرت إلى ذراعي العاجزة. لو كنا وصلنا هنا قبل بضعة أيام، ربما استطعت النزول من الجبل قبل التساقط الأول الكثيف للثلوج، لكنني أعرف أن الوضع ليس كذلك. كانت البرودة القارسة تتسلل إلى القرية، وتزداد مع مرور الوقت.

سأكون حمقاء إذا حاولت الفرار الآن، ولكن إذا صمدت طوال الشتاء وحافظت على حياتي، فقد تتسنى لي الفرصة.

التاسع

فُتح الباب بقوة على مصراعيه. جلست على الطاولة أحدق إلى الظلام، وأحسست بيدين تقبضان عليَّ قبل أن أتمكن من تمييز الهيئات في الظلال. قاومت، محاولةً تخليص نفسي، لكنَّ ذراعًا عريضة طوقت جسدي، فبثت ألمًا مبرحًا في ضلوعي وجعلت العالم يدور من حولي.

جرتني الأيدي عبر الباب من ثوبي خارجًا حيث صقيع الثلج، وانطلقت أتعثر على الطريق بقدمين عاريتين. حاولت أن أحدد اتجاهي، لكن لم يكن هناك سوى غابة من اللون الأبيض أسفل مني والضباب الداكن المحيط بالقرية.

«إلى أين تأخذونني؟».

ألقى الرجل نظرة خلف كتفه ثم مد يده وصفعني. مال رأسي جانبًا، بينما امتلأ فمي بالدم. «إذا فتحت فاك مجددًا فسأطعنك بسهم آخر، يا أسكا». ابتلعت الدماء.

سرنا تحت جنح الظلام حتى تخوم القرية، وتناهى إلى أذنيّ صوت ارتطام المطرقة على السندان، وتردد صداه في سفح الجبل الصامت. وكان الوهج البرتقالي للكُور يضيء أسفل خيمة كبيرة من القش أمامنا.

دفعني الرجل إلى الأمام فأمسكني آخر وجرني من شعري إلى الخيمة. راقبني رجل من الريكي يرتدي مئزرًا جلديًّا، ويحمل في يده ملاقط حديدية. ثم استدار واستخرج شيئًا من الكور، واتسعت عيناي حين رفع أمامه طوق الأسر الحديدي. تراجعت للخلف محاولة الخروج من الخيمة، لكن الرجلين أمسكا بي. وضرب الحدَّاد الطوق الساخن المتوهج على السندان، وأخذ يثنيه ويمدّه ليناسب حجم عنقي، بينما أخذت أدفع الجسدين خلفي.

قال آمرًا وعيناه تتفحصان عنقي: «إذا التزمت بالهدوء، فلن يحرقك».

جلت ببصري في الخيمة، أبحث عن شيء لأقاتل به، كانت الأدوات تتناثر في كل مكان، لكنني عجزت عن الوصول إليها، ودفعتني اليد الممسكة بشعري للأمام، ووضعت وجهي عنوة على السندان البارد، بينما جثم الرجل الآخر بجسده عليّ ليثبتني.

صرخت وأخذت أضرب بعنف، لكنهما كانا قويين جدًّا. واقتربت حلقة المعدن اللامعة بينما أركل. ولكن انزلقت قدماي العاريتان على الأرض الجليدية. وأمسك رجل آخر كتفي وثبتني. فصرت عاجزة تمامًا. صرخت وبصقت بينما قام الحداد بتوسيع الطوق الساخن ببطء بالملاقط ووضعه بعناية حول عنقي. ركلت مرة أخرى، وهذه المرة وجدت ساقًا فانزلقت. واحترق جلدي عندما لمسني المعدن وجذبت أنفاسًا مختنقة، وأنا أتجمد.

حام الحداد فوقي، وقطَّب جبينه: «اللعنة عليكِ! اهدئي وإلا فسأضرب عنقكِ».

انزلق وجهي على السندان، لزجًا بالمخاط والدموع الصامتة، بينما ثبّتوني، كي يبرد الطوق. لقد فات الأوان. كان المعدن الثقيل الساخن يطوق عنقي.

أضاء مشعل ظلام الطريق، وقد سحبوني إلى الخارج في الثلج. وعندما توقفنا، مرر أحد الرجال حبلًا طويلًا في الفتحة الدائرية للطوق، ثم ربط طرفه الآخر بجذع شجرة.

تركني هناك وأنا أرتجف؛ من شدة البرد بينما اتجه نحو مجموعة من الرجال يقفون بالقرب من المشعل الملتصق بالأرض، كانوا يثرثرون وهم يضحكون، يتدثرون بفراء الدببة التي تقيهم صقيع الصباح.

مددت يدي ولمست الجلد المسفوع في رقبتي، محاولةً استيعاب ما يحيط بي. ربما كان الوقت فجرًا، لكن النجوم لا تزال تنير السماء، والألوان تتراقص وراء الأشجار شمالًا.

تناهى إلى أذنيّ صوت عربة فاعتدلت في وقفتي، وشددت الحبل كي أرى الطريق، فأبصرت قافلة تمر بين صخرتين كبيرتين متعرجتين. وكانت العربة الأخيرة تجر صفًّا من الماشية خلفها. وفطنت إلى ما سيحدث حين رأيت الريكي يتبادلون التحايا. كانوا تجار ليوس. ازدادت وطأة الأمر وأحسست بصدري يكاد ينفجر؛ لا شك أنهم سوف يقايضونني.

ما زال الظلام والهدوء يخيمان على القرية، وتسلل أول خيوط أشعة الشمس في السماء. بالتأكيد إيري لا يعرف بالأمر، أو ربما غير رأيه وقرر السماح لهم بالتخلص مني.

عادت عيناي إلى القافلة، محاولةً تقدير فرصي. نظرت إلى قدميّ الغائصتين في الثلج. كانتا تؤلمانني بسبب البرودة، لا يمكنني مهاجمتهم دون أسلحة، ولا أستطيع الهرب منهم حافية القدمين. أعدت دراسة كل التفاصيل متخيلة كل السيناريوهات في ذهني؛ بحثًا عن بديل، ولكن هيهات. لا توجد أية فرصة.

أحضروا أسيرين آخرين، وربطوهما بجذوع الأشجار خلفي. ربما كانا مجرمين من الريكي. صوبت المرأة نظرة خاوية إلى الغابة، بينما وقف الرجل بتوتر، أخذت الماعز تثغو بجواري، وتمد أنوفها عبر سور الحظيرة نحو يدي المرتجفة.

أقبلت مجموعة أخرى على الطريق للانضمام إلى الرجال المحتشدين. وانتشروا حين لاحت أولى بشائر الصباح، وبدأوا أولًا بالطرف البعيد، وأخذوا يشقون طريقهم عند صف الأشجار لرؤية البضائع المعروضة للتجارة والمقايضة.

وكنت أنا من بينها.

ثبت عينيّ على الأرض، محاولةً دفع ذلك الصوت الذي يتردد داخل رأسي ولا أرغب في تصديقه؛ سوف يجرونني إلى الغابة ويلقون بي في إحدى القرى الجبلية للريكي لأباع كالعبيد. لن أرى المضيق مرة أخرى. لن أرى أبي ولا ميرا. لن أراهما في هذه الدنيا ولا في الحياة الآخرة. تحطم قلبي، وانقضت آمال عودتي إلى الديار، وابتلعتها أوجاعي.

كل ذلك بسبب إيري.

توقفت قدمان في الثلج أمامي، ورنت ضحكة عميقة. «إنها صغيرة جدًا، أليس كذلك؟».

اشتعل وجهي بالغضب الجارف كالشلال الجامح، في حين أخذ صاحب الصوت يتحرك جيئة وذهابًا، يطقطق بلسانه ثم تحرك ظله على الثلج.

توقف رجلان آخران من الريكي أمامي وثبتُّ عينيّ على قدمي، رافضة النظر لأعلى.

صاح أحدهم إلى حاملي المشاعل: «كم سعرها؟».

أجاب آخر: «أربعة بننجر».

مادت الأرض تحت قدميّ. كان هو السعر الذي دفعته مقابل أنثى الماعز التي ضحينا بها ليلة رؤيتي لإيري. حاولت أن أكبح دموع عينيّ، كانت مزحة قاسية، وكأن سيجر كان ينظر إليّ ويسخر مني، لا بد أنه كذلك.

ابتعد رجلا الريكي عني، وأظهرا اهتمامًا أكبر بالماشية، ثم توقف رجل أكبر حجمًا من الآخرين أمامي.

مد يده نحو كتفي متسائلًا: «ما خَطْبها؟».

أقبل العجوز الذي تفحصني في الحظيرة ووقف بجواره وأجاب: «مصابة بجرح من القتال».

«أهي من قبيلة الأسكا؟».

«نعم. ورغم أنها لا تصلح للعمل الآن، فإنها ستُشفى قبل ذوبان الثلج».

كورت قبضتيّ. وودت لو مددتهما لأخنقه بالحبل، تمنيت أن أشاهد بريق الحياة يخبو في عينيه المطوقتين بالتجاعيد.

اقترب الرجل الضخم حين ابتعد العجوز وأمرني: «استديري».

تراجعت خطوة للوراء وقلت: «ماذا؟».

مد يده، وأمسكني من فكي المرضوض، وجذبني إليه حتى اختنقت بالطوق، وقرب وجهه من وجهي. كنت أعرف ما سيفعله قبل أن يفعله. تحسست أنامله ربلة ساقي. فزدت من التصاقي بلحاء الشجرة الخشن، لكنه لم يتركني ودفع جسده أكثر نحوي.

قلت مزمجرة: «ابتعد عني».

ارتسمت على شفتيه ابتسامة حجبت معظمها لحيته الكثة، وأدارني بقوة لأواجه الشجرة، ودفعني نحوها، وعيناه تجولان في ظهري كحديد ساخن، ثم قال ضاحكًا: «ستأتين معي».

تركني وقد توقفت عن الارتجاف، امتلأ جسدي بحمى الكراهية الحارقة التي تجري في عروقي حين أرفع بلطتي وأشهر سيفي بجانب ميرا في المعركة. لن تردعني ذراعي المصابة عن غمد سيفي في أحشائه.

عاد إليّ حاملو المشاعل وتساءلت عما إذا كنت قد رأيت هذا الرجل من قبل. إذا كنت قد قتلت شخصًا يحبه. أخذت نفسًا عميقًا وضيقت عينيّ. لن أستغرق وقتًا طويلًا لإيجاد الفرصة لقتله. وعندما أقوم بذلك سيقتلني الآخرون لا محالة.

لكن ذلك لن يهم، حيث سيقدر الإله سيجر ما فعلته ويراه من أفعال الشرفاء.

شعرت بالطوق يُسحب حول عنقي فانتفضت، واستدرت لأرى فيسك واقفًا على الجانب الآخر من الشجرة. كان يبدو أنه ارتدى سترته المدرعة على عجل، حيث كانت أربطة حذائه مفكوكة. لف الحبل حول قبضته وسحبني للأمام.

تساءلت بجسد مرتعش: «ما الذي تفعله؟».

لم يلتفت إليّ، واتجه صوب القرية ساحبًا إياي كالحيوان، وهو يردد: «لقد دفعت ثمنك».

صاح صوت خلفنا.

لم يكترث فيسك كثيرًا وواصل السير قائلًا: «لا تستديري».

تردد صوت جدال بين الأشجار، لكنه أخذ يخفت ونحن نسير، ثم تحوَّل ببطء إلى قهقهات. ألقيت نظرة خاطفة خلفي، فجذب فيسك الحبل بقوة.

«قلت لا تستديري».

تسللت أشعة الشمس فوق أشجار الصنوبر وأنا أتعثر خلفه. وسرى الألم من قدميّ المتجمدتين وشمل ساقيّ المتشنجتين. استدرنا عند المنعطف في الطريق حيث ذابت بقايا الثلج في الطين. والتفت الريكي الذين يعملون خارج منازلهم، وأخذوا يراقبونني. لم ينظر فيسك إليهم، بل صوب بصره إلى الأمام، وهو يقودني وسط القرية مرة أخرى نحو الحظيرة الصغيرة الفارغة التي كانوا يحتجزونني فيها. كان قد اغتسل وبدا بهيئة نظيفة بعد أن أزال آثار المعركة من وجهه وجسده، وقد صفف شعره وربطه بعقدة والباقي تركه منسدلًا على فرو الثعلب البرتقالي على كتفيه.

توقف وعضضت بقوة لمنع أسناني من الاصطكاك، بينما فتح الباب وأخرج سكينه، وقطع الحبل من الطوق ووقف جانبًا آمرًا إياي: «ادخلي».

تجاوزته ودخلت الحظيرة، ووقفت ساكنة وأنا أرتجف مطوقةً جسدي بيديَّ الاثنتين. ما زالت آثار الجرح بادية في أذنه، كان أحمر اللون، ومتقرحًا تحت شعره حين قذفت السكين نحوه.

نظر إلى قدميّ مطلقًا سبابًا خافتًا، ثم أخذ كومة حطب من الطاولة، مضرمًا النيران وجذب كرسيًا من عند الجدار، ووضعه بجانب الحفرة. جلست بجانب النيران، ووضعت قدميّ على الحجر الدافئ المحيط باللهب. كانتا باهتتين ومخدرتين، تؤلمانني، ولكن لم تتأثرا كثيرًا بقرصات الصقيع.

ألقى فيسك بجواري فراء دب، بينما أخذت أدلك ساقيّ بيديّ لأبث فيهما الدفء. جلست أحدق إلى النيران وأستشعر حرارتها على وجهي المبلل بالدموع.

قلت بصوت ثابت: «كيف عرفت أنني هناك؟».

بدا وكأنه لا يرغب في الإجابة لكنه أجاب في النهاية: «سمعت صراخك في خيمة الحداد».

أغلقت عيني وازدردت ريقي، وفكرت في بكائي وتوسلي في الليلة التي سحبوا فيها السهم من كتفي. لم أتوسل من قبل. وآلمتني تلك الإهانة أكثر من جرح كتفي أو الحرق على رقبتي. مزقتني شفقته، وسلبتني كبريائي.

استطرد قائلًا بصوت قوي ملأ فراغ الحظيرة: «لقد وافقت على الاحتفاظ بك حتى ذوبان الجليد».

قلت بصوت ثلجي: «تحتفظ بي؟».

«إذا هربت، فلن ألحق بك؛ لأنك ببساطة سوف تموتين في الخلاء، خلال يوم أو يومين على الأكثر».

«أين نحن؟».

«فيلا».

« فيلا؟»، لقد سمعت عنها من قبل، كانت إحدى قرى الريكي الواقعة على الجبل. «سوف آخذك إلى بيتي غدًا».

قلت بازدراء: «أيعيش إيري هناك؟».

قال بتردد: «نعم، وعائلتنا لا تعرف شيئًا عنكِ. وإذا كنت ترغبين في البقاء حية، فيجب أن يظل الوضع هكذا».

«لماذا لم يشترِني إيري؟».

اتكأ على الجدار قائلًا: «يجب ألا يعرف الريكي هويتك، لذا يجب أن تبتعدي عن إيري».

تأملته محاولة تبين تعابير وجهه، كانت قاسية لكنها تحمل رجاء من نوع ما. كان يحب إيري بالتأكيد، كل كلمة تفوح بذلك، فسألته: «لماذا وافقت على أخذي؟».

مرر يده خلال خصلات شعره، وهو يجيب: «إيري هو أخي».

غمغمت: «بل هو أسير أبقيته كحيوان أليف». شعرت بتغيير اعترى ملامحه إثر كلماتي الحادة، فاستطردت: «لن أهرب. لكن إذا كنت تحسب أنني سأتصرف كإحدى الجواري...».

لم ينتظرني لأستكمل العبارة، فدفع الباب وغادر، تاركًا إياي جالسة أمام النار. حدقت إلى الباب الموصد، وراقبت ظله يتحرك في الضوء المتسلل من خلال الألواح الخشبية.

عندما غادر، مددت يدي إلى جيبي وأخرجت تمثال إيري. كان الخشب مصقولًا ولامعًا. اجتاحتني ذكرياتي مع هذا التمثال حيث كنت أمسك به وأدعو تحت كل قمر ينير السماء، وكنت أحمله بالقرب من قلبي أثناء القتال، وعندما أنام كنت أدسه بجانبي. لقد صرنا محاربين معًا، وقبل ذلك كنا صديقين قبل أن نكون أخوين.

كان إيري هو مَن عانقني في الظلام عندما انتفضت من نومي إثر حلمي بالهيريا ذوي العيون البيضاء الذين قتلوا أمي. وكان هو مَن أبقاني متماسكة حين تحطمت روحي من ألم فقدها. ركضت إلى أولى معاركي وكان بجانبي. وغسلت يديه من دماء قتيله الأول، وتظاهرت بعدم رؤية الدموع في عينيه. كان أقوى مني بكل الطرق، لكن كلًّا منا اعتنى بالآخر على الدوام. وبعدما فارقنا ووجدت قوة وعزمًا في تكريم ذكراه ومواساة نفسي عندما فقدته هو الآخر.

زفرت بحدة عندما أفقت من ذكرياتي ثم قذفت التمثال في النيران بلا تردد، وقلبي يبكى دموعًا سخينة.

نظرت للتمثال وهو يحترق أمامي ومعه محوت كل ذكرى، وكل أمل ضئيل لاستعادة أخي.

لقد مات إيري الذي أحببته؛ الفتى الذي كان يعرف كل خفايا حياتي المظلمة، لقد مات في اللحظة التي سفك فيها دماء قومنا. مات مثلما ماتت أمنا، لكن روحه ضاعت إلى الأبد.

رأيت الحافة الخشبية للتمثال تتحول للون الأسود المتفحم، وقد التهمته النيران حتى صار رمادًا. وتحول إلى دخان ثم تجمع كسحابة فوق رأسي. تتمدد وتتلوى، وتلاشى غبارها في الهواء.

العاشر

اعتراني القلق، فلم أنم خوفًا من أن يُفتح الباب مرة أخرى.

سرى الألم في عنقي وانتقل إلى كل ذرة من جسدي وشعرت بوخزه يتغلغل في جلدي. خلعت حذائي وجلست وحدي في الحظيرة الفارغة، وعيناي لا تفارقان الباب الموصد. وقضيت الساعات ممسكة بقبضتي قطعة حطب مكسورة، أتحسس الأوردة تحت جلدي. ربما سيقبلني سيجر إذا قتلت نفسي. ولن أكون مجرد جارية أسيرة. لكن كلمات إيري طاردتني. وتخيلت والدي طاعنًا في السن، وحيدًا في منزلنا المشرف على المضيق. لقد فقد والدتي وإيري. وكنت أنا كل من بقي لديه في هذا العالم، ولم أحتمل فكرة التخلي عنه.

بوسعي تحمُّل الشتاء، والعودة إلى هيلي وأبي وميرا، واستعادة شرفي مجددًا.

سمعت وقع خطوات ثقيلة تسحق الثلج أسفل منها، فنهضت ووقفت أواجه فيسك حين فتح الباب. وعندما سقط الضوء، كان الثلج يتساقط برفق، وقد تخلل شعره.

أغلق الباب وحدجني لبرهة، عيناه تبحثان عن شيء في عيني. «يقول إيري إنه ليس عليّ الشعور بالقلق لأنك لن تشكلي خطرًا على عائلتنا».

كان إيري يكذب؛ إذ لن أتردد في قتلهم جميعًا إذا ظننت أن ذلك سيُرجعني إلى دياري، لكن ربما لن يحدث ذلك الأمر.

«لقد أنقذت حياتك. آمل أن يكون ذلك سببًا كافيًا لتصديقه».

ضغطت لساني على سقف حلقي. «لقد حاولت قتلي قبل أن تحاول إنقاذي».

دفعته جانبًا، وفتحت الباب وخرجت إلى الهواء الطلق. سقطت على ركبتيّ، وجمعت حفنة من الثلج، ووضعتها على جلد عنقي المتقرح. واندفع مني نَفَسٌ هائج طويل من الألم.

شرع يسير أمامي على الطريق، وتبعته في الاتجاه الذي سلكناه اليوم السابق. درست المنحدر. كانت القرية تمتد فوقنا؛ بيوتها متراصة في صفوف غير منتظمة. وفي ذروتها كانت تقع دار الطقوس، تشبه إلى حد كبير تلك الموجودة في قريتنا. وكان الدخان يتصاعد من سقفها، ويتلاشى في الضباب المعانق لقمم الأشجار.

مرة أخرى، توقف الريكي ليحدقوا إلينا ونحن نسير بين ندف الثلج المتساقطة. تركوا أعمالهم وأخذوا يراقبون سيري كالكلب خلف فيسك في قريتهم. لم ألتقِ أعينهم ونحن نمر بجوارهم، كنت أشعر بالخزي والضعف، وكانوا جميعًا يعرفون ذلك.

كان المنزل يقبع على جانب التل بالقرب من صف الأشجار، وكان أكبر حجمًا من بعض البيوت الأخرى، وقد شكلت الجذوع الطويلة والرفيعة الجدران والسقف المصنوع من القش. ولم ينتظر فيسك حتى أدخل، ففتح الباب واختفى، تاركًا إياي في الخارج.

لم يكن هناك شيء يردعني عن السير مباشرة إلى الأشجار التي غطت الثلوج قممها. وما من شيء يمنع الريكي من غرز السكين في جسدي. ربما قتلت العديد من محاربي هذه القرية. وربما ينبغي أن أقتل المزيد قبل مغادرة هذا المكان.

دلفت ببطء من الباب، وبحثت يدي بشكل غريزي عن السكين التي لم تكن موجودة منذ أيام. كان إيري جالسًا، وهو ينحني فوق طاولة خشبية ممسكًا مطرقة، وحوله كومة من فراء الحيوانات. اختلس النظر لي بطرف عينه، ثم عاد إلى عمله، بيد أنني ميزت التوتر في هيئته، وكانت عضلات جسده مشدودة تحت القميص، وتمنيت لو استطعت أن ألتقط أحد جذوع الحطب المشتعلة في النيران ثم ألقيه عليه.

قالت امرأة عجوز تقف عند الطاولة الممتدة وسط الغرفة الرئيسية: «أنتِ فتاة الأسكا، أليس كذلك؟». كانت يداها تضغطان على كتلة العجين فوق لوح الخبز، ثم مسحت الطحين عن المريلة المتسخة التي تغطي تنورتها الصوفية الحمراء، وأخذت تتفحصني بنظراتها المدققة. كان شعرها الذي خالطه الشيب مضفورًا في خصلة طويلة ملتفة حول رأسها، لكن عينيها كانتا زرقاوين ولامعتين مثل عينيْ فيسك. وانزلقت نظرتها تفحص ذراعي المضمومة إلى صدري. وزمت شفتيها متسائلة: «ما خَطْب ذراعك؟».

نقلت بصري إلى فيسك، الذي اتكأ على الحائط وأخذ يتناول الطعام.

قال دون أن يرفع رأسه عن طبقه: «أطلقت سهمًا عليها».

قالت المرأة بعينين متسعتين: «ثم اشتريتها؟».

أشار فيسك بذقنه مجيبًا، غير عابئ بالنظر إلينا.

سمعت صريرًا من فوقي، وأبصرت عينين كبيرتين فوق حافة العلية، تراقبانني أسفل شعر أسود غزير.

«أنا إنجيه». ثم أمالت رأسها إلى الجانب مفكرة وأردفت: «يجب أن ألقي نظرة على ذراعك. هل أنتِ جائعة؟».

هززت رأسي نافية، وأشحت بنظري بعيدًا.

سحبت ملعقة خشبية من القدر وطرقت بها على الحافة، وقالت مبتسمة: «تعالَ إلى هنا يا هالفارد».

سمعت خطوات بالأعلى، ثم هبط صبي صغير قافزًا على سلم خشبي يصل إلى علية النوم. ولم تفارق عيناه الطوق حول عنقي وهو يتحرك عبر الغرفة.

ربتت إنجيه ظهره، وناولته الملعقة قائلة: «حرِّك الوعاء بينما ألقي نظرة على ذراع الأسكا».

تراجعت خطوة باتجاه الباب.

فرغ فيسك من تناول طعامه ووضع الطبق جانبًا، واعتدل إيري ليتبعه. خرجا وقد تركا الباب مفتوحًا. وعبر المدخل، رأيت يد فيسك تمتد إلى دلو، وتخرج سمكة فضية كبيرة، ثم يضعها على طاولة خشبية. طفق ينظر إليّ وهو يسحب سكينه ويقطع بطن السمكة. وعلى الجانب الآخر من الطاولة، فعل إيري المثل.

وضعت إنجيه وعاءً على الطاولة، وأعدت حزمة من الأعشاب، ونقعتها كما فعلت رونا. وحين اقتربت مني، ألصقت ظهري بالحائط.

توقفت لحظة، وخفضت يديها قائلة: «لا أريد سوى تطهيره».

بالطبع كانت تريد ذلك. كنت بلا فائدة بذراعي المصابة.

تحركت نحو الطاولة، وأنا ألقي نظرة على الغرفة. بدا المنزل مأهولًا، ربما لعدة أجيال خَلَت على الأقل. اكتست بعض الجدران بألواح خشبية جديدة، تم استبدالها بغيرها، لكن كان معظمها ذا لون رمادي بفعل الشتاءات العديدة والأمطار الكثيرة. وامتد على الجدار الأيمن نضد طويل، تراصت أسفله براميل تحتوي على الطعام المخزَّن، وتدلت الخضراوات من الخطافات. وخلف حفرة النار، تراصت ثلاثة صناديق كبيرة مغلقة، ربما هي مكان تخزين الأسلحة.

جلست ببطء وأخذت إنجيه تحل الضمادة عن ذراعي، التي أمسكت بها بقوة لأثبّتها في مكانها. غرزت أناملي في حافة المقعد الطويل وهي تخفض ذراعي ببطء، ووضعت يدي في حجري. كان الجلد، الذي يغطي كتفي بلون أرجواني داكن، ما زال منتفخًا، وقد ذهبت عنه الحمرة التي اكتسى بها منذ يومين. حاولت إخراج أنفاسي ببطء، وأغلقت عينيّ لأمنع الدموع المحبوسة. وأدركت من طريقة تعاملها معي أنها معالجة. ربما تكون المرأة التي

تتدرب رونا معها. انصبَّ تركيزها على الجرح، فأخذت تنظفه برفق، ثم دهنت الجرح بمادة تشبه شمع النحل، فقربت وجهي لأشم الرائحة.

قالت وهي تشير برأسها إلى النيران: «إنها المادة الموجودة بالقدر».

كان الصبي يقف فوق النيران ويقلبها ببطء ويراقب.

«هذا هالفارد». اقتربت أكثر من ذراعي فتحركت للوراء إذ أحسست بعدم الراحة عند اقترابها مني.

عندما خرجت ذراعي من القميص، تحسست أصابعها الجلد حتى رقبتي حيث امتد الحرق. توجهت إلى الباب، وجمعت حفنة من الثلج من الخارج في قطعة قماش. ورأيتها تطويها.

«تفضلي». وضعتها على الحرق ورفعت يدي لأمسكها بينما تفحصت جرح الكتف. «لم تخبرني رونا بأنها عالجتك». ثم نظرت إلى الغرز مُعلقةً: «تبدو بحالة جيدة. سنزيلها الأسبوع المقبل. وحينها سيبدو وجهك أفضل». أمسكت يديَّ وقلبتها ونظرت إلى جلدي المتشقق بسبب تقييدي بالعربة. «وهذه أيضًا. لكن الكتف ستستغرق وقتًا أطول».

عندما لم أنبس بكلمة، انحنت لتنظر إلى عينيّ. وتمنيت لو أمدُّ يدي لأمسك ضفائر شعرها، وأضرب وجهها بالطاولة.

أعادت ذراعي مرة أخرى إلى القميص، وثبتتها على صدري، ثم لفَّتها مرة أخرى وهي تقول: «ستبقين هنا معنا؛ سأجهز لك سريرًا في العلية. ولو كنت مكانك لابتعدت عن أي شخص خارج هذا البيت». ثم اعتدلت وسارت نحو قدر حديدية كبيرة على الطرف الآخر من الطاولة، وغمست شيئًا في طبق خشبي. نظرت إليّ، وعضت شفتها ثم ألقت نظرة خلف كتفها إلى فيسك، الذي ما زال يراقبنا من الخارج وهو منهمك في تنظيف الأسماك. ثم همست: «لا أعرف السبب الذي دفع فيسك ليصطحبك معه، لكن يبدو أنه ستتم مبادلتك

قريبًا، لذا فإنه حتى ذلك الحين، ستقومين بمساعدتي في البيت. ليس عليكِ التكلم، ولكن إذا كنتُ سأطعمكِ، فعليك أن تعملي بجد».

وضعت الطبق أمامي، ثم وضعت يديها على جانبيْ خصرها النحيل. وانتظرت مني أن أنظر إليها ثم قالت محذرة: «إذا أثرت المتاعب في هذا البيت، يا فتاة الأسكا، فلن تستطيعي الوصول إلى ذلك الجبل».

الحادي عشر

كانوا يعيشون مع الأسكا ردحًا من الزمن.

نظرت إلى السرير الذي أعدته إنجيه على طول الجدار المقابل للأسرَّة الأخرى في العلية. توقعت أن أنام مع الحيوانات. وربما أرادوا أن أعرف أنهم لا يخافون مني، أو ربما أرادوا وجودي قريبًا منهم لترصد حركاتي. على أية حال، كانوا حفنة من الحمقى، إنني لا أشبه إيري.

صعدت بمجرد جلوسهم لتناول العشاء، لم أطق الجلوس إلى الطاولة بجانب أخي والتظاهر بعدم معرفته. ولم أستطع التظاهر بأن تفكيري لا ينصب على قتلهم جميعًا. اضطجعت على جانبي وأخذت أحملق إلى الحائط، حيث أخذ صقيع يتسرب من فتحة به، فرفعت يدي ووضعت أصابعي فيها.

قال إيري كاسرًا الصمت: «هل رأيتِ كيرلينج، اليوم؟».

كان صوت إنجيه الرقيق هو الشيء الأنثوي الوحيد في المنزل: «أجل. لقد أحسن فيدر صنعًا بقطع الساق. سيتحسن تدريجيًّا ويُشفى. أما كبرياؤه...».

ارتفع صوت فيسك لائمًا: «لقد فَقَد ساقه».

قالت إنجيه بنبرة حادة: «لكن لم يفقد شرفه. إن جيدا بحاجة إليه. سيولد طفلهما قريبًا».

قال هالفارد بهدوء: «ماذا سيفعل دون ساقه؟ لن يستطيع القتال بعد الآن، ولن يمكنه العمل في الزراعة».

أجاب فيسك: «سيربي الماعز، وستتحسن أمورهم».

ران صمت طويل آخر قطعته إنجيه: «اجلس ودعني أنظر إليك، يا عزيزي».

قال فيسك متنهدًا: «لقد عالجته بالفعل».

قالت تحثه مرة أخرى: «اجلس». وسمعت صوت احتكاك المقعد بالأرض الحجرية، يتبعه صوت فكها سترته المدرعة.

استنتجت أن زوج إنجيه مات، وبوسعي تخمين السبب. إن معظم أفراد العشائر يموتون أثناء الحرب، لكن بعضهم يموت في الغارات الخاطفة أو بسبب المرض. ومن الواضح أن فيسك كان رب البيت، لكن إنجيه ليست معدومة الحيلة؛ إذ كانت تدير المنزل وتعمل معالجة عند تغيبه في أوقات القتال. والفارق الزمني الطويل بين فيسك وهالفارد قد يعني أن ثمة المزيد من الأطفال، أو ربما لم يكن هالفارد ابنها، مثل إيري.

«أتلك آثار الأسنان؟».

غصت أكثر تحت البطانية، متذكرةً شعوري حين غرزت أسناني في لحم فيسك. ما زالت أتذكر مذاق دمه في فمي.

قالت مبتسمة: «لم تكن جروحك كثيرة في المرة السابقة حين عدت إلى المنزل. هل أنت متأكد أنك قاتلت كثيرًا؟».

ضحك هالفارد وإيري، وابتلعت الغثيان الصاعد في حلقي.

رد فيسك بسرعة: «لقد قتلت الكثيرين».

تساءل هالفارد: «وهل فتاة الأسكا تلك جاءت من المكان الذي قاتلت فيه؟». سكت الآخرون، وضجَّ المنزل بصوت تشقق الخشب في النار.

رفعت رأسي وجذبت جسدي بهدوء إلى حافة السرير، لأنظر إليهم من بين الألواح الخشبية. كان هالفارد يملأ الجرار الفخارية بالمرهم الذي صنعوه فوق النار، وجعل ينظر إلى إنجيه منتظرًا إجابة.

جلست إنجيه إلى الطاولة بجانب فيسك. كان قد نزع قميصه، وشرعت تنظف موضع العضة في ذراعه. وأبصرت بقية بشرته مغطاة بخدوش وجروح وكدمات.

أجاب فيسك: «نعم».

نظر هالفارد إليه وهو يغلق غطاء الجرة وسأله: «لماذا لم تقتلها؟».

انحنت إنجيه فوقه، ومسحت جرحًا في رقبته. بدت صغيرة بجوار جسده الضخم. واختلس فيسك النظر إلى إيري، وراقبت إنجيه نظراتهما الصامتة المتبادلة. «أحيانًا نأسرهم. أنت تعرف ذلك».

«حسنًا، أنا مسرور لأنك لم تقتلها، إنها جميلة».

كان إيري جالسًا في الزاوية الأخرى من الغرفة، وارتسمت على محياه ابتسامة عريضة. وارتجفت مقطبة جبيني. لم أود التفكير في رؤية نفسي في وجهه. ولم أرغب بالتفكير في أمنا وفيما ستظن لو رأت إيري الآن.

«شعرها يماثل شعرك، يا إيري».

انتفض قلبي وتصلبت كتفا إيري. نهض فيسك، وأمسك قميصه.

كانت إنجيه تراقبه وقالت محذرة إياه: «ابتعد عنها، يا هالفارد».

«لماذا؟» وضع الجرة، وزوى ما بين حاجبيه مردفًا: «إنها مجرد جارية أسيرة».

قال فيسك مصححًا: «إنها ليست مجرد جارية، إنها من الأسكا».

غمغم هالفارد، وكتفاه تتراخيان: «إيري من الأسكا أيضًا».

«إنها خطيرة، يا هالفارد. ابتعد عنها». انتظر فيسك حتى يلقي الصبي نظرة عليه.

أومأ موافقًا وقد بدا عليه التردد.

كانت إنجيه لا تزال تراقب فيسك بينما تعبئ اللوازم في السلة على الطاولة. قالت: «ومن الغريب أنك أحضرتها إلى هنا».

لم يردَّ، بل ارتدى قميصه وأمسك بلطته، ثم فتح الباب وخرج إلى الظلام. انتقلت عينا إنجيه إلى إيري، لكنه لم ينظر أيضًا. وبعد بضع دقائق، ترددت في المنزل أصوات ضربات البلطة وتشقق الخشب.

دفعت نفسي للوراء بعيدًا عن حافة السرير، واستلقيت حين تحولت حفرة النار إلى رماد متقد. صعد هالفارد السلم، فجثمت تحت البطانية، مختبئة في الظلام. تحرك بتوتر لبضع دقائق، قبل أن تتردد أنفاسه العميقة والطويلة. غفا ويده تتدلى من البطانية، وأطراف أصابعه تلامس الأرضية.

سمعت الباب يُفتح في الأسفل، ثم يُغلق بعد بضع دقائق، وأحسست بإيري يرفع جسده فوق حافة العلية، متخطيًا هالفارد، وانحنى ينظر إليه، ويمرر يده على شعره، ثم اعتدل مقتربًا مني.

همس، وهو يجلس بجانب سريري: «لقد خرجت».

صوب بصره إلى الطوق حول عنقي، وتحاشى النظر إلى عينيّ. «ظننت أن أمامنا المزيد من الوقت. أنا آسف».

لم أنبس بكلمة، آخر ما أريده هو شفقته.

«سننتظر حتى ذوبان الجليد، يا إيلين. ثم نجد طريقة لإعادتك إلى الديار، إلى آجي».

انقلبت على ظهري لأواجهه. كانت نيران الحفرة خابية فلم أرَ عينيه. «إن هيلي هي موطننا يا إيري».

أشاح بنظره قائلًا: «فيلا هي موطني الآن».

أحسست بضيق شديد يجثم على صدري وقد حاولت إخفاءه عنه بقدر ما استطعت. إن الأسوأ من فقدان إيري هو معرفة أنه اختار طوعًا الرحيل. مات في عيني مجددًا، وشعرت بالوحدة مرة أخرى، ولكن بشكل مختلف.

همست: «ماذا حدث لك؟ ماذا حدث في ذلك اليوم في أورفانجر؟».

رمقني طويلًا، حتى فُتح الباب مرة أخرى، فنهض متجهًا نحو سريره. وجذبت البطانيات محدقة إلى وجهه إذ كان يرقد على ظهره. كانت ملامح وجهه كما عهدتها منذ الطفولة.

صعد فيسك السلم، واستقر على فراشه بجانب سريري، وخلع حذاءه وجلس ساكنًا في الظلام. جذب نفسًا طويلًا، وهو يفرك وجهه بيديه، ثم خلع قميصه وعقص شعره لأعلى في عقدة.

استلقى يحدق إلى السقف لوقت طويل، ويداه معقودتان على صدره. راقبت الأفكار تعبر وجهه واحدة تلو الأخرى، حتى أغلق عينيه.

تحسست الطوق وتخيلت كيف سيبدو وجه أبي لو رآني. أغلقت عينيّ وتملّكني الخوف، جارفًا الهدوء، فالأسوأ من كوني مجرد جارية أسيرة الآن هو أن يعرف والدي أين أنا الآن.

الثاني عشر

مكثت أحدق طويلًا في الظلام قبل أن يستيقظ الآخرون، وسمعت صوت إيري الصغير في عقلي. أغلقت عينيّ، محاولة رؤية الصبي الذي كنت ألهو معه على الشاطئ في طفولتنا، وحاولت أن أتذكر صوته آنذاك، لكنني عجزت عن استحضاره. بدت الذكريات فجأة أشبه بالأحلام؛ لحظات بين اليقظة والنوم.

عندما سمعت إنجيه تتحرك بالأسفل، نزلت السلم مستخدمة ذراعي السليمة في كل خطوة، ووقفت بجانب حفرة النار، وانحرفت عيناي إلى الخبز الجاف الموضوع على الطاولة.

«صباح الخير». ناولتني القداح، وطفقت أنظر إليه في راحة يدي المبسوطة، وكانت ذراعي الأخرى مربوطة بجسدي.

التفتت عندما اكتشفت خطأها وقالت: «معذرة، أظن أنكِ لا تستطيعين القيام بذلك». ثم مدت يدها لتأخذه مرة أخرى وأغلقت يدي، واستدرت متوجهة نحو الجدار بجانب الباب لجمع الأخشاب. رفعت حاجبها ثم عادت إلى الحبوب على الطاولة. وضعت الحطب بيد واحدة عند حافة حفرة النار بدلًا من الوسط. وضربت القداح بالحجر حتى أطلق شرارة، لكن الحطب لم يشتعل. فقرَّبته أكثر وحاولت مجددًا. وهذه المرة اشتعل، وأمسكت الحزمة المشتعلة ووضعتها في مكانها قبل أن تنطفئ.

نظر هالفارد نحوي من حافة العلية، بعينين ناعستين وشعر منتفش حول رأسه وقال: «هلا علمتني كيفية القيام بذلك؟». هبط السلم وهو يرتدي سرواله فقط، فتذكرت إيري الصبي، حافي القدمين ووجهه المتسخ.

فركت بكفي على صدري، كأنني أمحو الذكرى.

أشحت بعينيّ بعيدًا، متجهة نحو إنجيه. كانت تنخل الحبوب داخل وعاء، مركزة نظرها عليّ. «هل يمكنك تسخين الماء، من فضلك؟».

وجدت المغلاة، وعندما التفت، كان هالفارد يقف بجانبي، يمد يده. وراقبتنا إنجيه بينما أعطيته المغلاة، وقفز من حافة النار. ووضع أصابعه في شقوق أحد الأحجار المسطحة التي تشكل الأرضية، ورفعه بحذر. تحت الحجر، كان الماء يتدفق في قناة متوارية تحت المنزل.

لم أشهد شيئًا مثل ذلك من قبل، فنظر إليّ بفخر، واستخدم كوبًا لملء الغلاية، ثم ناولني إياها مبتسمًا. وصبت إنجيه الحبوب على حجر كبير ساخن يُستخدم للطهي، وقامت بتحميصها بملعقة خشبية كبيرة. وعبق المنزل برائحة المكسرات الساخنة، فتقلصت معدتي جوعًا.

تحرك إيري وفيسك فوقنا، وابتسمت إنجيه وهزت رأسها متمتمة: «مثل الدببة في الشتاء».

رص هالفارد الأطباق الخشبية، وملأتها إنجيه بالحبوب ثم صبت فوقها الماء الساخن. هبط إيري وفيسك، بشعور سائبة، ووجوه تعلوها آثار النعاس. وحك إيري ذقنه بينما جلس، وأغلق عينيه بسبب الضوء.

تحرك هالفارد على المقعد الطويل ليفسح مكانًا، لكن إنجيه أخذت الطبق الخامس وناولتني إياه، مشيرة برأسها نحو الزاوية بجانب الباب: «اجلسي هناك».

نظرت إلى الطبق، وشعرت بالحرارة تتسلل إلى خدي. حدجها إيري بنظرة ذات مغزى، لكنها تجاهلت نظرته. لماذا عليها السماح لإحدى الجوارى بالجلوس إلى المائدة؟ إنها لا تثق بي. يجب عليها عدم الوثوق بي. ولماذا أعبأ بالأمر؟ إنني بدوري لا أرغب في الجلوس بصحبتهم.

أمسكت مقعدًا ووضعته بقوة على الحجر، وجلست والطبق في حجري، وتناولت ملعقة من الحبوب. وشعرت بوخز شديد في شفتي، لكنني كنت جائعة فلم أهتم بالألم.

قالت ملقية نظرة عابرة على إيري وفيسك: «سآخذ رونا والأسكا لجمع نباتات القيصوم من أجل أدالجيلدي. أما أنتما فاجلبا الجعة من القبو عند سفح الجبل».

حدق فيسك إليها، وتجمدت يده الممسكة بالملعقة فوق الطبق.

نظرت إليَّ ثم التقت عيناهما. «أتظن أنني لا أستطيع حماية نفسي؟».

قال هالفارد بفم مليء بالطعام: «وماذا عني؟».

قالت إنجيه مبتسمة: «يمكنك الانضمام إلينا، يا عزيزي».

استمعت إليهم وهم يخططون لليوم، ويقسِّمون المسئوليات. وعندما نهضت إنجيه، انحنت لتلثم خد إيري، ومررت يدها خلال شعره. فكززت على أسناني. واندلعت في صدري شرارة تهدد بإحراق كل شيء. وحين مرت بفيسك، فعلت المثل. استرخى كلاهما تحت لمستها، ومالا نحوها. كان فيسك وإيري رجلين بالغين، ربما أكسبتهما المعارك غلظة وخشونة، ولكنهما كانا يتصرفان برقة شديدة معها.

أدرت وجهي للجدار وحاولت ابتلاع الطعام، ورغم أنني لا أتذكر والدتي مثلما يتذكرها إيري، كما أننا عشنا مع والدنا معظم حياتنا، فإنني لم أحب لمسة إنجيه، ولم تعجبني الرقة المتبادلة بينهما، كنت أرى إهانة في تصرفها نحوه وكأنها أمه، والأدهى أن إيري كان يتصرف معها وكأنه ابنها، وكنت أرى ذلك جحودًا بيِّنًا.

اعتصرت يدي الملعقة حين تناولت آخر لقمة. ثم وقفت وغسلت الطبق، ووضعته في الصندوق الذي سحب هالفارد الأطباق منه. وبينما كان إيري يخرج من الباب وراء فيسك، حدجني بنظرة محذرة كي أُحسن التصرف.

اتكأت على الجدار منتظرةً، بينما رفعت إنجيه على الطاولة سلتين كبيرتين بمقابض جلدية، وانتزعت من الحائط مقصين حديديين، إذا أرادت أن أتناول طعامي منزويةً مثل الحيوانات، فلن أبذل جهدًا لمساعدتها.

انفتح الباب خلفي ودخلت رونا، تنفض حبيبات الثلج عن شعرها الأسود وتنورتها. كانت محمرة الخدين تتلفع بدثار صوفي.

عندما ابتسمت، كشفت شفتاها عن أسنان بيضاء متناسقة مجيبة: «صباح الخير».

ركض هالفارد نحوها وعانق خصرها هاتفًا: «رونا».

رفعت بصرها إليَّ، وتأملت وجهي ثم كتفي. وبمجرد أن وقع بصرها على طوق الأسر، أشاحت بوجهها. قالت: «تبدين أفضل حالًا». ثم مدت بين يديها عباءة صوفية خضراء وأضافت: «جلبت لك هذه».

حدقت إليها.

أضافت وهي تدفع العباءة نحوي: «لاتقاء البرد».

أخذها هالفارد منها ودفعها بين يديّ متسائلًا: «ألن ترتديها؟».

اقتربت إنجيه من الطاولة، وقد جذبت فوق رأسها قلنسوة عباءتها. ناولتني سلة، ووضعت الأخرى على وركها.

مشيتا جنبًا إلى جنب، وركض هالفارد يسبقهما، وأنا أتبعهم من الخلف، قطعنا الطريق عبر البيوت، ولاحظت بطرف عيني ملامح القرية. حيث امتد أمام ناظريَّ صف من المنازل على جانب الطريق بين منزل إنجيه ودار الطقوس، باستثناء خيمة الحداد وبناء يبدو أنه قبو القرية، والمثبت بابه الخشبي في واجهة جرف صخري.

في آخر منزل على الطريق، وقف رجل مع ابنه وابنته أمام ظبي معلق على شجرة. وبدت عيناه السوداوان الفارغتان تلاحقانني أثناء المسير، ولسانه يتدلى من فمه. رفع الرجل سكينه، وأظهر للصبي مكان القطع. ومن خلفهما امرأة تجمع البيض في مئزرها، راقبتني وهي تعتصر بقبضتيها حاشية تنورتها.

وإذ أوشكنا على أن نغادر القرية، صار الدرب أكثر وعورة، إذ اخترقته الغابة، واتبعنا بحذر آثار أقدام منطبعة على الثلج وتوغلنا في الصعود. بدت القرية صغيرة من علٍ، وهياكلها الخشبية الداكنة متراصة معًا، والدخان يتصاعد من الأسطح.

انحدر المسار بشكل حاد فسلكناه حتى تضاءل الثلج رويدًا رويدًا. ومع تسلل أشعة الشروق فوقنا، سرى الدفء إلى أطراف جسدي، ربما للمرة الأولى منذ وصولي إلى فيلا. لكن الشتاء ما زال في بدايته، وأيام دافئة كهذه كانت نادرة، وربما كانت الأخيرة.

كانت إنجيه ورونا تتحدثان بهدوء، وتناوبتا حمل السلة، وأخذت أصغي إليهما وأنا أحمل السلة بيد واحدة على وركي المتقرحة. تحدثتا عن امرأة مسنة تعاني السعال، وطفل أعرج، وبعض الرجال الذين لن يتعافوا من جراح المعركة بعد عودتهم من أورفانجر، وذكرتا مجددًا اسم رجل يدعى كيرلينج.

راقبت الدرب بعناية، وحفظته عن ظهر قلب في ذاكرتي. لم نكن بعيدين عن القرية، لكننا كنا نتحرك للأعلى، وليس للأسفل. وعندما ضاق المسار بين واجهتين صخريتين شديدتي الانحدار، حركت السلة أمامي لأمر من خلالهما. وحين انفرج المسار مجددًا، ألفينا أنفسنا في مساحة كبيرة من الخلاء مغطاة بأعواد القيصوم البيضاء والصفراء المتمايلة في النسيم، والتي نمت وارتفعت حتى خصري.

وضعت إنجيه ورونا السلة واستقرتا على الأرض، وأيديهما تمتد لتقطيع الأعواد الأقرب إليهما. وأخذتا تقطعانها بالمقصات، وتجذبانها من الشجيرة الكثيفة.

مدت إنجيه يدها للسلة التي كنت أحملها، فوضعتها بجانبها. قالت وهي تضع برفق الأعواد المقطوعة في السلة: «هيا، أزيلي الأوراق. سنحتفظ بها».

جلس هالفارد بجواري وقال: «إنهم من أجل أدالجيلدي. هل لدى الأسكا أدالجيلدي؟».

تجاهلته، وقمت بنزع الأوراق من القيصوم ووضعتها بيننا. وفعل الشيء نفسه مع الأعواد في سلة رونا، حيث تداخلت كومة الأزهار كأنها أشجار ساقطة. كسر أحد الأعواد بيده، وفتح الزهرة برفق وبحذر كي لا يسحق بتلاتها، ورفعها بيننا. وعندما لم أتحرك، دفعها نحوي قائلًا: «إنها لكِ».

أمسك معصمي وقلب يدي ليضع الزهرة في راحتي كبيضة في عش. وارتسمت على محياه ابتسامة بريئة.

وقفت إنجيه وتحركت بعيدًا في الخلاء، وتبعها هالفارد. تأملت الزهرة في يدي، حتى شعرت بعينيْ رونا تحدقان إليّ. وجالت نظرتها ببطء في وجهي.

قلت بفظاظة: «ماذا؟». ووضعت الزهرة داخل العباءة.

طرفت بعينيها وقالت: «لا شيء، إنك تبدين تمامًا مثل إيري، مع تلك العباءة الخضراء وشعرك». اكتسى صوتها بنبرة حزن، وارتخت زاويتا فمها.

إذن، كانت تعرف مَن أكون. أو راودتها الشكوك على الأقل.

خفضت بصري وعدت للعمل. لم أكترث كثيرًا بملاحظتها عن أنني أشبه إيري، ولم يهمني قرابينهم أو عاداتهم. كان الأسكا في بيوتهم مع عائلاتهم، ينعون موتاهم، وأنا في فيلا أقطع الزهور لآلهة الريكي.

نظرت إلى المقص في يد رونا. إذا شئت فبوسعي قتل ثلاثتهم الآن.

بوسعي أن أضرم النيران في حقل القيصوم هذا ونحترق جميعًا.

الثالث عشر

مع أولى نسائم الصباح، امتلأ المنزل بتلال ضخمة من القيصوم وأكاليل طويلة محبوكة من خشب الأرز. كان الباب مفتوحًا، فتسللت ألوان أشعة الشمس البكر، وعبق الهواء برائحة الأعشاب الندية.

فككت ذراعي، ومددتها بحذر كي أجرب استخدامها، فآلمتني. ولكنني إذا أبقيتها ملفوفة فستتصلب. وضعت رءوس القيصوم في سلال كبيرة ومسطحة، كما أوصتني إنجيه، وراقبتني وهي تجلس إلى الطاولة تُخرج الملابس من الصندوق الموضوع عند الجدار. لفت نظري الصندوقان الموجودان بجواره، وحاولت تخمين أي منهما يحتوي على الأسلحة. بالتأكيد يحتفظون بها في المنزل، وقد تفحصت السطح في المرة السابقة. لم تكن أسلحة فيسك وإيري تفارقهما خلال النهار، وليلًا يضعانها بجانب الفراش. لكن لا بد أن إنجيه وهالفارد لديهما سلاح أيضًا.

وضعت على الطاولة قمصانًا نظيفة مطرزة بخيوط ذهبية، كانت تشبه الملابس الرسمية التي يرتديها الأسكا في المناسبات. قالت وهي تلقي السترات المدرعة والأغماد والجرابات أمامي: «سيتعين عليك تنظيفها ودهنها، ثم تلميع الأبازيم».

انتهيت من رص القيصوم ورفعتها عن الأرض، وجلست بجوار النار، وشرعت أفرك الأوساخ والدماء عن الجلود بفرشاة حتى صارت نظيفة، ثم دهنتها وفركت الفجوات بأصابعي، مثلما كنت أفعل مع درعي ودرع أبي. آلمتني ذراعي وأحرقتني بسبب الحركة، لكن كان من الأفضل تحريك العضلات.

خلع إيري قميصه، ومد يده نحو الملابس الرسمية، وتجمدت يدي على الغمد في حجري. كانت تمتد عبر جانب جسده ندبة سميكة ومتجعدة، وردية ولامعة على بشرته. كان الجرح

النازف الذي رأيته وهو مستلقٍ في قاع الأخدود. وقلما أرى مثل تلك الندبات، إنها جروح لا ينجو منها الناس عادةً.

نظر إيري خارج الباب إلى المنزل الصغير القابع عبر الطريق، وتساءل: «هل سيأتي كيرلينج؟». وبجوار المنزل كانت ثمة أعمدة راسخة في الأرض لبناء غير مكتمل يبدو أنه مزرعة. وكانت ثمة حديقة صغيرة داخل البوابة زاخرة بنباتات الراوند والكراث.

هزت إنجيه رأسها وأجابت: «كلا». ثم سحبت المقعد الطويل من أسفل الطاولة، وأخذت تضفر شعر فيسك للخلف، ثم جمعته في عقدة أنيقة ربطتها بحزام جلدي. «هل يمكنك أن تضفري شعر إيري، أيتها الأسكا؟». أشارت نحوه وتصلبت أصابعي على الحزام الجلدي.

جلس ونهضت ووقفت وراءه لأمسك شعره بيدي. لم ينظر إليّ، لكنه لم يجفل من لمستي، فشعرت بأنني سأجهش بالبكاء.

كان هالفارد يجلس على الأرض، فسألني وهو ينظر إليّ: «هل تعرفين كيف؟».

ضحكت إنجيه ساخرة: «أليس لديها شعر؟».

أجبت: «كنت أضفر شعر أخي». وانحبست الأنفاس في صدري الملتاع.

نظرت إنجيه وهالفارد إليّ. ران الصمت على إيري، واعتدل في جلسته.

تساءل هالفارد بصوت حذِر: «ماذا حدث له؟».

قطبت إنجيه جبينها وقالت موبخة: «هالفارد».

فرقت الشعر إلى ثلاثة أقسام متساوية وقلت ببرود: «لقد مات».

ران الصمت على هالفارد.

ضفرت الخصل الكثيفة والمتموجة للخلف بعيدًا عن وجهه ثم ربطتها. دأبت على تضفير شعر إيري بهذه الطريقة، وكان يفعل المثل معي. وابتلعت غصة تلك الذكرى في أعماقي كأنها حجر وتراءت لي ذكريات الماضي، فها هو إيري يجلس أمام النار وهو يضحك، وأحيانًا كان يستلقي على الثلج وقد أصيب إثر التدريب الشاق للمحاربين.

طرفت بعيني. كان فيسك يجلس أمامه، وقد مال للأمام على مرفقيه وأخذ ينظر إليّ، كأنه يرى الذكريات تتشكل خلف عينيَّ.

أشحت بوجهي بعيدًا، ونظفت كتفي إيري، ووضعت الضفائر على ظهره. وقف والتقط سترته المدرعة من الطاولة ووضعها فوق القميص الخفيف. ورغم أنه لم ينظر إليّ عندما أخذت أحكم جوانب السترة، فإن عينيه امتلأتا بالتوتر خلف الصلابة المرسومة على وجهه.

شددت الأحزمة حول جسده الممشوق، متذكرة قيامي بالشيء نفسه قبل خمس سنوات في خيمة والدنا المعتمة.

وفور أن ارتدى ملابسه، التقط حجرًا أسود مستديرًا ومسطحًا من الطاولة، وفرك بإبهامه السطح المحفور عليه أحرف باهتة. نظر إليه للحظة ثم دسه في سترته.

كانت إنجيه تساعد فيسك على ارتداء الدرع وقالت: «أحسنتِ صنعًا، إنه أنظف مما كان عليه منذ سنوات».

أثار سماع كلماتها مشاعر الندم داخلي على تنظيف السترات.

عندما فرغوا من ارتداء ملابسهم، تفحصتهم إنجيه مليًا مهتمة بكل تفصيلة بدقة شديدة.

كان هالفارد يراقب من الأرض بوجه نعسان وهو يتساءل:

«متى سأذهب للقتال؟».

أجاب إيري بشبه ابتسامة: «لن تذهب مطلقًا».

خلال خمس سنوات، سيكون قد بلغ سن الاستدعاء ولكن الصغار لا يقومون إلا بالإجهاز على الصرعى على أرض المعركة. وستمر عشر سنوات حتى يسمحوا له بالانضمام إلى الخطوط الأمامية.

مدت إنجيه يدها نحوي بقطعة قماش مطوية، مربوطة بخيط قائلة: «تفضلي».

لكنني لم آخذها.

قطبت بارتباك: «إنه مجرد فستان».

تساءلتُ بحدة: «من أجل ماذا؟».

نهض هالفارد مجيبًا: «من أجل أدالجيلدي». ثم بسطه ليريني إياه. كان فستانًا أسود بسيطًا من الصوف بأكمام طويلة وتنورة ممتدة. وعلى الجزء الأمامي اصطفت أزرار عظمية صغيرة بيضاء اللون في خط بسيط ومرتب.

ازدردت لعابي وهززت رأسي وقلت: «كلا».

قالت إنجيه وهي تتفحص قميصي وسترتي المدرعة وسروالي؛ وهي الملابس نفسها التي أذهب بها إلى المعركة: «قطعًا، لا يمكنك ارتداء ملابسك هذه».

صحت: «لن أذهب».

ردت بصوت عصبي: «لم أطلب رأيك!».

رنوت إلى إيري ببصري لكنه كان موليًا اهتمامه نحو فيسك.

اضطرب قلبي وشعرت بجفاف حلقي، بالتأكيد لا يمكنني الذهاب إلى احتفالات الريكي، خاصة تلك التي تكرِّم محاربيهم، يا له من شعور بغيض، سيثير ذلك غضب سيجر بالتأكيد.

قال إيري كما لو كان يقرأ أفكاري: «ستُهين إلهها».

«إن جميع العبيد يذهبون، لا بد أن تخدمي، ولا يمكنك الذهاب إلى دار الطقوس بهذه الملابس».

تراجعت للوراء وقلت بحدة: «لا».

صدح صوت فيسك الهادر في الغرفة: «أسكا». واتجهت عيناه نحوي، فارتجفت رغمًا عني.

كان الآخرون يحدقون أيضًا، وفغر هالفارد فمه، وتلاشت الدماء من وجهي.

كان فيسك يضع يديه على حزامه، وصدره مشدود تحت قميصه الأنيق قائلًا بصرامة: «ستذهبين إلى الاحتفال، وستخدمين، وسوف ترتدين الفستان».

كززت على أسناني، وغضبي يتأجج. لم أعبأ بطوق الأسر حول رقبتي؛ فلست جارية من جواريهم.

نظرت إليه بثبات، والحنق يتصاعد داخلي: «وإذا لم أفعل؟».

نطقت نظرته الباردة والصلبة الجواب؛ سوف أُعاقَب. سيعاقبني. وإذا لم يعاقبني لعصياني المتعمد، فستعلم إنجيه أن هناك خَطْبًا ما. وسيعرف جميع الريكي حقيقتي، ومن ثم سوف ينهار كل شيء.

أخذ إيري ينظر إليّ ، بعينين متوترتين تترجاني أن أطيع فيسك.

اعتصرت يداي المتعرقتان الفستان وازدردت ريقي بصعوبة، ثم اتجهت نحو العلية.

راقبتني إنجيه، وهمست: «قلت لك إن النار تسري في دمها، يا فيسك».

خلعت ملابسي، وألقيتها على السرير، وارتديت الفستان. لم أرتدِ واحدًا منذ موسم القتال، عندما أرسلت عشيرتنا المحاربين إلى المعركة. ربطت الأزرار وشددت الخصر، وحبكت القماش حول جسدي. كانت الياقة واسعة ومفتوحة، تسمح بانكشاف الطوق.

علت وجهي ابتسامة ساخرة؛ على الأقل كان دافئًا.

هبطت السلم ووضعت أطراف التنورة الطويلة على ذراعي. لم أجد إيري ولا فيسك. وكانت رونا تلف الأكاليل في حلقات وتكدسها فوق بعضها، فابتسمت لي بلطف.

قالت إنجيه، وهي تمر بجانبي متجهة نحو العلية: «مشِّطي شعرها يا رونا».

وضعت رونا الأكاليل وجاءت إلى الطاولة، في انتظاري. نظرت لها بغضب ثم جلست. عندما لمستني، انتاب التوتر جسدي بأكمله، وأغلقت عيني، وشعرت بيديها تتخللان شعري، وأصابعها المعقوفة تسحبه لتحل الضفائر القديمة المتشابكة. قامت بتسريحه وأخذت الأطراف بيديها وسحبت المشط عبره، بينما أخذت أحدق إلى النار.

عندما توقفت عن الحركة، نظرت إليها، كانت تحدق إلى الخط المحلوق على الجانب الأيمن من رأسي، وسألت: «أهكذا تمشط نساء الأسكا شعورهن؟».

مددت يدي بشكل غريزي لأمررها عليه.

بعثرت الجدائل حتى صارت سميكة ومتموجة بالأعلى، ثم ضفرتها خلف أذني اليسرى، ومررتها حول مؤخرة رأسي ثم فوق كتفي اليمنى. كانت بطيئة ودقيقة، واهتمت بتضفيره بدقة متناهية باستخدام جدائل رفيعة ومتشابكة. وحين انتهت، ربطت الطرف وتراجعت لتنظر إليّ متأملة بإعجاب.

التقطت المكحلة من الطاولة وفتحتها. «إن نساء الأسكا يستخدمن هذه، أليس كذلك؟».

نقلت بصري بينها وبين المكحلة محاولة معرفة سبب تصرفاتها اللطيفة معي، لكن وجهها لم يبح بأفكارها. غمست أصابعها في المكحلة ثم مرت بها حول عينيّ، مسودة الجلد ثم أجرت إبهاميها على خديّ في خط مستقيم، واسترخت عضلاتي المشدودة قليلًا. كان ما تفعله يبدو مألوفًا. أغلقت عينيّ، وتذكرت ميرا في ظلام خيمتنا، تضع الكحل على وجهي، ثم فتحتهما، آلمتني الذكرى فحاولت طردها بعيدًا.

عاودت رونا العمل في صنع الأكاليل فوقفت بجوارها، وأمسكت أحدها ولففته كما تفعل. فتح هالفارد الباب بقوة وركض، ثم توقف فجأة وفغر فمه.

هبطت إنجيه مرتدية فستانًا أرجوانيًّا داكنًا.

هتف هالفارد وكان لا يزال يحدق إليّ: «انظري إليها، يا أمي».

دلف فيسك وإيري من الباب ثم توقفا أيضًا وطفقا ينظران إليّ، وهما يتفحصاني من رأسي حتى أخمص قدميَّ وقد تصلب جسداهما. لم أرفع عينيّ، وواصلت العمل في الأكاليل محاولة تهدئة الاحمرار على وجهي. كنت أشعر بالإهانة من قيامهم بتزييني لحفلتهم. ورؤيتهم ينظرون بإعجاب إلى ما فعلوا تجعلني أرغب في قطع يديّ وإلقائهم جميعًا في الجحيم.

ناولت إنجيه فيسك وهالفارد السلال، ودفعتهما إلى الخارج، ثم أشارت إلى السلال الأخرى على الطاولة. « هيا أحضروهم بسرعة».

أمسك إيري سلة وسلَّمني إياها وهو يهمس: «تبدين فاتنة»، فذكَّرتني ابتسامته تلك بذلك الصبي في الماضي؛ أخي الحبيب الذي غادرنا إلى حيث لا رجعة.

تأملته من رأسه حتى أخمص قدميه، ثم حدجته بنظرة غاضبة: «وأنت تبدو مثل الريكي».

الرابع عشر

وقفت عند مدخل دار الطقوس تحت الثلج المنهمر، أمسك سلة مليئة بالقيصوم. كان المدخل المقنطر الضخم منحوتًا بدقة في مدخل الجبل، والأشجار منقوشة بأشكال مائلة، وعليه وجه ثورا بفم ممتلئ بالنار. كانت عيناها الواسعتان الثاقبتان تحدقان إلي، وأسنانها مكشوفة. وكل يد ممدودة تحمل رأس دب.

كانت الجدران مبنية من جذوع شجر عملاقة يفوق حجمها أيًّا من الأشجار المحيطة بالقرية. وفي المدخل، اضطرمت نار متأججة في وسط الحجرة، ومن السقف تدلت قرون الظباء وهي تحمل شمعدانات. وتدفقت الحرارة من الباب وأدفأت ظهري، بينما تشبثت بفستاني كتلٌ من حبات الثلج. ومن بعيد، تحركت عاصفة نحو فيلا، تخلل غيومها الداكنة تساقط ثلجيّ أكثر كثافة؛ ثمة عاصفة ستحتجزني في القرية طوال الشتاء!

وقفت إحدى الجواري تحمل سلة من نبات القيصوم على الجانب الآخر من المدخل، كانت عيناها مصوبتين إلى الأرض، وتقف بلا حراك، وهي ترتدي فستانًا رماديًّا من الصوف يشبه فستاني، وكان شعرها مضفورًا بإحكام إلى الخلف. كان الطوق حول عنقها ناعمًا؛ ربما لطول ارتدائه، ووجهها الخالي من أي تعبير ينطق بالشيء نفسه.

صعد الريكي على المنحدر الثلجي، فأشحت ببصري إلى الغابة؛ كانت جماعة ممن أعتبرهم أعدائي يتحركون نحوي، والأسلحة مربوطة حول أجسادهم، وأنا واقفة هنا أحمل سلة من الزهور. ما الذي سيمنع أحدهم من إلقائي في النيران؟

آلمتني كتفي بسبب وزن السلة، وتوترت العضلات الضعيفة تحت الجلد، فنقلتها إلى الجانب الآخر.

وصلوا عائلة تلو الأخرى، وثمة رجال ونساء يرافقون أطفالهم أو المسنين. وتوقفت المجموعة الأولى قبل الدخول، وأخذ كل شخص منهم زهرة قيصوم وضمها بلطف بين يديه. وحاولت تحاشي العيون الغاضبة التي ترمقني، والكراهية المشتعلة في نظراتهم، لكنها تبدلت سريعًا إلى شعور يشبه التشفّي، فيما يرونه عدلًا، عندما لمحوا الطوق المحيط بعنقي.

كانوا يبغضونني، تمامًا كما أبغضهم، لكنهم انتصروا، وكانوا يعلمون ذلك.

هتف صوت هادئ من خلفنا: «جودريك». ورفع الرجل أمامي بصره، فتسللت ابتسامة إلى وجهه الصارم.

استدرت لأرى امرأة عجوزًا ترتدي فستانًا أصفر تقف خلفي، وتحمل قفصًا من الخيزران، ومن داخله حدقت إليّ بومة بيضاء اللون بعينين صفراوين كبيرتين. كانت الخيوط الطويلة للقلائد ذات الخرزات الخشبية تتدلى من عنق المرأة. ففهمت أنها التالا؛ أي مفسرة إرادة ثورا.

ركض الأطفال إليها وأدخلوا أصابعهم في القفص، فقامت بإدخالهم إلى دار الطقوس الدافئة. دلفوا، زرافات ووحدانًا، ومشوا عبر الممر المفضي إلى النار، حيث وقفوا معًا للحظة صامتة، ثم أسقطوا زهور القيصوم في اللهب. وملأت رائحة القرابين المحترقة الهواء برائحة زهرية متفحمة، انبعثت في كل الأرجاء وطوقتني كالقيد.

تحرك العبيد يعيدون ملء السلة بيدي عندما تفرغ من القيصوم، ويساعدون في حمل الأشياء إلى الداخل للريكي القادمين، حتى خلا الدرب، وبدت القرية بالأسفل شاغرة، باستثناء المنزل الواقع أمام بيت فيسك، حيث ما زال الدخان يتصاعد من السقف، وضوء النيران يظهر من النافذة.

جاءت إنجيه والتقطت السلة من ذراعي، وأومأت نحو الأبواب. ترددت لأن دخول دار طقوسهم كان بمثابة خيانة عظمى.

حثتني إنجيه قائلة: «أسكا»، فتبعت العبيد الآخرين تحت المدخل المقنطر حيث ارتفعت الأصوات، في حين كان الهواء دافئًا، فوخز بشرتي الباردة. أغلقت الأبواب، وصرّت مفصلاتها الحديدية الكبيرة، فسرى الهدوء أفراد قبيلة الريكي، واتخذ الرجال والنساء مكانهم على مقاعد طويلة تحيط بالنار في صفوف تمتد إلى مؤخرة الحجرة، واندفع الأطفال إلى الأمام وجلسوا على الأرض. وجدت مكانًا عند الجدار الخلفي مع العبيد الآخرين، وضغطت بيدي على ذراعي التي تؤلمني، ولاحظت المزيد من الأعين تحدجني بالنظرات القاسية.

خيم الصمت على الجميع حين وقفت المرأة ذات الفستان الأصفر، تمرر أصابعها عبر شعرها الذهبي الطويل، الذي خالطه الشيب، صائحة: «تعال يا فيدر».

نهض رجل ضخم ذو لحية سوداء خشنة، ثم وقف الجميع. ابتسم، واتخذ مكانه بجوار التالا، ويده على مقبض سيفه. اتجهت أبصار الريكي إليه بجلال وإكبار، إذ كان واضحًا أنه زعيم القرية.

صاح الرجل: «مرحبًا، مرحبًا بكم في الدار». ثم أشار لهم بالجلوس فأطاعوا، وجلسوا على المقاعد في وقت واحد تقريبًا.

ناولته التالا القفص فأومأ لها ووضعه على المذبح أمام النار، ثم رفع الغطاء ووضع يده في الداخل ليحرر البومة. وفيما كانت ترفرف بأجنحتها، وضعت المرأة وعاء خشبيًا كبيرًا وخنجرًا برونزيًا أمامها.

رفعت الخنجر، متطلعة إلى وجه البومة. «نشكركِ، يا ثورا؛ لأنكِ أعدت محاربينا إلى بيوتهم». صدح صوتها في الأرجاء.

أمسك فيدر الطائر، بينما وضعت التالا نصل الخنجر على صدر البومة ودفعته بحرص بين العظام. شق نعيق الطائر السكون ثم كف تمامًا عن الحركة، فأمسك فيدر الجسم فوق الوعاء حيث تسرب الدم.

دق الريكي بقبضاتهم على المقاعد الخشبية، ورفرف الصوت في صدري كالأجنحة. وعندما انقطع سيل الدماء، وضع فيدر الطائر الهامد على الطاولة ثم عاد إلى مقعده.

دوَّى صوت التالا في دار الطقوس: «مرحبًا بكم في أدالجيلدي». لكن بدلًا من توجيه انتباهها إلى الرجال والنساء، انحنت على المذبح الحجري ومالت إلى الأمام، ناظرة إلى وجوه الأطفال. اعتدلوا وجلسوا على أعقابهم وأخذوا يتهامسون فيما بينهم.

نظرت إليهم بعينين تلمعان بالفخر وقالت: «اجتمعنا معًا، هذا المساء، لتكريم محاربينا الريكي. أحرقنا القيصوم تكريمًا للذين لم يعودوا إلى ديارهم. إننا نشكر ثورا على حياتهم وشجاعتهم». وتعالت مجددًا أصوات القبضات على المقاعد الخشبية، فانكمشت الغرفة حتى كاد صدري ينفجر من الغضب.

«وكي نفهم الشرف الذي نستحقه، يجب أن نتذكر قصة ثورا، يجب أن نتذكر سبب قتالنا».

ثم شرعت تحكي وهي تمد يديها: «وُلدت ثورا من الجبل، في الانفجار العظيم الذي خلق ديارنا. وانبثقت من اللهب والرماد. وخلقت من الصخر المنصهر شعبها وهيأت لهم الجبل كي يعيشوا فيه، وسمتهم الريكي بسبب بأسهم وقوتهم، لكن السلام لم يدم طويلًا»، ثم أردفت بصوت خفيض: «رأى سيجر، إله المضيق، ما فعلته ثورا وامتلأ قلبه بالغيرة، وأرسل شعبه إلى الجبل ليهدم ما بنته ثورا، ومن ثم ولدت العداوة الدامية، وأقسمت ثورا على الانتقام الأبدي من سيجر، وأرسلت الريكي إلى خلجان البحر الكبير لتدمير الأسكا. وكل خمس سنوات، منذ ذلك الحين فصاعدًا، نلتقيهم في ساحة المعركة لنجلب المجد لثورا». ثم أغمضت عينيها وهي تشبك يديها أمامها.

كانت قصة مختلفة عن تلك التي يرويها الأسكا، لكن النهاية المأساوية كانت واحدة. كانت كراهيتنا للريكي محفورة في قلوبنا، زرعها فينا سيجر. لقد تحولت المشاجرة بين إلهين إلى رغبة في الانتقام ونزاع دموي. وكل خمس سنوات، نفقد أحباءنا؛ أقاربنا؛ كل من نحب ثم نقضي السنوات الخمس التالية ننتظر بفارغ الصبر اللحظة التي نجعل فيها الريكي يدفعون ثمن ألمنا. كانت ثمة نار عتيقة متقدة بداخلي.

«لقد جلب محاربونا الشرف لثورا في موسم القتال هذا، ومزقوا أعداء إلهنا، كما ستفعلون في يوم ما جميعكم». اعتدلت، ولامس طرف ثوبها الحجر، فاستطردت: «وثورا بالطبع راضية عنكم».

تعالت الصيحات في القاعة، والتصقتُ أكثر بالجدار مراقبة ما يحدث، شاعرة بالغثيان مما أسمعه.

«أجل، إن ثورا مسرورة، وعلينا الآن تكريم المحاربين الذين أسدوا إلى شعبنا هذا المعروف العظيم، هيا».

نهض الأطفال، وتدفقوا في الممرات عائدين إلى ذويهم.

وبينما نُظفت الأرض، تقدم محاربو الريكي في دار الطقوس، وعائلاتهم تشيعهم بنظرات الفخر والإعزاز. وقعت عيناي على إيري، الذي وقف بجوار فيسك على الجانب الآخر من الغرفة. ملأوا الممر بينما أخذ الريكي يشاهدون، والكثير منهم يذرف الدموع. وجلب الأسرى من مؤخرة الغرفة سلال الأكاليل المصنوعة من خشب الأرز، ووضعوها عند قدمي التالا. انحنت التالا، ومدت يدها وأمسكت أحد الأكاليل، ووضعته أمامها على راحتيها المفتوحتين مرددة لمن يأتي دوره: «نكرمك، أيها الريكي؛ لأنك كرَّمت ثورا. لاج موند».

انحنى الرجل أمامها لترفع الإكليل فوق رأسه وتضعه على كتفيه. وحين اعتدل، غمست إصبعها في وعاء دماء البومة ولمست ما بين ترقوتيه. انحنى الرجل أمامها، وابتعد عن

الصف، وعاد إلى مقعده. وكانت الأيادي تلمسه وهو يمضي. ومن أسفل حنجرته، لمع الخط الأحمر القاني للدماء على بشرته.

كررت الكلمات نفسها، وهي تنظر إلى المرأة التالية في الصف وتضع الإكليل على كتفيها. وبعدما باركتها التالا بدم القربان، تقدم فيسك إلى الأمام. ولمست وجهه، وتحدثت إليه بلطف. «نكرمك، أيها الريكي؛ لأنك كرمت ثورا. لاج موند». نظر إليها، وانحنى لتضع الإكليل عليه، ورسمت خطًّا عند ياقة قميصه المفتوح. وعوضًا عن العودة إلى مقعده، تنحى جانبًا، سامحًا لإيري بالتقدم.

اتسعت ابتسامة التالا، وهي تنظر إلى وجه إيري الجميل. «نكرمك، أيها الريكي؛ لأنك كرمت ثورا. لاج موند». انغرزت كلماتها في روحي كنصل حاد.

لم يكن إيري من الريكي، كان من الأسكا.

لم يكن ينتمي إليها، بل ينتمي إليّ.

كتمت أنفاسي، واعتصرت قبضتيّ أمامي حتى سرى بي ألم غير محدود.

تذكرت كيف نظر والدي إلىّ أنا وإيري عندما أقمنا طقوس الجنازة لروح أمنا، وتذكرت كيف قالت عيناه إننا كل شيء في حياته، كنا كل شيء حتى رحيل إيري، ثم خفتت شمس عالم والدي مجددًا، لكنها ما زالت تشرق وتغرب بداخلي، وصرت ابنه وابنته، أحمل اسمه وشرفه. كان عبئًا ثقيلًا، لكنني كنت الوحيدة القادرة على حمله، وعلمت أن جزءًا منه يعتبرني مسئولة عن موت إيري، رغم أنه لن يتفوه بذلك أبدًا؛ لأنني كنت كذلك.

كنت رفيقته في القتال وهذا يجعلني مسئولة. وكان واجبي أن أحافظ على حياته، كان يجب أن أضحي بحياتي قبل أن تُسلب حياته. وطارد الشعور بالذنب أحلامي، كنت أرى إيري في كل كوابيسي. لقد ذهبت إلى موسم القتال مستعدة للقصاص لأخي. لكن سيجر كان ينتظرني في أورفانجر، مستعدًّا ليصب جام غضبه عليّ. والآن أُعاقَب بسبب ضعفي.

لقد فشلت. عرفت ذلك في اللحظة التي سقط فيها إيري في الأخدود العميق.

أزاحت التالا إحدى خصلات شعره قبل أن يتجه إلى الممر. راقبته، والفخر يتسلل على وجهه كأشعة الشمس. ومسحت دمعة سالت على خدي، وشعرت كأن إصبعًا يمر على جلدي ففتحت عيني، جالت عيناي في الموضع الذي وقفت فيه التالا، وللحظة ما خُيِّل لي أن عينيها تترصدانني.

الخامس عشر

انتهت مراسم الطقوس، فتدفق أفراد الريكي إلى القاعة الخلفية لدار الطقوس مثلما تتدفق أسراب الأسماك في المحيط. جاءت إنجيه لتأخذني وتضعني بجانب برميل من الجعة، ثم غادرت تاركة إياي للخدمة. حافظت على بصري للأسفل، محاولة البقاء غير مرئية بينما يصطفون أمامي. وداخلني شعور بالخزي والعار. تناولت الأكواب ثم ملأتها وسلمتها بحركات رتيبة، متجاهلة الشتائم على شفاههم.

ضجت الغرفة بأصوات الريكي وهم يجلسون إلى موائد طويلة أمام أطباق الحساء ولحم الغزال المشوي، يتناولون الطعام معًا. وجلس إيري مع إنجيه وفيسك وهالفارد عند الحائط البعيد. بينما جلست رونا على الطرف الآخر من المائدة برفقة رجل وامرأة يبدو أنهما والداها وثلاثة أطفال أصغر سنًّا.

وقفت التالا أمامي وهي تمسك كوبًا، ورمقتني بنظرة ثاقبة: «مرحبًا. أنتِ الأسكا التي جلبوها من أورفانجر، أليس كذلك؟». أمالت رأسها جانبًا بفضول متفحصة إياي من رأسي حتى أخمص قدميَّ.

وقف الآخرون عن كثب، يستمعون، وراقبتهم إذ يقتربون، وأيديهم تتجه نحو أسلحتهم، فغمرني شعور بالحذر.

لوحت بيدها في اتجاه الكدمات التي في طريقها للالتئام على وجهي، وعلى شفتيها ابتسامة وقالت: «إنكِ جميلة رغم تلك الجروح. ما اسمك؟».

تحركت بتوتر وأنا ألتقط الكوب من يدها، دون رد. وعيناها لا تغادرانني بينما أملؤه. وعندما ناولتها الكوب، وقفت دون حراك، كانت لدهشتي لا تزال تراقبني.

تقدمت نحوها امرأة ضخمة ممتلئة البدن، وهمست في أذنها، فأومأت التالا، وانصرف تركيزها عني وانتقل إلى اتجاه آخر. ولكنها رغم ذلك ألقت نظرة أخيرة عليّ ثم ابتعدت. وواصل الريكي الواقفون قريبًا مني التحديق إليّ وسط مشاعر عدائية.

اخترق هالفارد الأجساد أمامي، وسلمني كوبًا وابتسم ابتسامة عريضة وسألني: «هل رأيت فيسك وإيري يا أسكا؟».

كان انتباهي ما زال متجهًا نحو الريكي الذين يراقبونني.

قال وهو يثني ذراعيه فوق النضد: «عندما أبلغ سن القتال، سأكرَّم أيضًا».

كانت هي الكلمات نفسها التي قلتها لوالدي! في طفولتنا كنا نجلس أنا وإيري عند مدخل قريتنا ونراقب الأسكا ينطلقون للقتال. لم نطق صبرًا للانضمام إليهم، وتحققت أمنيتنا أخيرًا حين كان إيري في الحادية عشرة، وكنت أنا في الثانية عشرة من العمر. وبعد خمس سنوات فقط، سيحقق هالفارد أمنيته.

أخذ الكوب من يدي وركض بعيدًا، ناثرًا الجعة أثناء ذهابه. وعندما وصل إلى طاولته، صعد إلى المقعد بجانب فيسك، وهمس في أذنه. انتقلت عينا فيسك لتلتقي عيني عبر الغرفة، بينما يناوله هالفارد الجعة. وتجرع رشفة طويلة، ناظرًا إليّ من فوق حافة الكوب.

حلت جارية أخرى محلي عندما طلبت إنجيه مني تنظيف الطاولات. فأخذت سلة فارغة وملأتها بالأطباق والملاعق المتسخة. وتحركت بحذر في الغرفة، حريصة على ألا ألمس أو أنظر إلى أي شخص. وعندما وصلت لتنظيف طاولة إيري، كان فيسك يجلس بمفرده بكوبه الفارغ، متكئًا على الحائط.

شرعت في تنظيف المائدة، فألقيت العظم في جانب السلة بينما كدست الأطباق في الجانب الآخر. وقف إيري بجانب رونا عند الحائط، وتوقفت فور رؤيته وتصلبت يداي على الطبق الذي أمسك به. كان يقف شديد القرب منها لدرجة أن تنورتها تلامسه. وانزلقت

عيناي المذهولتان للأسفل وغاص قلبي بين ضلوعي؛ كانت أصابعهما متشابكة، ويبدو أن ثمة عاطفة تغزل شباكها بين قلبيهما.

حولت بصري إلى الطاولة، والمشهد يحرق عقلي مثل طوق الأسر الساخن على جلدي. وحين رفعت رأسي مجددًا، كانت رونا تضحك. ألقيت بعنف الطبق في السلة، فاصطدم بالأطباق الأخرى.

اندفعت بعيدًا عن المائدة، وسرت عبر القاعة متخطيةً الريكي. واندفعت خارجة من هذا المكان الخانق بقوة، ثم ألقيت السلة في الثلج. تناثرت الأطباق على الأرض، وأغمضت عيني محاولة الحفاظ على توازني، بينما العالم يدور من حولي. كان الهواء البارد يحرق حلقي الجاف، بينما أحسست بأن عضلاتي تتشنج.

لطالما تساءلت ما الذي يمكن أن يفسد الرابطة بين أسكا ورفاق عشيرته، ويجعله ينقلب على قومه، وما الذي قد يجعله يترك عائلته وراءه دون اكتراث. كنت أرى إيري قويًّا وحكيمًا. لكن أخي، لا شك، أحمق. لقد تخلى عنا بسبب فتاة من الريكي. وإذا كان إيري قد فعل شيئًا كهذا، فما الذي أفعله هنا في هذا المكان الخانق؟ يا لسذاجتي، لقد تبعته إلى الغابة. وذهبت خلفه، وخاطرت بكل شيء، من أجل هذا!

إنه لم يكن مجرد فرد منهم، بل كان مغرمًا أيضًا بإحداهن.

أفقت على صوت أجش: «ماذا تفعلين هنا؟».

وقف رجل من الريكي عند مدخل الدار، يده تتشبث بمقبض بلطته، وحبات الثلج المتساقطة تعلق بلحيته الحمراء. نظرت إلى السلة الساقطة عند قدمي.

ردد مزمجرًا: «ماذا تفعلين هنا أيتها الأسكا؟».

انحنيت لألتقط الأطباق والعظام، وأعدتها مجددًا بعناية إلى السلة. سحق حذاؤه الثلج وهو يقترب مني. وقفت وأنا أحمل السلة بيننا. عندما خطا خطوة أخرى، اضطررت للتقهقر.

نظر إلى أزرار ردائي قائلًا بلهجة أثارت قلقي: «لم أعرف أن هناك سيدة تحت الدرع».

حاولت أن أتجاوزه، لكنه تحرك معترضًا طريقي، ولمحت عيناي السكين المعلقة في خصره.

قال مبتسمًا وأصابعه تضغط على مقبض البلطة: «لو علمت، ربما اشتريتك. وربما يبيعك فيسك بثمن جيد».

قرَّب وجهه من وجهي، وحين شعرت بأنفاسه الساخنة تلفح جلدي، مددت يدي وانتزعت السكين من غمده، ووضعت نصلها البارد على عنقه. ضغطت طرف النصل تحت فكه، ونظرت مباشرة في عينيه، استعدت غريزتي القتالية ما بث الثقة في عروقي، لقد ذكَّرني بالقتال الذي يملأ كياني. أصغيت إلى صوت أنفاسه اللاهثة والمصدومة، ودفعت النصل أعمق قليلًا.

تلاشت من عينيه النظرة العابثة، ورفع يديه بينما تصلب جسده في مواجهة السكين، واجتاح الهدوء كل زاوية مظلمة في داخلي، أردت أن أضغط السكين حتى ينغرز نصلها في الجلد الناعم لعنقه، وحتى أشعر بدمائه الساخنة على بشرتي الخامدة. أردت أن أشعر بأي شيء إلا خيانة أخي، هذا هو ما يشعرني بالراحة؛ إراقة دماء الريكي، وإيري بات الآن أحدهم.

شق السكون صوت قوي: «أسكا»، فرفعت عينيّ بسرعة لأرى فيسك واقفًا عند المدخل المقنطر لدار الطقوس. أخذ ينقل بصره بيني وبين الرجل، ثم تقدم نحونا بخطى ثابتة.

كانت نظرة الريكي ثاقبة، وأنفاسه ما زالت ثقيلة. أطبق على أسنانه، واستحال وجهه لونًا أحمر، بينما يقترب فيسك منا. ضغطت يده بقوة على ذراعي، بينما سحب السكين من قبضتي، وأسقطها على الأرض ثم جذبني نحو الأشجار.

السادس عشر

تعثرت وأنا أحاول جاهدةً ملاحقته، لكنه لم يبطئ خطواته. وأحسست بألم حاد إثر قبضة فيسك القوية على ذراعي، سرعان ما امتد إلى كتفي، فشعرت بالدوار. توغلنا في الغابة حتى لم أعد أرى دار الطقوس، وتوقف مطلقًا سراحي.

«هل تتوقين إلى الموت حتى هذه الدرجة؟ لقد حذرتك من قبل، لا بد أن تبتعدي عن الريكي الآخرين».

حدجته بنظرة غاضبة وأنا أضع يدي على خصري، قائلة: «إذا كنت ترغب في أن أبتعد عنهم، فلماذا أحضرتني إلى هنا؟».

التفت إلى الاتجاه الذي أتينا منه، وانخفضت حدة صوته: «ماذا كانت التالا تقول لكِ؟».

كززت على أسناني وقلت: «كانت معجبة بما فعلته بوجهي. كان يجب أن أخلع ثوبي وأريها بقية أعمالك».

أجفل عند سماع هذه الكلمات، وعاد خطوةً للوراء. «إذا لم تتصرفي كأسيرة، فستجذبين الانتباه إليكِ، وإليّ أيضًا».

«ماذا تعني بأن أتصرف كالأسيرة؟». رفعت الطوق حول عنقي ثم أفلته ليسقط على جلدي، واستطردت هامسة: «أنا أسيرة بالفعل، لذا لستُ بحاجة لأن أتظاهر بذلك. وإذا كنت ترغب في معاقبتي كي لا أُحرجك، فجرَّني من شعري إلى دار الطقوس واضربني حتى أموت. أنا واثقة من أن أفراد عشيرتك سيستمتعون بذلك، وستكون نهايةً أفضل من معرفتي أنني

سأقضي الشتاء كله أزيل دماء عشيرتي عن دروع الريكي بسبب غباء أخي». اندفعت كلماتي مثل سهم سريع أصاب أذنيه فأطرق ببصره، في حين حاولت كبح جماح غضبي.

حدجني بسخط، وأبصرت عروق رقبته، التي جفت عليها دماء الطقوس، تنبض. وتألقت عيناه الزرقاوان في الضوء الخافت وقال: «أترغبين في الذهاب؟». ثم قذفني نحو الأشجار مردفًا: «اذهبي!».

درت حول نفسي، ولم أرَ سوى أشجار ممتدة مغطاة بالثلج.

انفجر الغضب المتصاعد في صدري، ودفعته بقوة بقبضتيّ في صدره. لم يتزحزح، فضربته مرة أخرى بقوة أكبر، وأمسك معصميّ بيديه، بينما حاولت التملص.

غمغم: «ما كان عليّ الاستماع لإيري. إن اهتمامه بكِ سيقوده إلى حتفه».

قلت بغضب: «فليمت إذن، لقد خانني وأهان الأسكا، إنه يستحق الموت».

تغير وجهه، ولمحت ظلمة في أعماق عينيه. وضغطت أصابعه بقوة حول معصمي ودفعني للوراء، مثبتًا إياي في شجرة. وسحب بلطته بسلاسة من جرابها ثم ضغط نصلها البارد على عنقي.

همس: «إذا هددت عائلتي مرة أخرى، فسأقتلك. سأقتلك ثم أنتظر ذوبان الجليد متوجهًا إلى المضيق لأنحر عنق والدك أثناء نومه».

اتسعت عيناي، وفغرت فمي متأملة وجهه، وأنا أجاهد لمعرفة مقدار كراهيته، لكنني وجدت شيئًا آخر أكثر شراسة من الكراهية.

وجدت حبًّا عميقًا لإيري.

قلت بحنق: «لن يسامحك إيري ألبتة».

اقترب ببطء قائلًا: «تهمني حياته أكثر من مغفرته، سأتركك تموتين في الغابة، وأخبر إيري بأنكِ هربت».

انحنيت نحو الشفرة، وعيناي تنظران مباشرة إلى عينيه، قائلة بصوت يقارب البكاء: «إذن، افعل ذلك». ولهنيهة، خيل لي أنه سيفعلها. لقد تمنيت نهاية للألم الممض في صدري.

رفعت ذقني بتحدٍّ، وتساقط المزيد من الدموع على خدي. لن أتوسل للإبقاء على حياتي، ولكن في اللحظة التالية، فقدت عيناه بريقها، وطافتا بوجهي. لم أخفض عينيّ، ولم أتحرك حين اقترب أكثر مني. وشعرت بأنفاسه تلفح بشرتي، فارتجفت، ولم تطرف عيناي.

«ليس عليّ فعلها». ارتفع النصل فجأة عن عنقي، وتراجع للخلف مضيفًا «ستجلبين نهايتك بنفسك قبل ذوبان الثلج؛ لأن كبرياءك وغضبك أهم لديك من حياتك».

تراجعت وأنا أشعر بألم ممض جرَّاء كلماته؛ إذ شعرت بصدقها، بل كانت أكثر صدقًا مما أرغب في الاعتراف به، فصحت: «سأغادر قبل الذوبان».

«ممتاز»، حدجني بنظرة طويلة، وانعقد حاجباه، ثم استدار وتركني. كان لا يزال متشبثًا بالبلطة في يده. وراقبته إذ يصعد التل في الثلج العميق، ودخان دار الطقوس يتصاعد فوق قمم الأشجار.

التقطت أنفاسي، وجاهدت كي لا تنسال الدموع على وجهي ثم تبعته، مقتفية آثار قدميه في الثلوج، إلى أن وقفت أمام أبواب دار الطقوس؛ حيث كانت عينا ثورا الجائعتان مصوبتين نحوي.

دلفت إلى الداخل وعلى وركي السلة الممتلئة بالأطباق المكسورة. واتجهت نحو المغسلة الحجرية حيث كان الأسرى الآخرون يعملون. أسقطت الأطباق في الماء بينما رفعت الجارية بجواري رأسها، ثم ابتعدت متلفتة حولها بحذر.

في الجهة الأخرى من الغرفة، جلس فيسك إلى الطاولة بجانب إيري ورونا. وكانت التالا واقفة تمشط بأصابعها شعر رونا. وبجوار النيران، وقف الرجل ذو اللحية الحمراء تحت القرون المعلقة وأخذ يراقبني. وكانت أصابعه تضغط على قطرة الدم التي انزلقت من لحيته على عنقه.

أشحت بنظري بعيدًا عنهم، بينما غطست يداي في الماء الساخن وأخذت أفركها شاردة. كان فيسك محقًّا، إذ لن أصمد في هذه القرية طوال الشتاء، ولا يمكنني انتظار ذوبان الجليد، كان لا بد من وجود وسيلة للعودة إلى الديار، وإلا فسأضيع إلى الأبد.

السابع عشر

استيقظت إنجيه قبل غسق الفجر وتوجهت إلى الغابة لجمع الثوم والقصعين. وتركتني أعد بمفردي وجبة الإفطار للآخرين. أصر هالفارد على مساعدتي، واستيقظ تقريبًا معي، ما صعَّب عليّ البحث عن الأسلحة في المنزل.

وقف بالقرب مني ممسكًا القداح وسألني: «هل ستعلمينني الآن؟».

تجاهلته ونظرت إلى طبق ممتلئ بثمار التوت الأسود فوق الخزانة.

نظر إليَّ ضاحكًا عندما أدرك مبتغاي، وجلب الطبق ووضعه أمامي ورجاني: «من فضلك».

التقطت ثمرة توت وقذفتها في فمي، ثم جمعت الوقيد في كومة على جانب الحفرة.

راقبني بعناية، جالسًا على الحجر بجانبي وقال: «تصوري أنني لم ألتقِ أسكا من قبل».

التقطت القداح ورفعته لأوجه ضربة، فأردف:

«يقول إيري إنكِ تعيشين في المضيق».

انزلق القداح من يدي، فارتطمت مفاصل أصابعي بالحجر.

أحضره من الأرض وناولني إياه، وهو يضيف: «كما أنني لم أرَ البحر من قبل».

قدحته مجددًا، فأطلق شرارة هذه المرة. وضع هالفارد يديه حول الوقيد لحمايته من الهواء البارد. وبمجرد أن اشتعل، التقطه ونقله إلى كومة الحطب وذهبت إلى القِدر، وتسليت بتناول التوت أثناء محاولته.

قال وهو يضرب القداح بالحجر: «لقد أخبرني والدي بأن الأسكا يعلقون أصداف البحر على أبوابهم».

توقفت عن التحريك، ونظرت إليه.

«لماذا يفعلون ذلك؟». في المرة الثالثة، التقط الوقيد الشرارة، فنظر إليّ بفخر. صعد إلى الطاولة وجلس القرفصاء يراقبني وأنا أحرك ما في القدر.

نظرت إلى القدر وأجبت: «إن الريح تمر من خلالها فتصدر نغمًا».

تألقت عيناه محاولًا تخيل ذلك.

دوى صليل السيوف بالخارج، حيث كان إيري وفيسك يؤديان تمارين قتالية منذ طلوع الشمس. وتسربت إلينا من النافذة المفتوحة همهماتهما وأنفاسهما الثقيلة.

لو كنت في الديار، سنفعل أنا وميرا المثل؛ لنحافظ على قوتنا ومهارتنا حتى بداية موسم القتال المقبل، أو أي تهديد قد يواجه هيلي. كنا نقضي الصباح على قوارب الصيد، ثم نؤدي التدريبات عصرًا أسفل التل، ربما سأكون ضعيفة بحلول بداية ذوبان الثلوج وخروجي من «فيلا»، ولن أتمكن حتى من التلويح بسيفي. لطالما كنت مقاتلة ماهرة حتى إن كنت أصغر حجمًا من العديد من محاربي الأسكا. حين أعود إلى المضيق، سيتعين عليّ البدء من جديد.

كان إيري بمفرده عندما دلف للمنزل، واقترب من النار وأخذ يساعد في الطبخ، ويقلب الحبوب على الحجر. وراقبني أنا وهالفارد ونحن نثرثر، ولاحت شبه ابتسامة على وجهه.

نقل هالفارد بصره بيننا وقال: «هل جميع الأسكا يبدون مثلكِ أنتِ وإيري؟».

أعطيت ظهري لإيري وأجبت: «بعضهم، فنحن جميعًا مختلفون، مثل الريكي».

«إذًا، كيف تميزون بين قومكم وقومنا في المعركة؟».

«أحيانًا لا نميزهم». رمقت إيري؛ على أمل أن يفهم مقصدي.

بدا عليه أنه فهم مغزى حديثي، إذ نظر إليّ، وتصلب وجهه مجيبًا: «يستخدم الأسكا دروعًا برونزية ذات جلود حمراء، أما الريكي فيستخدمون دروعًا حديدية ذات جلود بنية».

انزلق هالفارد من فوق الطاولة، وتناول الملعقة من يدي ليحرك السمك في القدر المعلقة فوق النار. ثم كفَّ عن التحريك ونظر إليّ قائلًا: «أعدك ألا أقتلك إذا رأيتكِ في المعركة».

نظرت إليه، ولم أتمالك نفسي من الابتسام. حاولت تصوره في ساحة المعركة، ثم تساءلت كم سيعيش هالفارد. بعد خمس سنوات، سيكون بالغًا الحد الكافي الذي يجعله يذهب إلى القتال. لكن طباعه الرقيقة لن تجعله يصمد جيدًا، وتساءلت ماذا سأفعل إذا رأيته هناك، على الجانب الآخر.

تلاشت ابتسامتي عن وجهي وازدردتُ ريقي.

وضعت الأطباق على الطاولة، وأخذت طبقي وانسحبت جالسة على الكرسي في الزاوية. التقط إيري الطبق الرابع وصبّه مرة أخرى في القدر. «فيسك ليس هنا».

قال هالفارد بخيبة أمل: «إلى أين ذهب؟».

انحنى إيري على طبقه وازدرد لقمة كبيرة في فمه قائلًا: «إنه يفحص الشباك».

تصلبت أصابعي على الملعقة، وتزايدت دقات قلبي. إذا كان فيسك يفحص الشباك، فلا بد من وجود نهر قريب. والأنهار تجري أسفل الجبل، إلى الوادي، وإلى البحر. وإذا استطعت الوصول إلى النهر، فسأتمكن من العودة إلى دياري بأمان.

دلفت إنجيه من الباب، ووضعت صندوقًا كبيرًا على الأرض، ثم عادت إلى الخارج وقالت: «إيري، أحتاج إليك لمساعدة كيرلينج للدخول إلى هنا».

نهض وخرج، وسار على الطريق، وتقدم من رجل بلحية شقراء طويلة يقف بجوار امرأة حبلى. وأدركت أنها بالتأكيد المرأة التي كانوا يتحدثون عنها، جيدا. كانت ذراعه تطوق كتفها وكانت تتكئ عليه محافظة على توازنه. التقى إيري بهما على الطريق، وأمسك الذراع الأخرى، وأخذوا يمشون بتعثر وببطء إلى الباب.

قالت إنجيه مبتسمة وهي تفسح الطريق لإيري وكيرلينج: «من الجيد أنك خرجت!».

لم يرفع كيرلينج نظره عن الأرض، وكان وجهه يتلوى؛ من الألم، وجبينه يتفصد عرقًا. كانت ساق السروال مربوطة لأعلى الركبة، حيث بُتر طرفه السفلي. لقد رأيت ذلك المنظر من قبل، ربما كان السبب إصابته ببلطة خلال القتال أو أنه سقط من علٍ، ما أدى إلى كسر العظام أو حتى إصابته بعدوى.

دخلت المرأة من الباب ووقفت خلف كيرلينج. وحين وضعت يديها على كتفيه، أزاحهما عنه، وانزلق إلى حافة المقعد الطويل، ورفع رجله المبتورة ليسندها على المقعد، وجلست إنجيه بجانبه، وببطء فكت ساق السروال، ودفعته للوراء كاشفة عن جلد أحمر متورم ومنتنٍ في صفوف متعرجة من الغرز.

«ضمّده يا إيري». اقتربت لتفحص الجرح، بينما شرع إيري يعمل، فسحب المغلاة من النار، وفتح صندوقًا خشبيًا كبيرًا من الأعشاب على الرف.

نظرت إلى وجه كيرلينج وسألته: «كيف تشعر؟».

حدق مباشرة إلى عينيها، وأجاب ممسكًا جانبيْ ساقه بقبضتيه: «أشعر كأنني نصف رجل».

رفعت إنجيه بصرها إلى جيدا، التي أطرقت برأسها، ثم قالت: «لا أعرف كيف نجوت من ذلك الجرح. لقد أنعمت ثورا عليك».

شردت عينا كيرلينج، وهو ينظر إلى ألسنة النار الممتدة أمامه مغمغمًا: «ربما تكون قد لعنتني».

أخرج إيري القماش من وعاء الماء الساخن، وألقى نظرة على كيرلينج. وبجانبه، أخذت جيدا ترمقني بعينين غاضبتين مغرورقتين بالدموع، وهي تكز على أسنانها. التقطت الملابس غير المطوية من الطرف الآخر من الطاولة وجلست بجانب النار، وطويتها قطعة تلو الأخرى، ووضعتها في حجري، وأنا أشعر بنظرات جيدا النارية المسلطة عليّ.

وضع إيري ضمادة جديدة على قدم كيرلينج وساعده على الخروج. وحين تجاوزا الباب، وضعت إنجيه يديها على بطن جيدا، وضغطت برفق قائلة: «ستلدين قريبًا».

لم تنبس جيدا ببنت شفة، لكن وجهها اكتسى بالأسى، وقد ارتخت شفتاها.

قالت إنجيه مبتسمة: «سأكون معكِ، لا تقلقي».

لكن هذا لم يكن صحيحًا، وإذا كنت أعرف ذلك، فإن جيدا تعرفه أيضًا. كانت فرص المرأة في الموت أثناء الولادة في القبائل الآن تماثل تمامًا فرص موتها في المعارك. ويبدو أن جيدا نجت من معارك كثيرة من قبل.

همست: «لم يعد يرغب في الطفل بعد الآن».

تنهدت إنجيه وسألتها: «لماذا تعتقدين ذلك؟».

وضعت جيدا يديها تحت بطنها وأجابت: «لم يعد يرغب في أي شيء بعد الآن».

نظرت إنجيه إلى الخارج، حيث كان كيرلينج وإيري يعودان إلى البيت. وقبل أن تتفوه بكلمة، استدارت جيدا وغادرت، وتبعتهما.

وقفت إنجيه عند الباب تراقبها، كانت عيناها يشع منهما التوتر، وقد زمت شفتيها، وشبكت أصابع يديها. لقد رأيت ذلك يحدث من قبل في هيلي؛ المصابون يفقدون رغبتهم رويدًا رويدًا في الحياة، وربما تواجه هي أيضًا هذا الأمر.

تنحنحت إنجيه وسألتني: «هل سبق لكِ أن سحقت الثوم من قبل؟». شمرت كميْ فستانها ثم أغلقت الباب.

أجبت: «قليلًا، للطبخ». ورأيتها تستخرج صندوقًا كبيرًا مليئًا بالفصوص البيضاء الصغيرة من الرف على الحائط.

وضعت هاونًا حجريًا كبيرًا ومدقًّا على الطاولة أمامي. «سنقشره ونسحقه ثم نعبئه في جرار». وعندما وضعت سكينًا حديدية على الطاولة، اختلجت يدي بجانبي. ابتسمت بتكلف قائلة: «سأقشره وأنتِ ستدقينه». كانت تعرف أنه من الأفضل عدم إعطائي سكينًا. «كم عمرك، يا إيلين؟».

حاولت معرفة ما يدور في ذهنها، لكن عينيها تركزتا على ما تفعله. كانت تلك هي المرة الأولى التي تذكر فيها اسمي، ولم يعجبني ذلك إلا أنني أجبت: «سبعة عشر عامًا».

«هل لديكِ عائلة في هيلي؟ إن هيلي هي موطنك، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي متأملة إياها وأنا مندهشة؛ إذ كيف عرفت موطني؟ أعلم أن إيري لم يخبرها.

قلت لها: « إنها موطن أبي فقط».

ظلت هادئة لبضع دقائق، وعندما فاحت رائحة الثوم النفاذة في أرجاء المنزل، نهضت متجهة إلى الباب، وفتحته ليدخل الهواء الحجرة.

سألتني وهي تعاود الجلوس: «هل تعلمين أن إيري من الأسكا؟».

أخذت مجموعة من فصوص الثوم ووضعتها في الهاون، وحاولت معرفة المغزى الحقيقي لكلماتها.

«كاد هو وفيسك يقتل كلاهما الآخر قبل خمس سنوات».

رفعت عيني بسرعة عن الطاولة.

«كان ذلك في آخر موسم قتال، كانا يتقاتلان وسقطا من حافة أخدود عميق».

ازدردت ريقي وطرفت بعيني.

«كُسرت ساق فيسك وذراعه، وجُرح جانب إيري بسيف فيسك. وبحث زوجي عن فيسك لمدة يومين حتى وجده أخيرًا، كان يظن أنه مات». أخذت نفسًا عميقًا وأردفت: «لكنه أراد أن يحرق جثته. لذا تسلق جدار الأخدود، وعندما وصل إليه أبصر فيسك حيًّا». رفعت عينيها نحوي. «وكذلك الصبي الذي كان يتقاتل معه، بالكاد كان على قيد الحياة، ولم يرغب فيسك في ترك إيري وراءه. وتوسل لوالده أن ينقذ حياته». مسحت دمعة سالت من طرف عينها مضيفة: «كان إيري مصابًا بجرح بالغ فلم يعتقد أحد أنه سيعيش كثيرًا، على أية حال».

شعرت بلسعة حارقة في عينيّ، فسألتها: «كيف أنقذته؟».

وضعت السكين على الطاولة ونظرت إليّ مجيبة: «أحضروه، وكان الجرح عميقًا لدرجة أن أعضاءه كانت تتدلى خارج جسده. وكنت واثقة من أنه سيموت لا محالة، لكنه في النهاية لم يمت؛ إذ إن ما جُرِح كان الجلد والعضلات فقط لكن الأعضاء الداخلية والشرايين ظلت سليمة، لحسن الحظ. وقمت بخياطته واستغرق شفاؤه وقتًا طويلًا، لكنه تعافى في النهاية، كذلك تعافى فيسك أيضًا».

سألتها بحدة: «إذًا، لماذا لم تتخذوه عبدًا كسائر الأسرى؟».

توقفت لحظة مجددًا ثم أجابت: «كان من المفترض أن يكون هذا مآله، لكن إصابته كانت بالغة فاضطررنا إلى إبقائه هنا، في منزلنا، وأخذنا نعتني به ليلًا ونهارًا، ثم غدا فردًا من عائلتنا، ولست أدري كيف حدث ذلك. ومثلما أحب فيسك إيري، أحببناه نحن أيضًا». ولاح في عينيها بريق الإعجاب.

«إذًا، بات إيري من الريكي الآن؟».

أومأت برأسها: «نعم. لقد خلع رداء الماضي، بالطبع استغرق الأمر بعض الوقت، لكن الريكي قبلوه، إن تصاريف القدر عجيبة».

ضيقت عينيّ وتساءلت: «ماذا تقصدين؟».

أجابت: «أعني أن إرادة القدر تسير بطرق لا نفهمها في كثير من الأحيان». ثم نهضت وسحبت المزيد من الثوم من الصندوق، وأردفت بنبرة خافتة: «هل تعرفين معنى كلمة فيوترا».

قلت مصححة: « تقصدين فيوترا التي تعني وجود رابطة الدم».

«لا بل أقصد سال فيوترا؛ التي تعني وجود رابطة بين روحين».

حدقت إليها وقد بدأت أدرك مغزى الحديث.

أردفت: «هذه الرابطة تتشكل حين تتعرض الروح للكسر، إنها تتشكل بالألم، والفقدان، والحزن، إنهما مرتبطان بشيء أعمق مما نستطيع رؤيته، وهذا ما جعل إيري فردًا من أسرتنا».

توقفت عن محاولة كبح الدموع التي كانت تجاهد للسقوط؛ لأنني عرفت بالضبط ما تتحدث عنه، إنها الرابطة التي كانت بيني وبين ميرا، رابطة الروح وليدة الدموع.

إن إيري وإنجيه لم يتشاركا الدماء، لكن إيري ينظر إليها كما لو كانت أمه، وهي تبادله العاطفة كما لو كان ابنها، ولست بحاجة إلى سؤالها كيف استطاعت أن تحبه. كان إيري نقي القلب وشجاعًا، ولم يخف من الحب أو التضحية بنفسه. لطالما انجذب إليه الناس، وكنت فخورًا لأنني أخته. وتلك هي الأسباب التي جعلت إنجيه تحبه.

مر ظلٌّ عبر الباب، ورفعت رأسي لأرى رونا تدلف وقد رفعت قلنسوة عباءتها فوق رأسها. نظرت إليّ بتردد قليلًا، وهي تضع حزمة صغيرة من الحطب على الطاولة. وعرفته على الفور؛ كان هو الخشب المقدس. وتوقفت يداي عن العمل على المدق، ثم حولت بصري للثوم مجددًا، متذكرة لمستها لإيري في أدالجيلدي، ونظرتها إلى وجهه، بوجنتين متوردتين وعينين مترعتين بالدفء.

أمسكت سلة مليئة بنبات القصعين من الطاولة، وغسلت الفروع في طبق مليء بالماء. وحين انتهت جففتها بعناية بقطعة قماش، وربطت الحزم معًا، وعلقتها على الحائط بجوار النيران.

سألت: «لِم كل هذا؟».

أجابت رونا: «للعلاج. الثوم للأمراض والجروح وما شابه، أما القصعين فللبشرة والأسنان والمعدة...».

«وتلك؟» أومأت برأسي تجاه حزمة من أغصان التوت البري الخالية من الثمار.

«إنها لجيدا، سنستخدمها عندما يأتي الطفل». شدت الخيط حول حزمة أخرى من القصعين وعلقتها متسائلة: «هل لديكم معالج في هيلي؟».

أومأت برأسي، دون النظر إليها.

«لقد كنت أتدرب مع إنجيه لمدة أربع سنوات تقريبًا».

قالت إنجيه مبتسمة بفخر: «إنها جاهزة للعمل بمفردها».

احمرت وجنتا رونا. وعندما استدارت نحو النار، مددت يدي ببطء لآخذ قطعة من الخشب المقدس الموضوع على الطاولة.

تنهدت إنجيه وقالت: «نحن بحاجة إلى المزيد من الجرار».

وضعت يدي مجددًا في حجري.

«سأعود حالًا».

عدت لطحن الثوم، وحرصت على ضم ذراعي إلى جانبي كي لا أستخدم المفصل.

«إذًا، أنتِ وإيري ...». لم أعرف ماذا أقول.

«أجل». لكن العذوبة تلاشت من صوتها، وبدا أنها كانت جاهزة للدفاع عن نفسها.

«وهذا هو السبب في أنه...».

«ربما كانت العاطفة جزءًا من الأمر. لا أدري حقًّا».

انحنيت على الطاولة، ونظرت إليها وسألتها: «إذًا، لماذا لم تتزوجا؟».

«سنتزوج، لكن والدي فضّل الانتظار لحين عودته من أورفانجر». ثم تغير صوتها، وقالت بنبرة أكثر نعومة: «كان سيخبرك».

عدت للعمل. لم أرغب في معرفة خطط إيري. لقد رحل وانتمى إلى عائلة جديدة، ولم يعد مدينًا لي بأي شيء بعد الآن.

الثامن عشر

في الصباح التالي وجدت قطعة من الخشب المقدس وأداة نحت صغيرة وبسيطة بجوار فراشي. لا بد أن إنجيه رأتني وأنا أحاول أخذها ووضعها هناك. لم تكن المرة الأولى التي أدركت فيها أن نظرتها عميقة بعيدة المدى.

جلست القرفصاء أطل على الحديقة، وأراقب انسلاخ عدة شرائح رقيقة من الخشب، بينما أسحب أداة النحت فوقها. سقطت النشارة على الأرض أمامي، وتناثرت فوق الثلج. وقف فيسك مع هالفارد بجانب المنزل يراقبه وهو يتمرن على رمي البلطة. كان منطويًا على نفسه منذ ذلك اليوم في أدالجيلدي، يؤدي فروضه بطريقة بدأت أفهم أنها تمثل أسلوبه الخاص. كان يلزم السكون، ويسكن الظلال، كأنه والعدم سواء، وعلى الرغم من ذلك كنت أشعر بحضوره، كان ملموسًا وثقيلًا وصامتًا. ويبدو أنه في كل مكان وفي كل وقت.

تراجع فيسك ليراقب هالفارد عن كثب بينما يتقدم ويرجع البلطة خلف رأسه ثم يرفع ذراعه ويطلقها مجددًا.

ضربت جذع شجرة صنوبر بصوت عالٍ، وكان الصوت مألوفًا لدرجة أنه أحيا داخلي الذكريات المتشابكة، فعضضت على شفتي، وراقبت هالفارد إذ يعيد إلقاء البلطة مرارًا، وفيسك يوجهه بهدوء حتى يتدرب باليد الأخرى. وكانت طريقة إمساكه بالبلطة تشي بأنها ليست قوية.

تنهد هالفارد وأمال رأسه للخلف عندما اصطدم مقبض البلطة بالشجرة وسقطت على الأرض.

قال فيسك بلهجة آمرة، وهو يتجه للشجرة ويستعيد بلطته مجددًا: «مرة أخرى».

مرة أخرى.

تردد صوت إيري في ذهني.

مرة أخرى، يا إيلين.

هزّ هالفارد ذراعيه ثم التقطها مجددًا، لكنه لم يعترض، وغاص مرفقه للأمام وطارت البلطة. أخطأت هذه المرة، حيث اصطدم نصلها بزاوية وانزلقت إلى اليسار.

عاد فيسك إليه بالبلطة في يده، وعيناه تنظران إلى شيء خلفي. التفت لأرى جيدا واقفة عبر الطريق. كان شعرها الأسود الطويل مضفورًا على كتفيها، وتدلت الأطراف على بطنها المنتفخ. نظرت إليّ، وعيناها مترعتان بالكراهية التي كانت تحملها أمس.

أزلت نشارة الخشب من حجري، ووضعت قطعة معدنية ذات خطاف فوق الخشب لتدويره. كان تمثال أمي، الذي يحتفظ به أبي، مهترئًا لدرجة أن خشبه استحال لونًا رماديًا داكنًا ومصقولًا. كان يحمله بين يديه الخشنتين كل ليلة، ويهمس بالصلوات من أجل روحها. وكنت أفعل المثل مع تمثال إيري، ثم نقوم بتبديل الأدوار، ونحن نركع في منزلنا المُضاء بالنار في المضيق. قربت الخشب من أنفي واستنشقت رائحته النقية والطازجة. لطالما آمنت بأن روح أمي وصلت إلى سولبيورج، وأنها وإيري معًا هناك.

أرغم فيسك هالفارد على إلقاء البلطة، حتى نجح في إصابة الهدف ثلاث مرات على التوالي، ثم أطلق سراحه أخيرًا. وجاء هالفارد يركض نحوي، ينزلق على الثلج، ويهبط على الأرض بجواري. لامست ركبتاه ركبتي، وهو يميل للأمام، ويتأمل التمثال.

نظر إليّ برموشه الكثيفة وسألني: «هل هو لأخيك الذي توفي؟». كانت عيناه زرقاوين مثل عينيْ فيسك، لكنهما مختلفتان، كانتا داكنتين مثل سحب العاصفة الوشيكة.

«بل، لأمي». ناولته التمثال فأداره برقّة بين يديه.

لاحت ابتسامة على شفتيه، فسألته:

«ما الأمر؟».

هزّ كتفيه، وناولني إياه قائلًا: «إنه يعجبني».

«أليس لديك واحد لوالدك؟».

هزّ رأسه نافيًا.

«لماذا؟».

تدخَّل فيسك، الذي أتى ليقف فوقنا: «ليس من عاداتنا الاحتفاظ بتلك التماثيل».

خفضت بصري إلى التمثال نصف المكتمل. لقد أكملت الرأس والكتفين، لكن الباقي لا يزال مجرد قطعة خشب. مد هالفارد يده داخل سترته وسحب شيئًا. وعندما فتحها، أبصرت على راحته حجرًا مستديرًا ومسطحًا. كانت عليه كتابات عجزت عن قراءتها. كان يشبه الحجر الذي رأيت إيري يدسه في سترته قبل احتفال أدالجيلدي.

«ما المكتوب؟».

أجاب بفخر: «آلا سال، وتعني حامل الروح. إنها التميمة الخاصة بي».

أمسكته وأدرته في يدي.

استطرد: «إنه يحميني».

«كيف؟».

«تقدمينه لشخص ترغبين في حمايته، إنه يخبر الآلهة بأنكِ تحملين روح شخص آخر، لقد صنعته أمي لي».

انزلق ظل فيسك فوقي، بينما كان في طريقه نحو المنزل، وأخذ الشبكة المعلقة على خطاف حديدي، كان يتجه إلى النهر.

«أنا...». انفلتت الكلمة بينما كان يهم بالسير على الطريق. أغلقت فمي وأحكمت قبضتي على التمثال في يدي.

لكنه نظر إليّ، واستدار والشبكة تتأرجح بجانب ساقه متسائلًا: «ما الأمر؟». افتقدت كلماته الغضب الذي تحمله عادة.

عضضت على شفتيَّ مرة أخرى. «يمكنني مساعدتك في صيد الأسماك».

بدا متفاجئًا، ولوهلة ظننت أنه قد يرى ما بأعماقي، وربما يعرف خططي. مال للخلف مطرقًا ببصره إلى الأرض، ثم تطلع إلى الأشجار. وأحكم قبضته على الشبكة.

«حسنًا».

تأوه هالفارد، وسقط إلى الوراء حيث كان جالسًا، وهبط على الثلج بظهره، وذراعاه ممدودتان حوله.

نهضت ودسست التمثال في سترتي وقلت: «تعال معنا».

«يجب أن أبقى من أجل جيدا. في حالة الولادة». ثم حول بصره نحو منزلها، لكنها قد تلاشت كالدخان.

ركلت ساقه ركلة خفيفة بحذائي، وعندما نظر إليّ ابتسمت. رفعت قلنسوة عباءتي على رأسي، وتبعت فيسك محاولةً اللحاق بخطواته.

لم يبطئ إيقاع سيره لأجلي، لكنني قصرت خطواتي حينما اقتربت منه، وتبعته عن كثب على الدرب الذي ارتفع عن القرية، وتزايدت أعداد الأشجار. كانت أشجار الصنوبر سامقة فعجزت عن رؤية قممها، وكانت أغصانها تتمايل بفعل الريح، وتتشابك معًا والجذوع كانت تطقطق. لم أطرق برأسي، بل رفعت بصري ولاحظت شكل الأشجار، وأخذت أرسم مسارًا في ذهني سأتعرف عليه، حتى لو كان مسارًا في الثلج العميق.

امتد الدرب في الغابة حتى تناهى إلى أذنيّ صوت تدفق مياه النهر. وصعدنا إلى القمة لنرى النهر محفورًا في الأرض كشريان الحياة بالنسبة للإنسان. اندفع بجوارنا، وارتفع رذاذ المياه في الهواء حولنا، وأرجعت القلنسوة للوراء، وأخذت أدرسه. كان النهر يجري على طول المنحدر، يعبر أمامنا ثم يختفي. بالتأكيد المياه تصب في البحر في النهاية. وإذا تبعتها، فستأخذني إلى أسفل الجبل، ثم إلى الوادي.

تكلم فيسك بجانبي كأنه يقرأ أفكاري: «إنه ليس الطريق المؤدي إلى الأسفل. جربي إذا شئت، لكنك بالتأكيد لن تنجحي».

حدقت إلى الماء. لا بد أنه يكذب. بالتأكيد النهر يفضي إلى الجبل.

نزل إلى الضفة، حتى وصل إلى حجرين مسطحين كبيرين في الماء وعبرهما. التقطت طرف عباءتي وخطوت بحذر بينما هدرت المياه بجواري. وعندما وصلت إلى الحجر الثاني، مد يده نحوي فأمسكت بها وقفزت، وهبطت في الثلج العميق في الجانب الآخر.

توغلنا حتى وصلنا إلى عمود خشبي كبير مدفون في الأرض، وحوله حبل مربوط يختفي تحت سطح الماء المتجمد. سحب بلطته وكسر الجليد، ثم انحنى وفك العقدة وأخرج الحبل المبلل بأصابعه.

كنا نستخدم الشباك في المضيق طوال الوقت، ولكن ليس بهذه الطريقة. كانت منتصبة على جانبها، ومربوطة عبر عرض النهر كرقعة جلدية ممدودة تحت أشعة الشمس،

فتساءلت: «هل هذه شبكة؟».

قال لاهثًا: «نعم»، ثم حرر الحبل ولفه بإحكام حول يده وهو يرفعه ببطء عكس مجرى التيار. تشنج وجهه، ونفرت عضلات عنقه، وتصلبت كتفاه وهو يرفعه، لكنه علق. كان أسفل الحبل ملتصقًا بأغصان شجرة ساقطة.

«إنه عالق».

نظر إلى الأسفل، ما زال يمسك الشبكة ضد تيار المياه. «هل يمكنك الوصول إليه؟».

فككت عباءتي ورميتها على الثلج، ودرت حول ساقيه لأجلس بينه وبين جذع الشجرة التي اختفت تحت السطح.

أخذت نفسًا عميقًا وغمرت ذراعي في الماء، وتلمست الحبل حتى وصلت المياه إلى كتفيّ. وجدت الطرف فأحكمت يدي عليه، بينما اصطكت أسناني.

تراخى الحبل، فحرك فيسك جسده حتى ارتفعت الشبكة المليئة بالأسماك الفضية من الماء. أمسكت الطرف الآخر من الشبكة وسحبناها معًا إلى الضفة، ووضعنا الأسماك في الثلج.

كانت الأسماك موضوعة على جانبيها، وأعينها الواسعة تحدق إليّ، بينما أفواهها مفتوحة عن آخرها، انحنى فيسك ليستبدل بالشبكة تلك التي جلبناها معنا.

قلت: «معناه سمكة».

نهض مقطبًا حاجبيه وهو ينظر إليّ، ثم أردفت قائلًا:

«اسمك. يعني سمكة، أليس كذلك؟».

التفت حينما سمعنا صوت خوار حاد وراءنا، فهوى قلبي بين قدميّ وقد تراجعت نحو الماء. وقد لمحت عند الأشجار أمامنا، دبًّا بنيًّا ضخمًا يقف على قدميه الخلفيتين، ينظر إلينا شزرًا. فأمسكت ذراع فيسك واعتصرتها بقوة، حتى انغرزت أظفاري في قميصه، فنظر إلى الوراء محاذرًا وأسقط طرفي الشبكة، فانزلقت الأسماك فوق الثلج.

ترددت أنفاس الدب، مرسلًا نفثات بيضاء تبخرت في الهواء حول أنفه، ثم هبط على قدميه الأماميتين وتقدم خطوة نحونا، وأنفه يتشمم الهواء. وقد تصلب جسد فيسك كله، وتألقت عيناه بشيء أعرفه جيدًا. إنه الشعور نفسه الذي ينبض به كل شبر في جسدي؛ الإحساس بالموت الوشيك، فقد ألفت ذلك الشعور منذ طفولتي، وأنا أشاهد الهيريا يتسللون من الغابة نحو هيلي.

التفَّت يد فسك حول ذراعي وسحبتني ببطء بينما اقترب الدب، وهمس محذرًا: «إياكِ أن تركضي». قالها بهدوء شديد، فلم أكد أسمعه، وصوت ضربات قلبي يدوي في أذني.

لم يكن هناك مهرب على أية حال، فالنهر المغطى بالجليد يجري خلفنا والدب يقف أمامنا، مقتربًا. نقلني فيسك خلفه، وغاص كعباي في الماء بينما يتحرك أمامي. وانحنيت جانبًا لألقي نظرة حوله وكتمت أنفاسي. كان الدب قريبًا جدًّا منا حتى إنه كان بوسع فيسك مد يده ولمسه. وقد حولت أشعة الشمس فراءه البني إلى لون ذهبي عند الأطراف وانتشرت حول وجهه على شكل قلب، وقد ابتل طرف أنفه اللامع. انحنى يتشمم صدر فيسك، وشددت قبضتي على سترته المدرعة، بأنامل مخدرة على الجلد المحبوك. واختلست النظر من فوق كتفه وقد توقف قلبي تمامًا.

كان الدب يلاحقني بعينيه الواسعتين العميقتان، حيث اقترب أكثر، وأخذ يتشمم فيسك، وازدردت لعابي بينما توقف الدب، وكانت مخالبه الضخمة منغرسة في الثلج، وأنا ملتصقة بظهر فيسك. وضعت فمي على ظهر كتفه ونظرت إلى الدب، كأنه كان ينوي التحدث، كأن لديه شيئًا يود إخباري به. اخترقت عيناه السوداوان اللامعتان ملامحي، فزحفت القشعريرة على ظهري، ووخزت أناملي.

فجأة، خفض رأسه، والتقط سمكة في فمه واستدار. لم يلتفت إلى الخلف بينما يمشي، وألوان فروه الكثيف تتماوج في الضوء.

استرخى فيسك أمامي ولكنني كنت لا أزال ملتصقة به، شعرت بأنني قد أتهاوى وكأن الرجفات في ساقي سترسلني عبر الجليد. انتظرنا حتى غاب الدب عن ناظرينا، ثم تنفسنا الصعداء وتحركنا أخيرًا. استدار فيسك، تاركًا ذراعي ونظر إليّ وقد انفرجت شفتاه، وعاد خطوةً للوراء، وأطل سؤال في عينيه.

أخذ السمك ينتفض وهو يهز ذيله على الأرض بيننا. وعندما نظرت للخلف نحو الضفة، كانت الغابة خاوية، يعمها السكون، ولم يتبق سوى آثار متعرجة بين الأشجار الكثيفة.

التاسع عشر

نقشت مسار تلك الرحلة عبر الغابة إلى النهر في ذهني، وكانت أجندتي في هذا اليوم كالتالي: جلست في الزاوية وتناولت الطعام وأنا أتطلع شاردة إلى الجدار.

ابتعدت عن الآخرين.

أديت الأعمال المنزلية دون تعليمات من إنجيه.

أطعت كل أمر، مثل الجارية المثالية.

ظل إيري قريبًا مني، كان قلما يغادر المنزل، ومن جهتي واصلت تجاهله. وكان حين يتحدث مع إنجيه عن الخطبة، أذهب لإطعام الماعز. وعندما يعرض مساعدتي في حمل الحطب، أتجاوزه وأحمله بمفردي.

جثوت على ركبتي في الحديقة بجانب المنزل، وأنا أعمل في التربة بمعول صغير، حيث أزيل جذور الخريف الذابلة التي ما زالت متشبثة بالأرض. تكسرت الأرض الباردة والصخرية تحت ضرباتي، وأخذت أنظف بقايا الحديقة، نبتة تلو الأخرى. سيحين عما قريب وقت الزرع مرة أخرى. وسيقوم والدي بالمثل في حديقتنا، وسيقلب السماد ويجهزها لزراعة اللفت والجزر. جلست على كعبيّ، وفركت ما بين عينيّ بإبهامي، متطلعة إلى السحب البيضاء الممتدة عبر آفاق السماء الزرقاء الرحيبة. وشعرت بأنه من المستحيل أن تكون السماء نفسها التي تعلو المضيق. بدت الديار كأنها عالم ناءٍ وبعيد. ولكن بيني وبين هيلي لا يوجد سوى الثلج والجليد.

عبر الطريق، كانت جيدا تعلق الملابس فوق السياج الذي يطوِّق حديقتهم. وفي الجانب الآخر من المنزل، جلس كيرلينج على جذع شجرة، وقد وضع يده على ركبته، فوق الساق

المفقودة، فيما ولّى وجهه الباهت نحو السماء، وانعكس الضوء على شعر لحيته الأشقر، فلمع كخيوط ذهبية. كان يجلس هناك طوال الصباح، يحدق إلى الأشجار. ولم أكد أراه بتلك الهيئة؛ بعينين مغلقتين والشمس تضيء وجهه، حتى تذكرته من رحلة العودة إلى الجبل من أورفانجر. كان أحد الرجال الذين استلقوا في العربة التي كانت تسير أمامنا.

سقط ظل إيري على الأرض المكسورة عندما وقف فوقي.

سألته وعيناي مركزتان على كيرلينج: «هل هو صديقك؟».

تتبع نظرتي وأجاب: «أجل». وحينما لم أرفع رأسي، جثا على ركبتيه وانتظر، مشبكًا يديه معًا. «إيلين».

هويت بالمعول بكلتا يدي، فارتطمت حافته بصخرة مدفونة.

«انظري إليّ».

عندما اقتلعت الصخرة، رميتها جانبًا، وكادت تصيبه.

«أعلم أنكِ غاضبة».

لكنني لم أكن غاضبة، كنت أشتعل حنقًا، كنت مترعة بشيء مظلم يسممني من الداخل. رفعت المعول مرة أخرى وأشرت به نحوه. «كيف يمكنك فعل ذلك؟ كيف يمكنك أن تكون هنا طوال هذا الوقت، تعيش حياة جديدة مع عائلة جديدة؟».

أطرق برأسه أرضًا قائلًا: «لا أستطيع أن أشرح...».

قاطعته وقلت: «أعرف أمر فيسك. أعرف أنه كان هناك في ذلك اليوم، وأنه سقط معك».

نظر حولنا بحذر، سيسمعني أي شخص قريب، ولكنني لم أهتم.

«أخبرني ماذا حدث». انهمرت من عيني الدموع، ما جعلني أكثر غضبًا، فبقدر رغبتي في معرفة ما حدث، لم أستطع التظاهر بأنني لا أتألم. ليس بوسعي إخفاء أن ما فعله مزق روحي وتناثرت جذاذًا.

جلس على ركبتيه بجانبي، وأخذ المعول وبدأ يحفر. «في ذلك اليوم، انفصلت عنك في القتال. خرج فيسك من بين الأشجار خلفي، ومزق جانبي بأول ضربة من سيفه. كنت تقاتلين بعيدًا. بالكاد رأيتك في الضباب».

حدقت إلى الأرض، وطوفان الذكريات يعاود اقتحامه، فها هي دماؤه القانية وبشرته البيضاء الناعمة حيث تمتد الندبة حول جانب جسمه بأكمله.

أفقت على صوته وهو يستطرد: «أسقطت بلطتي وتعثرت إلى الأمام، وحاولت الضغط على الجرح. وقبل أن أدرك وجدتني أسقط من فوق الحافة. فمددت يدي وأمسكت درع فيسك وسحبته معي. أتذكر أنني سمعتك تصرخين، لكنني عجزت عن التحرك. ولم أستطع أن أصدر صوتًا». اقتلع صخرة أخرى من الأرض. «وعندما استفقت، كان فيسك يحاول تسلق الجدار بيد وساق واحدة. واستخدم سكينه، ووضعها في شقوق الصخرة ليرفع نفسه، وفي كل مرة يسقط. كان يعتقد أنني ميت. وأنا أيضًا. كنت أشعر بروحي تحتضر. أتذكر ذلك كأنه حدث أمس؛ أتذكر كل فكرة خطرت ببالي، وكل شعور راودني. وحين حلَّ الليل وأغلقت أخيرًا عيني، ظننت أنها النهاية». توقف، يحدق إلى التراب. «ولكنها لم تكن كذلك. استفقت مرة أخرى في الصباح، وظننت أنني أحلم، أو ربما وصلت إلى سولبيورج، لكنني بدلًا من ذلك وجدت فيسك راكعًا بجانبي، يضع الثلج على جرحي». جذب نفسًا، ومسح عينيه بظهر ذراعه. «نظر إليّ، كان وجهه شاحبًا، وقد احمرت عيناه وانتفختا؛ من أثر الإرهاق وعدم النوم، وقال مشجعًا إياي: (لن نموت، يا أسكا)».

تأملت وجهه وقد استغرقه تعبير الامتنان وهو يستطرد:

«لمدة يومين، أبقاني على قيد الحياة. ثم عثر علينا والده، وعندما نادى من الحافة، أقسم لي بأنه لن يتركني وراءه. ولم يتركني. وحين سحبونا من الأخدود، كنا أخوين. لقد تخلى سيجر عني في ذلك اليوم، يا إيلين. وأنقذتني ثورا. وُلدت من جديد، وجئت إلى هنا، إلى فيلا، ولم أدر أنني أصبحت واحدًا منهم إلا بعد فترة طويلة. صارت إنجيه أمي، ووقعت في حب رونا. لقد كرّمتني ثورا وأنعمت عليّ».

ورغم أنني لم أستطع تخيل ذلك، فإنني فهمت ما يقوله لأنني كنت أرى ذلك. لقد وجد مكانًا هنا واندمج بينهم.

«ما زلت تحمل دماء الأسكا في عروقك. ما زلت تنتمي إلى عائلتي».

«سأظل شقيقك دائمًا. لقد ولدت أسكا، ولكنني إنسان آخر الآن».

«أنت إما ريكي أو أسكا، يا إيري. لا يمكنك أن تكون كليهما. هل أخبرت رونا بحقيقتي؟».

أجاب دون أن ينظر لعينيّ: «أجل».

«بحق الجحيم متى سوف تخبر هي شخصًا آخر حتى ينتشر الأمر ويأتوا ليقتلونا؟».

«لن تفعل ذلك أبدًا».

«حسنًا، لن أبقى فترة طويلة لمعرفة ذلك. سأعود إلى الديار. بك أو دونك. لن أنتظر حتى ذوبان الثلوج».

مرر يده عبر شعره، وهو يقول ببساطة: «إذًا، ستموتين».

«فيجر يوفير فيور، يا إيري». ثم لان صوتي وأردفت: «ألم تفكر بي؟».

«لقد فكرت بكِ كل يوم». راقبني وأنا أمسح الدموع عن وجهي. «لقد عرض عليّ والد فيسك مبادلتي مرة أخرى إلى الأسكا، يا إيلين».

«ماذا؟». انغرست كلماته كالخنجر في قلبي.

«عجزت عن الذهاب. لم أستطع ترك هذا المكان». مد يده ليمسك يدي. «لقد اتخذ درب روحي منحى مختلفًا، مثلك تمامًا».

حملقت إليه بدهشة: «إنه ليس الشيء نفسه، فأنا أريد العودة إلى دياري».

«أعلم، ولكنك لن تعودي كما كنتِ. لن تكوني إيلين التي عرفتها». توقف ثم استطرد: «أنتِ ترين الحقيقة، وأظن أنكِ تفكرين فيها، كل يوم».

«أي حقيقة؟».

«إنهم مثلنا».

دفنت وجهي بين يديّ، محاولة الهروب مما كان يقوله؛ فقد جعلني أشعر بأن العالم انقلب رأسًا على عقب. وكأن كل ما تعلمته طيلة حياتي لا يلائم شكل هذا العالم. انقلبت الأكاذيب لتصبح حقائق، وما اعتبرته من المسلَّمات يومًا ما وجدته محض خيال.

«بم تفكرين الآن؟».

هوى ثقل الكلمات من رأسي إلى بقية جسدي. كانت الكلمات بسيطة ولكنها تحمل ثقل الحقيقة كالجبال الشامخات.

«ليتك متَّ في ذلك اليوم».

العشرون

لم يعد فيسك إلى الدار إلا مع حلول الليل. دلف من الباب مع إيري، حاملًا سلة ممتلئة بأسماك نظيفة وتحاشى أن تلتقي نظراتنا. كان يتجاهلني تمامًا منذ عودتنا من النهر. ولسبب لا أعرفه، لم يخبر الآخرين بما حدث.

صار إيري أيضًا باردًا. بوسعي رؤية الغضب يلتف حوله، ولكنني عنيت كل كلمة قلتها.

أخذت إنجيه السلة من فيسك وأومأت نحوي. «أحتاج إليك لنزع الغرز من ذراع إيلين». ملأت سلة أخرى بجرار الثوم الذي طحناه. «سنأخذ هذه إلى القبو ثم سنذهب إلى رونا».

حملق فيسك إلى إنجيه.

«لقد فعلتها مئات المرات. سنبدأ العمل في الحظيرة عند الفجر». تجاوزته، وتبعها إيري وهالفارد إلى الخارج.

وقفت مولية ظهري للحائط، أنظر إلى فيسك والباب ينغلق. رفع الغمد فوق رأسه ووضعه بجوار النار. لم يعجبني أن أكون بمفردي معه. كنت أتمنى أن يبقى هالفارد.

سألته: «حظيرة كيرلينج؟».

أومأ برأسه. «كان قد ثبت أعمدة البناء قبل رحيلنا لموسم القتال. يجب أن يفرغا منها كي يتمكنا من شراء الماعز قبل ولادة الطفل». بدا متعبًا، إذ كان يزفر الكلمات عميقًا، ثم أضاف: «إذا جلستِ، فسأنزع الغرز».

اتجه إلى صندوق خشبي على الرف ثم رفع الغطاء، واستخرج أداة معدنية صغيرة. جلست بالقرب من النيران للحفاظ على الدفء. كانت الليالي تزداد برودة، ولم تكن ملابسي، مثل

ملابس الريكي.

جلس أمامي، منفرج الساقين على المقعد الطويل مقتربًا بسرعة. سحبت ذراعي من الكم وأدخلتها في قميصي، لكن لم أستطع رفعها من الياقة، وشعرت بالألم يجتاحني. ما زالت العضلات حول العظم ضعيفة جدًّا. أمسك أصابعي فأجفلت، وانحنيت بعيدًا عنه. تركني أسحب ذراعي بعيدًا عن يده حتى تحررت، وتركته وأنا أشعر بوخز لمسته.

جلست على جانبي حتى يتمكن من الوصول إلى الغرز. أردت أن أذكّره بأن سيفه هو ما اخترقني في المقام الأول، لكنني طفقت أرمق النيران في صمت. لم أكن أريد أن أنظر إليه، لم أكن أود أن أشعر بلمسته. أمسك الأداة وضغط بأصابعه على بشرتي، ثم مررها تحت الغرزة الأولى وسحبها بعناية حتى تكسرت.

قلت: «كنت أنتَ. في ذلك اليوم. أنتَ من كنت مع إيري في الأخدود. أخبرتني إنجيه».

فكَّ الغرزة التالية فتأوهت. أجاب: «أجل».

«أين والدك الآن؟».

وضع يده على فخذه ونظر إليّ مجيبًا: «في فريدزر».

كنت أعرف تلك الكلمة وما تعنيه؛ السلام، إنه المكان الذي ينتقل إليه الريكي حين يموتون.

«توفي العام الماضي بسبب الحمى». ورغم أن صوته لم يتغير، فإن شيئًا في ملامح وجهه تغير.

سألته: «لماذا فعلت ذلك؟ لماذا أنقذت حياة إيري؟».

اعتدل في جلسته، وترك الصمت الذي امتد بيننا يصول ويجول مثل موجات الأفكار في بحر عقلي المضطرم، ثم استطرد: «لأننا كنا نحتضر؛ لأنها كانت النهاية، وفي ذلك الحين

تصبح الحياة ثمينة».

حدجني بنظرة عميقة، وعيناه تجولان في وجهي بنظرات لاهبة تخترق أعماقي، فاحمرت وجنتاي رغمًا عني.

فك الغرزة الأخيرة قائلًا: «إيري...». لكنه لم يكمل العبارة.

جذبت ضفيرتي لأسفل أمام كتفي. «ماذا؟».

قال يكمل جملته: «إيري لم يخطط للبقاء هنا؛ في البداية على الأقل».

لففت أطراف شعري حول أصابعي وقلت: «أعلم، لكنه في النهاية فعلها».

ساعدني على إعادة ذراعي إلى قميصي، فغمرتني موجة برد بغتة فارتجف جسدي.

قلت: «أنا لست مِلكًا لك».

«لا، لست كذلك». أطرق برأسه وأضاف: «لكنك لن تتمكني من تجاوز الشتاء دوني».

«قلت لك إنني لن أبقى في هذا المكان». وتلاقت عينانا، وهذه المرة، لم أشح بنظري. انتظرت لأرى شيئًا أكرهه، الرجل الذي حاولت قتله في أورفانجر، ولكنني لم أرَ سوى تلك الروح التي أنقذت حياة إيري، الروح التي ضغطت الثلج على جرحه ولم تتركه.

نظر إلى الضمادة فوق الحرق على رقبتي: «يجب أن نغير هذه أيضًا».

مددت يدي كي أتحسسها.

سحبها ببطء، واستشعرت وخزًا في جلدي بسبب برودة الهواء.

اقترب أكثر وسأل: «هل تؤلمك؟».

غاص قلبي بين ضلوعي، وأخذت شرايين عروقي تنبض بجنون. كان قريبًا مني أكثر من اللازم، ما ينذر بشيء لم أدرِ كنهه لكنه يثير مشاعر غريبة في أعماقي لم أحس بها من قبل.

وقفت، فتأملني بعينين عميقتين حاولت الفرار منهما دون جدوي، وحاولت أن أجد شيئًا لأقوله. وكان هناك الكثير، لكن الكلمات كانت مدفونة عميقة في جانب خفيٍّ من روحي لم أستطع الوصول إليه.

همست: «كل شيء يؤلمني ويقودني للجنون».

صعدت السلم وذهبت من فوري لأتمدد على سريري، والدموع تسيل من عينيّ فلم أرَ شيئًا. تمنيت العودة إلى الديار، وعاودني الحنين لسماع صوت والدي ورؤية المضيق، تمنيت أن أمحو ندوب جلدي تحت الطوق، وأعود إلى تلك اللحظة التي رأيت فيها فيسك على ساحة المعركة. تمنيت أن أخبر نفسي حينها أن أهرب.

جلست على السرير، متكورة على جانبي، أحاول البكاء بهدوء، لكن الشيء الذي يتلوى بداخلي كان غاضبًا ولم يهدأ، كان مؤلمًا ولم يستكن. كان شيئًا حيًّا يتنفس ويحاول ابتلاعي. وربما سيفعل. بكيت حتى جفت عيناي، وظل هسيس النار هو الصوت الوحيد المسموع.

بالأسفل، رأيت ظل فيسك على الجدار، حيث تمدد بجوار النار في المنزل الفارغ. يستمع لنحيبي حتى غفوت تاركةً ألمي قليلًا إلى حين.

الحادي والعشرون

لم يكد الفجر يبزغ على القرية حتى عاد فيسك من النهر، فيما سحب هالفارد صندوق الأدوات من الجدار وفتحه، وصفَّها على رقعة جلدية. وبمجرد أن تحقق فيسك منها، لفها هالفارد ووضعها على كتفه، وسار وهو يكاد يتعثر من ثقل وزنها. فتح الباب ورأيت الريكي يتجمعون عبر الطريق، وهم يحيون بعضهم بعضًا مع نسائم الصباح الباردة.

ناولتني إنجيه سلة زاخرة بالأسماك التي ما زالت باردة من ماء النهر. «إنها نظيفة. عندما ترتفع الشمس في كبد السماء، اطهها وأحضريها».

تسمرت بينما توجهت عيناي مرة أخرى إلى منزل كيرلينج، حيث أخذ عدد رجال القبيلة يتزايد رويدًا رويدًا.

خرج إنجيه وفيسك وإيري بعد هالفارد، وشرع الريكي يعملون، والفراء محبوكة حول أجسادهم، وركض الأطفال في الطريق يطاردون الدجاج، واتكأت على الحائط، أتأمل ضحكاتهم البريئة من النافذة. سحب الرجال جذوعًا ضخمة من الغابة، بينما جلست النسوة على الأرض لصقلها. انحنين على الأشجار المتساقطة، وهن يضربن على الخشب الخام في ضربات طويلة ومنتظمة.

نظفت القِدر الحديدية على النار، وقد أزلت الرماد من الحفرة بينما كنت أنصت إليهم. وحين ترددت ضحكات بعض الرجال في القرية، توقفت يداي على حافة الطاولة الصلبة، وشعرت بغصة تتنامى في قلبي، كان كل شيء مألوفًا جدًّا، يشبه كثيرًا الديار.

توجهت إلى الجزء الخلفي من المنزل؛ فليس بوسع أحد رؤيتي، وغسلت الملابس التي كانت إنجيه قد كوَّمتها في سلة، تحولت يداي إلى اللون الوردي في الماء البارد، وقد تصلبت مفاصل أصابعي أثناء تنظيف الملابس على لوح الغسيل. لو كنت في بيتي فسأفعل المثل؛ أصيد الأسماك مع والدي أو أؤدي الفروض المنزلية مع ميرا، وتساءلت عما كانت تفعله الآن، وعما إذا كانت تتدرب مع رفيق قتال جديد.

كان الشتاء هو فصلي المفضل في المضيق؛ حيث يكتسي كل شيء بقشرة جليدية متلألئة، وتلمع كل ورقة عشب تحت ضوء الشمس، إنها تلك الصورة التي تخيلتها دائمًا لـسولبيورج. كنت أتصور، كل ليلة تقريبًا، أمي تجلس هناك على جانب التل وتنورتها منفوشة حولها.

علقت الملابس على السياج، وشرعت أعدلها حين رفرفت في الريح. وعندما عدت مجددًا إلى مقدمة المنزل، وجدت الريكي يضعون الألواح بطول أحد جدران الحظيرة. كانت تمتد من المنزل، بمساحة تكفي لعشرة أو خمسة عشر رأسًا من الماعز. وإذا اجتهد كيرلينج وجيدا، فسينجحان في تدبير أمورهما بمقايضة مزروعات الحديقة ومنتجات الماشية. كان واضحًا أن كيرلينج ليس حدادًا أو معالجًا، لقد نشأ محاربًا. وجيدا أيضًا. وربما ستنضم إلى موسم القتال المقبل بدلًا منه، ربما سأراها هناك عندما تدور رحى المعركة.

أخذت سلة الأسماك من الطاولة، وطفقت أشعل النار. كانت نظيفة وبشرتها ناعمة حيث أزيلت حراشفها، حشوتها بالأعشاب والملح ووضعتها فوق الجمر الساخن لتنضج.

عبق المنزل برائحة لذيذة وشهية جعلتني أشعر بوخز في صدري مرة أخرى؛ إذ أيقظ الحنين إلى موطني. تطلعت خارج النافذة، حيث كانوا يرفعون المزيد من الألواح، ويكدسونها فوق الألواح السفلية لرفع الجدران. في هيلي كنا نعمل كثيرًا على قوارب الأسكا المسنين ونعتني بحيواناتهم، وكان والدي يطلب مني فحص شِباك الصيد الخاصة بهم حين أفحص شِباكنا عند الرصيف، ورأيت أن الريكي أيضًا يعتنون ببعضهم البعض.

شويت السمك على النار حين صارت جلودها مقرمشة وارتفعت عن اللحم، ووضعتها في طبق خشبي كبير. استجمعت قوتي وفتحت الباب وخرجت إلى ضوء الشمس في وقت الظهيرة. ثبَّتُّ نظري على إنجيه. كانت تقف مع امرأة أخرى تلف الحبل. واتسع الممر أثناء مروري بالبوابة، لكنني لمحت بطرف عيني شخصًا فرجعت خطوة. وتعثرت، وكدت أُسقط طبق السمك. وامتدت يد لتمسكني من ذراعي وتعيد توازني.

كيرلينج.

كان يقف بجوار بوابة إنجيه، يستند إلى العمود. وحين استعدت توازني، وقفت أنظر إليه، لكن انتباهه انجذب نحو الحظيرة، التي أخذت ترتفع شيئًا فشيئًا عن الأرض. كان يراقب عمل الريكي، متواريًا في ظل الشجرة.

وارتسم على وجهه الألم والإذلال الناجمان عن إصابته، كان يعتمد على أفراد عشيرته بطريقة لا يتمناها أحد. لو كان والدي مكانه، لراوده الشعور نفسه.

همست محاولة عدم إظهار شفقتي تجاهه: «شكرًا لك».

انتقلت عيناه نحوي، كأنما تنبه فجأة لوجودي. واستدرت لأعبر الطريق إلى أن مررت بالبوابة أمام بيته. توقفت أصوات الضرب والنشر، والتفتت رءوس الريكي نحوي حين مشيت نحو إنجيه. وقف شخص أمامي، فتوقفت أحدق إلى وجه امرأة شعرها أحمر، تشبه ميرا.

انزلق الطبق من خصري، ونظرت لأرى فيسك يمسك به، أومأ لي كي أنصرف، فعضضت على شفتي، والتقت عيناي بأعين الريكي المحدقة. استدرت والألم يتعاظم في صدري فابتلعته، وعدت إلى البوابة. ازدادت وتيرة أصوات العمل، تلاها لحن أغنية رقيق يرتفع من بين شفتي امرأة. وانضم لها الآخرون، وطفقوا يغنون وهم يرفعون مطارقهم ويدقون الخشب. بدت لي كلمات الأغنية مألوفة، وكذلك لحنها على نحو ما.

ارتعشت شفتاي، بينما اندفعت الدموع من جديد إلى عينيّ. وحين وصلت إلى بوابة إنجيه، كان كيرلينج ما زال واقفًا كجذع شجرة يابسة في الظل.

الثاني والعشرون

أخذت أحدق إلى جانب الجبل حين تحدث إيري.

في الداخل، كانت إنجيه تلف البطانيات له ولفيسك. كان صباحًا رائقًا، والنار ما زالت تدفئ المنزل. لكن إيري استيقظ قبل الآخرين وانتظر نزولي من العلية.

مال نحوي، وهو يربط جراب البلطة على ظهره. «سنعود غدًا».

كانا ذاهبين للصيد مع بعض رجال القرية. راح يتركني. مرة أخرى. ولن أكون هنا عندما يعود. سأتحين الفرصة للوصول إلى النهر، وبالتأكيد سأستغلها، ولن ألتفت ورائي.

قال واضعًا يده على كتفي: «ابقي هنا في المنزل»، ولكنني دفعته بعيدًا.

لن أطلب منه أن يبقى. لقد تعلمت الاعتناء بنفسي منذ زمن طويل.

ساعدت إنجيه على تحميل حقائب السرج، بينما وقف هالفارد عند الباب، متجهمًا.

قال وهو ينحني ليلتقط ندف الثلج: «لماذا لا يُسمح لي بالذهاب؟».

«العام المقبل». ألقى فيسك نظرة مستهجنة موبخًا إياه، فتراجع هالفارد إلى الجدار. «عليك أن تفحص الشباك أثناء غيابنا».

أومأ هالفارد على مضض، ورغم غضبه، فقد سعد بهذه المهمة.

كان إيري قد أعد الخيول عندما خرجنا بالحقائب. قبّل هو وفيسك إنجيه، فربتت وجهيهما بحنان وقالت: «خذا حذركما يا ولديَّ العزيزين».

رمقني إيري بنظرة أخيرة ثم امتطى حصانه، لكن نظرتي كانت باردة وقاسية كالجليد المحيط بنا. لن أمنحه وداعًا صامتًا. استدار بحصانه وشرع في السير على الطريق نحو الآخرين. اختفوا جميعًا عند المنعطف ففركت كفي على صدري وأنا أزفر زفرات حادة ثقيلة.

ستكون آخر مرة أراه فيها. في هذه الحياة أو في الحياة الآخرة.

أخذت دلو الحليب وذهبت إلى حظيرة الماعز، ودفعت كتفيّ للخلف، شاعرة بالخجل من وجع قلبي. بالتأكيد لستُ بحاجة إلى إيري.

كان خائنًا.

بيد أننا كنا مرتبطين على نحو ما أعجز عن فهمه. وأسوأ ما في الأمر إدراكي أنه لا حيلة له في تغيير الأمر. تمنيت أن أنساه، وتتلاشى ذكراه وتصبح كالعدم، لكنني أحسست بالعجز عن القيام بذلك.

جلست متجاهلة غصة الألم التي تتصاعد في حلقي، وأنا أشاهد ماعزًا يطل برأسه أعلى الحظيرة. لم يمضِ سوى أسبوعين على وجودي في فيلا. كان عليّ قضاء ستة أسابيع أخرى على الأقل حتى يتوقف سقوط الثلج ويبدأ الذوبان. بوسعي الوصول إلى دياري في الوقت المناسب لمعاونة والدي في الزراعة. ولن أتفوه بشيء عن إيري. وإذا شملني سيجر برحمته، فربما سأنسى كل ما يتعلق به.

وقفت جيدا خلفي مع كومة من الحطب بين ذراعيها. «ماذا فعلتِ؟ ماذا فعلت كي يبقوكِ على قيد الحياة؟».

التفت إلى الماعز وملأت الجرَّة. لم أكن راغبة في الكذب وتلفيق الأعذار، بل شعرت بالشفقة عليها وعلى كيرلينج، وكرهت نفسي لذلك.

غمغمتْ: «ستصب ثورا انتقامها عليكِ، علينا جميعًا».

ابتعدت وهي تمسك تنورتها بقبضتيها. أطرقت ببصري أرضًا، وشعرت كم هو ثقيل هذا الطوق حول عنقي، يكاد يخنقني ويخنق روحي المثقلة بالكثير من الآلام والأحزان، وفكرت في أنها انتقمت مني بالفعل. ربما كانت ثورا هي التي جلبتني إلى فيلا، كما قال إيري. وربما كانت ثورا هي التي وضعت إسار الطوق الحديدي حول عنقي.

نظرت إلى صف الأشجار الباسقة، وفكرت أنه إذا نجحت في الوصول إلى النهر، وطاردني الريكي في غابة كثيفة لا أعرفها، فسيلحقون بي قبل أن تتسنى لي الفرصة للنزول من الجبل. سأضطر للانتظار حتى لا يلاحظوني، ثم أغادر هذا المكان بلا رجعة.

عندما كان هالفارد نائمًا، جلست بجانب النار الخابية، وبيدي الخشب المقدس، وأخذت أجر ببطء أداة النحت باتجاهي لتشكيل القدمين.

سألتني إنجيه بهدوء عبر النار: «لمن تصنعينه؟».

نفخت الغبار عن يدي وأجبت: «لروح أمي».

الشيء الوحيد الذي أتذكره بوضوح عن أمي هو شعرها. أتذكر كيف كانت أشعة الشمس تنعكس عليه، حتى يُخيل لي أنه يتحرك، رغم أنه كان ساكنًا.

مالت إنجيه للأمام، وأسندت ذقنها على يديها، وأخذت تراقب الأداة وهي تقطع الخشب وتسألني: «متى توفيت؟».

فكرت لوهلة في الكذب، لم أكن أعرف ما قاله إيري لها عن والدتنا، ولكنني شعرت بأنه ليس من الصواب أن أكذب بشأنها، أردتها أن تعرف شيئًا عن المرأة التي حلت محلها.

«كنت في السادسة، لم تكن والدتي محاربة»، ثم أردفت مجيبة عن السؤال الذي طرحته في ذهنها ولم تصرح به: «لقد قُتلت في هجوم الهيريا».

اتسعت عيناها وتصلبت وقالت: «الهيريا؟».

«أجل».

«لقد سمعت القصص. ظننت ... يعتقد الناس أنهم مجرد أساطير».

سحبت طرف المعدن أسفل القطعة ببطء. «بالتأكيد ليسوا قصصًا خيالية».

كانت ليلة قدوم الهيريا هي أول ليلة أرى فيها والدي ينهار. هربت أنا وإيري؛ لأنه أمرنا بذلك. دفعنا عنوة للخروج في الظلام، وركضنا صعودًا على التل وتوغلنا داخل الغابة، ولم نتوقف عن الركض حتى انبلج الصبح. وعندما عدنا، نعرج على أقدامنا العارية النازفة، وجدناه يحتضن جسدها عند الشاطئ، ويداه متشابكتان في شعرها. لن أنسى ما حييت صوته؛ زئيرًا بريًا اندفع من حلقه وتردد في أرجاء قريتنا يعبر عن أنين القلب المكلوم.

قالت إنجيه وهي تراقب وجهي: «آسفة».

هززت كتفيّ وقلت: «لا أتذكرها جيدًا». ورغم ذلك، ما زلت أتذكر أصوات الصراخ في الظلام، ورائحة الجثث حين أحرقناها. ما زلت أشعر بالقشعريرة تزحف على ظهري منذ أول مرة رأيت فيها الهيريا.

اعتدلت إنجيه في جلستها وقالت: «بل تتذكرين. حتى إذا كنتِ لا تستطيعين رؤيتها عندما تغلقين عينيكِ، فإن أجسادنا وعقولنا تتذكر أشياء عجزنا عن تذكرها. وسوف ترينها مرة أخرى، عندما تصلين إلى سولبيورج».

دهشت وتوقفت عن النحت.

ابتسمت قائلة: «هذا هو المكان الذي تذهب إليه قبيلتك بعد الموت، أليس كذلك؟».

نظرت إلى عينيها، متسائلة عما تفكر فيه، وماذا تريد مني. «لست واثقة من وصولي إلى سولبيورج». استيقظ خوفي مجددًا حين نطقت ذلك بصوت عال، وتمنيت لو لم أنبس بكلمة.

أمالت رأسها على كتفها. «لماذا؟».

«لأنني مجرد جارية لا قيمة لها». ونظرت مجددًا إلى التمثال. لم أرغب في مشاهدة ما إذا كانت تشعر بالشفقة تجاهي أم لا. «لقد فقدت شرفي».

ظلت هادئة لفترة طويلة، تراقب نحتي. استمعت إلى هسيس النيران، وحاولت نسيان وجودها.

تخيلت وجه أمي، وعينيها السوداوين العميقتين، وأسنانها المتلألئة.

نهضت إنجيه: «في الحياة نعثر على أشياء، ونفقد أشياء أخرى، يا إيلين. إذا فقدت شرفك، فمن المؤكد أنكِ ستجدينه مجددًا».

أوليتها ظهري حين صعدت إلى العلية. لم أستطع محاولة شرح الأمر لها، عجزت عن إخبارها بأنني تخليت عن رفاقي في ساحة المعركة، لأطارد الشقيق الذي لم يعد يرغب في وجودي، وأنني أيضًا من تركت إيري وحيدًا في ذلك الأخدود.

رفعت التمثال أمام ناظريَّ؛ كان شكلًا بدائيًا بسيطًا، وبالنسبة للنحت كان أبي هو من يجيده، لكن تمثالي هذا يشبهها على نحو ما.

رفعت رأسي إلى العلية المظلمة حيث ينام إنجيه وهالفارد. لو كان والدي هنا، لأمرني بصعود السلم وقتلهما بأداة النحت. رفعت الأداة الحديدية الصغيرة، وقلَّبتها في ضوء النار، ثم وضعتها، بينما تحسست بأناملي وجه التمثال.

«أدعوك يا سيجر أن تحفظ روح أمي بأمان في سولبيورج. وأن تحمي والدي، وأن تديم نعمتك عليَّ». امتزجت المشاعر في أعماقي ما جعلني أتمتم بكلمات غير واضحة، وفي النهاية ترقرقت الدموع في عيني وأنا أهمس: «كن معي دائمًا ولا تنسني».

الثالث والعشرون

ملأت إنجيه سلة الخضراوات وارتدت عباءتها، بينما كان هالفارد مستغرقًا في النوم. «أريد منك الذهاب إلى القبو عند سفح الجبل. إننا بحاجة إلى تخزين القصعين، وأحتاج إليك لإحضار بعض الخل من البرميل». التقطتْ عباءتي من المشجب المعلق على الحائط وسلمتني جرة فارغة.

قطبت حاجبي متسائلة: «ألست ذاهبة معي؟».

«بعض المرضى بحاجة إلى الرعاية. القبو يقع أسفل دار الطقوس. سترين الباب في الواجهة الصخرية». أخذتْ مشعلًا صغيرًا من جانب الباب، وأشعلته من النار، ثم فتحت الباب، لكنها توقفت، ونظرت إليّ. زمت شفتيها والأفكار تصطرع في عينيها. «وداعًا يا إيلين». واستدارت قبل أن تنطق اسمي، وخرجت إلى القرية التي خيم عليها الظلام.

وقفت أحدق إلى الباب، وعقلي يقفز من فكرة إلى أخرى، إنها تطلق سراحي وتمنحني الفرصة التي أنتظرها. سبق قلبي عقلي، وركضت نحو حذائي، وانتعلته في عجالة، وأحكمت العباءة حول جسدي.

أصدر الباب صريرًا عاليًا عندما فتحته، فتطلعت إلى الطريق الفارغ، وأنا أقلب الجرة في يدي، ونبضات قلبي تتسارع. يمكنني أن أتناول بعض الطعام من القبو ثم أتسلل إلى الغابة قبل أن تغرب الشمس، وإذا أسرعت فسأصل إلى النهر، ولن يلاحظ أحد غيابي إلا في الصباح.

أمسكت عدة حزم من نبات القصعين وأخذت أراقب بحذر. كان الهدوء يخيم على القرية، لكن الريكي ما زالوا مستيقظين وراء الأبواب المغلقة. أضأت المشعل الآخر، وخرجت من الباب بخطى حثيثة. وقفت إنجيه عند باب منزل جيدا المضاء بالشموع.

توجهت نحو دار الطقوس، ملازمةً جانب الطريق، ومتجنبةً في الوقت نفسه عيون المارة. وقف الحدّاد في خيمته، يدق على السندان، مطلقًا شرارات برتقالية تلمع بين فينة وأخرى في الظلام الزاحف. أجفلت عند سماع صوت الجمر يئز في الثلج، وعاودتني ذكرى الحرق على رقبتي من أثر الطوق. رفع نظره عندما مررت أمامه ثم عاد إلى مطرقته.

كان القبو محفورًا في جانب الجبل، وثد ثُبت عليه باب خشبي كبير، فأمسكت حزم القصعين بذراع واحدة، وسحبت القبضة الحديدية الباردة، ثم فتحت الباب دافعةً الجليد، أزحته بجسدي حتى حشرت نفسي في الفتحة. كان المكان مظلمًا تسوده أجواء الرطوبة الشديدة، يتردد فيه صوت الثلج المذاب المتساقط من السقف الصخري. وعلى الجدران تراصت البراميل والصناديق الممتلئة بالطعام والجعة والأدوية، وقد وُضع مخزون الشتاء الخاص بالقرية بالأعلى، بينما الحبوب المعبأة في جوالق فكانت موضوعة على رفوف خشبية لإبقائها بعيدًا عن الأرض.

على الجدار الخلفي، كانت اللحوم المملحة معلقة على خطافات معدنية، فوضعت المشعل في الحامل المعلق على الحائط وفتحت حقيبتي، وملأتها بكيس صغير من الحبوب، وألقيت فيها ضمادات نظيفة. مددت يدي نحو اللحم، وكدت أنزلق، لكنني أمسكت سلة من جذور الزنجبيل، فتدحرجت القطع على الأرض. لعنت بصوت خافت، ووقفت على أطراف أصابعي، حتى وجدت شريطًا طويلًا من لحم الغزلان وسحبته.

سمعت صوت الباب فتوقفت، وتجمدت يداي على حقيبتي. أبصرت رجلًا ذا لحية حمراء، بيده بلطة اتكأ على الجدار الصخري؛ كان الرجل نفسه الذي التقيت به في أدالجيلدي.

بادرني صائحًا: «ماذا تفعلين هنا، أيتها الأسكا؟». استطعت بصعوبة رؤية شفتيه تتحركان فوق لحيته الكثة.

اعتدلت، وأنا أضع اللحم في حقيبتي، ثم أخذت الجرة من الجيب الداخلي. كان برميل الخل مفتوحًا خلفي، والمغرفة الخشبية معلقة على الحائط بجانبه. أوليته ظهري، ونزعت

الغطاء عن الجرة وملأتها بالكامل.

ردد: «سألتك ماذا تفعلين هنا؟ هل تسرقين؟».

أسقطت الجرة مرة أخرى في حقيبتي وعبرت أرضية القبو، وأخذت المشعل من الحائط، وانتظرته حتى يتحرك.

أمسك إصبعه بالطوق وجذبني نحوه بعنف وهو يقول: «هل قطع فيسك لسانك؟».

قلت مبتعدة عنه: «لا تلمسني».

ابتسم ورفع حاجبه. «أحتاج إلى شيء منكِ قبل ذهابك». مد يده ووضع أصابعه الخشنة والملطخة على منحنى خصري، والتقت عينانا.

كنت أعرف هذه العيون. لقد رأيتها في ساحة القتال وفي أماكن أخرى أيضًا.

قال بصوت هادئ: «أنتِ جارية يا أسكا، وستطيعين ما أقول أو ستُعاقبين».

اندفعت كلماتي تحمل كل كراهية العالم: «لقد اشتراني فيسك، فإذا كنتَ تريد شيئًا، فعليك أن تطلبه منه».

انتظرت تصاعد غضبه، وأن يضغط بقوة أكبر، لكنه رمقني بنظرة تشبه الارتياح على وجهه. وبسرعة، تحركت يده في الهواء، واصطدمت بجانب وجهي، فسقطت على الحائط، وأفلت المشعل من يدي وسقطت الحقيبة من كتفي وانفتحت فأمسكت بها، وأخذت الجرة وقذفتها نحوه. شعرت بفرقعة في كتفي حين ارتطمت الجرة بوجهه. وانكسر الزجاج واندفع الخل منها، فأخذ يعوي وهو يفرك عينيه بيديه. قفزت فوقه وركضت نحو الباب، لكنه أمسك قدمي، فاصطدمت بالأرض بقوة، وحاولت الزحف بعيدًا، لكن يده الأخرى تشبثت بكاحلي.

سحبني إليه وهو يلعن. أخذت أركل حتى وجدت قدماي ذقنه، فسحبني مجددًا بقوة أكبر، حتى ألفيتني أسفل جسده. أمسك وجهي بيده وضغط عليه بشدة. كانت عيناه حمراوين؛ من أثر الخل فصرخ متوعدًا: «ستدفعين ثمن ذلك، يا أسكا».

مد أصابعه تحت الطوق وجرّني عبر الطريق، فأنشبت مخالبي في ذراعيه، وأنا أختنق وقدماي تنزلقان. جرني مارًّا بدار الطقوس ثم إلى الغابة. وتوغل أكثر فأكثر. وعندما توقف أخيرًا في بقعة نائية، حاولت الوقوف صامدة، لكنه دفعني للأسفل مرة أخرى، وأمسك الطوق مجددًا ومرر فيه حبلًا غليظًا.

صرخ وهو يجرني بقوة: «قفي».

تطلعت حولنا، لكن ساد الظلام الحالك فعجزت عن تحديد المسافة بيننا وبين القرية. حتى لو رآنا أحد، فلن يساعدني أي منهم، فالصراخ كان عبثًا إذ لن يأتي أحدهم ليغيثني.

وقفت أرتعش، وقد ابتل شعري، وسادت البرودة كل ذرة في جسدي. وفجأة غمرني الشوق الشديد لإيري؛ شوق آلم قلبي، كنت أراه بعيدًا، يمتطي حصانه، عيناه تبحثان عن عينيّ، ويمد يده إليّ لينقذني من الهلاك.

جرني إلى جذع شجرة عريضة، ولفَّ الحبل حولها، وشدّه بقوة، كنت مثبتة في مكاني، وجهي يلامس لحاء الشجرة الخشن.

قلت محاولة الابتعاد: «ماذا تفعل؟».

وضع يديّ فوق رأسي وربطهما بإحكام، ثم ربط أعلى ساقيّ ليشل حركتي. بدأت الثلوج تتساقط حولنا. سحب سكينه من حزامه فحاولت الصمود والكفاح بقوة للتحرر من الحبال.

صرخت: «لا!».

تراجع خطوة يراقب محاولاتي للتحرر، وعلت وجهه ابتسامة شيطانية. وحين اقترب مني تأوهت، وشعرت بالجلد الذي ما زال يلتئم حول معصميّ ينفتح بسبب الحبل. ضغط النصل في فقرات ظهري، وأخذ يراقبني مستمتعًا. كتمت أنفاسي، بينما توقفت خفقات قلبي.

«لسنا في أورفانجر، يا أسكا. لست محاربة هنا».

وبسكينه أمسك قميصي ومزقه.

شق القماش من الأعلى إلى الأسفل، ثم انتقل إلى الذراعين. ثم سحب بالنصل القطع الممزقة، وأسقطها على الأرض أمامي، مجردًا إياي من ملابسي حتى الخصر.

شددت الحبل، وكززت على أسناني، لكنني لم أستطع التحرك، وجسدي يحتك بجذع الشجرة.

«ستتجمدين ببطء حتى الموت». وحين تراجع ونظر إليّ لم أتمكن من رؤية وجهه في ضوء القمر الخافت. وقف هناك صامتًا، وأنفاسه البطيئة تتردد وهو يقول ساخرًا:
«ستغلقين عينيك ولن تستيقظي أبدًا. وإذا فعلتِ، فستتمنين الموت». أسقط طرف الحبل على الأرض وسار عائدًا حيث الظلام.

جذبت الحبال بصورة أشد، محاولةً تحرير ساقيّ، لكنها لم تزدني إلا ألمًا. ولم تتزحزح قيد أنملة. تأوهت وبصقت، وأنا أجاهد للتحرر من العقد، حتى شعرت بظل يتحرك في الأشجار فتجمدت أوصالي. حاولت أن أتبينه وانتظرت حتى تتكيف عيناي. تصاعدت أنفاسي في نفثات بيضاء، وأبصرت امرأة تداعب أصابعها القلادة على صدرها، وتتأملني من بعيد.

التالا.

وقفت ساكنة بلا حراك، في الظلام.

انتظرت أن تتفوه بأية كلمة؛ أن تفعل شيئًا، لكنها أخذت تتطلع إليّ مباشرة، في هدوء جليدي. كففت عن المقاومة، وانحنيت على الشجرة وبادلتها النظر. انسابت قطرة دماء على خدي. ثم طرفت بعينيها. لم تتغير النظرة على وجهها حين استدارت وشرعت تسير على الطريق تاركة إياي مقيدة إلى الشجرة تحت الثلوج المتساقطة، أتجمد حتى الموت!

الرابع والعشرون

رأيت نفسي قرب وطني، في ذلك المضيق المحبب كثيرًا إلى نفسي.

كنت أرى المياه الزرقاء الثلجية. والسحائب تطفو في انعكاسها. قدماي تضغطان على الحصى الأملس الأسود، ذراعاي تطوقان جسدي من الريح. غمرني المشهد كموجة باردة. واجهة الجرف تبرز من الماء كحائط، والطحالب الخضراء تنتشر عليها في خيوط طويلة وزاهية كان بوسعي رؤيتها.

أفقت على قطرات الثلج الجامدة تكاد تفقدني وعيي فتركت جسدي يسقط على الشجرة، وتناوبتني صور مشوشة، فها هي صورة هيلي تقتحم ذهني، حافة الغابة بجانب القرية، ظل يتحرك بين الأشجار. ضيقت عينيّ المشوشتين، محاولة تمييز الحقيقة عن الأوهام.

ثمة شخص يترصد من بعيد، ويراقب لا أدري هل هو حقيقة أم وهم؟! فرو سميك ولمعان فضي. عيون الهيريا البيضاء الفارغة. طرفت بعيني وأنا أقاوم كي أظل على قيد الحياة.

سمعت صوتًا يصرخ: «إيلين».

كان هناك، بين الأشجار، يراقبني. الهيريا الذين قتلوا أمي جاءوا الآن ليقتلوني.

«إيلين؟»؛ شيء ينخز خدي؛ «إيلين!».

فجأة اختفى ضوء الشمس، وانقشع الظلام، وجرتني يدان. كانت بشرتي مخدرة من الثلج على الأرض. أغلقت عينيّ مجددًا لأتجاهل ذلك، وحاولت تخيل مشهد المضيق مرة ثانية.

أبصرت وجه فيسك ينظر إليّ، ويداه على جسدي، لكنني كنت قد فقدت الإحساس بأي شيء.

غمغمت بحلق جاف: «الهيريا». وألقيت نظرة على الأشجار، لكن ما من أحد هناك.

فوق رأسه، أبصرت ضوء القمر يشق طريقه بين الفروع العالية.

«ماذا؟».

«أريد أن أعود إلى دياري يا فيسك». اختلطت كلماتي واستشعرت الوهن فيها، كان الحزن الهش يفوح من الحروف.

ثم بدأت أسقط. اهتز العالم من حولي وتأرجح حين رفعني عن الأرض. كان بوسعي سماع أنفاسه والشعور ببشرته. ذراعاه تلتفان حول جسدي المنهك، ثم تحملاني.

فتحت عيني مرة أخرى وأبصرت الأشجار تطفو فوقي. ورنَّ في رأسي النابض بالألم صوت خطواته التي تسحق الثلج تحته. احتضنت فيسك وأغلقت عينيّ حتى أرى المضيق مجددًا. لامس الضباب الجروف الصخرية، رائحة مياه البحر، لكن جنود الهيريا قد تلاشوا.

انفتح باب، وفجأة كنا بالداخل. ابتلعني ضوء النيران المألوفة، لكنني لم أشعر بدفئها.

جرى هالفارد نحونا صائحًا: «ماذا حدث؟».

بادره فيسك: «أحضر الماء»، ثم وضعني على الأرض وتفحصني في الضوء الخابي.

كنت ملفوفة بردائه، فهمست: «أين إيري؟».

«إنه يبحث عنك كالمجنون». سحب بطانية من الصندوق ونقلني بالقرب من النار. دفع هالفارد نحو الباب وقال: «ابحث عنه». ثم انحنى أمامي متسائلًا والغضب يشمل كل حرف من كلماته: «مَن فعل هذا؟».

شددت البطانية حولي بإحكام، وتأملت وجهه، بدا مختلفًا، كان ثمة شيء يلمع في عينيه لم يكن موجودًا من قبل، أو ربما كان موجودًا. لم أرهما عن كثب قبل هذه اللحظة.

سألني مجددًا: «مَن فعل بك هذا؟».

لكن لم أفكر إلا في قربه اللصيق بي، وأنني أود أن يبتعد. همست: «ذلك الرجل من أدالجيلدي».

«ماذا فعل؟».

أغلقت عينيّ، وحاولت أن أتلاشى من الوجود.

«هل...؟». لم يكمل سؤاله وخفض بصره.

هززت رأسي نافية، وطوقت جسدي العاري بذراعيّ.

وقف فيسك، ورنت خطواته على الأرض الحجرية حين سار نحو الجدار. التقط بلطة من الخطاف وفتح الباب، وقال قبل أن يغادر: «لا تخبريهم عن مكان ذهابي».

* * *

أفقت على صوت الباب وهو يُفتَح، وشعرت بالبطانيات الثقيلة فوقي. كان إيري غافيًا بجوار النار، ورأسه يستند إلى حقائب السرج.

دخل فيسك من الباب بصمت، وشاهدته يعيد البلطة إلى الجدار. نزع سترته المدرعة وقميصه، وذهب إلى حوض الماء ليغسل وجهه، وأخذ يمرر أصابعه في شعره. كانت الجروح والكدمات من موسم القتال تتعافى، تاركة بشرة ناعمة على جسد ممشوق القوام

مثل إيري. وضع يديه على الطاولة وانحنى نحوها، ينظر إلى الحوض. وسالت قطرة ماء واحدة إلى طرف أنفه وسقطت في الماء.

حدقت إلى القميص الملطخ بالدم الملقى على الأرض.

هبطت إنجيه السلم، وشعرها الطويل ينسدل على كتفيها وهمست: «أين كنتَ، يا فيسك؟».

عندما لم يرد، أمسكت ذراعه وسحبته ليواجهها.

قال دون أن ينظر إليها: «ثورب».

انخفض صوتها أكثر: «ماذا فعلت؟».

ربط شعره للخلف، وجلس بالقرب من النار وخلع حذاءه. «ذكَّرته بألا يلمس ما ليس مِلكه».

نظرت إليه إنجيه للحظة ثم أومأت برأسها، لكن وجهها اكتسى بالقلق. «سأتحدث إلى التالا غدًا».

«سأتحدث أنا إلى التالا». ران الصمت على الغرفة.

«فيسك...».

تجمد، وهو ينظر إليها.

لكنها لم تتكلم. تطلعت إليه فقط، وتأملته من رأسه حتى أخمص قدميه. ثم نظرت في عينيه مباشرة مجددًا. كأنما تحاول كشف شيء.

وقف، وتجاوزها متجهًا إلى السلم، راقبته حتى اختفى عن الأنظار، ثم التفتت مرة أخرى نحو النار. ظلت ساكنة لبرهة، وعندما أغلقت عينيها أخيرًا، كانت شفتاها تتلوان صلاة صامتة.

غصتُ تحت البطانيات. لم تكن إنجيه تعلم أنني أمثل ذلك الماضي الذي تركه إيري خلفه، وأنها ينبغي أن تلعنني في دعائها أيضًا.

وبالتأكيد كانت مسألة وقت قبل أن تفعل ذلك.

استلقيت في العلية بينما واصل الآخرون حياتهم اليومية المعتادة.

تجنبني الجميع إذ لم يتحدث إليّ أحد، كما لم يطلب أحدهم مني فعل أي شيء.

ضممت ساقيّ إلى صدري محاولة استجلاب الدفء إلى عظامي المتجمدة، حيث أشعر بالفراغ.

عندما توسطت الشمس كبد السماء، سحبت البطانيات فوق رأسي، واستمعت إلى نبضات قلبي التي تخفق متسارعة. صعد إيري السلم ووقف بالقرب مني، وقد بدت ملامحه تشي بالقلق العارم. تظاهرت بالنوم، وعندما نزل إلى الأسفل مرة أخرى، تنفست الصعداء، فأغلقت عيني محاولة تذكر ذلك الشعور؛ الشعور الذي عصف بي وأنا أقف وحيدة، أسيرة في ظلام الغابة، مجرَّدة من ملابسي ومقيدة بالشجرة.

لم ينتبني من قبل هذا القدر من الضعف والخوف.

ولم أكره ضعفي ألبتة مثلما كرهته آنذاك.

تذكرت الضوء المنعكس على الثلج، وصوت أنفاسي السريعة في الصمت. كنت أفكر في أنني لن أصل إلى سولبيورج إذا مت، ثم غمرني الشعور بالعار بسبب الخوف من الموت للمرة الأولى في حياتي.

أثناء معاركي السابقة كان بوسعي تحمل أي شيء في ساحة المعركة. كان بوسعي الشعور بالحرارة ووخز الألم، ولهيب صيحة الحرب في حلقي، كنت أرى نفسي حية وقوية.

طرفت بعينيّ.

لكن في تلك الغابة المظلمة انقلب كل شيء، لم يكن هناك سوى البياض والبرودة والهدوء. لم أجد غير الوحدة، والضعف، كانت هشاشتي تنتظر الموت الذي زحف نحوي ببطء في الظلام. جاء ليختطف روحي. وعندما أحكم قبضته عليّ، كانت الفكرة الوحيدة التي تجول برأسي: لا أريد أن أموت بهذه الطريقة.

لم أستشعر الخوف الحقيقي إلا لحظة رؤيتي لإيري في أورفانجر. وكنت أعتقد دائمًا أن نواصينا بيد الآلهة، وأنهم يسبغون نعمهم وينتزعونها كما يشاءون.

لكنني كنت وحدي أسيرة في تلك الغابة المظلمة.

بعيدة عن عشيرتي.

لا بد أن سيجر نبذني. شعرت بذلك، ولم أفكر إلا في إيري؛ صبي يموت ببطء في البرد، وفكرت كذلك في أمي حيث غادرتها الحياة تدريجيًّا، وكل صراعها تلاشى كخيط دخان.

وجنود الهيريا يتسللون في الظلام كالنذير، يراقبني قائدهم.

أفقت على صوت طرقات على الباب في الأسفل، فعدت إلى الواقع.

تعالى صوت دافئ يرتفع نحوي مناديًا: «إنجيه»، فزحفت إلى حافة سريري لأطل من شقوق العلية.

دخلت التالا من الباب ووقف الجميع. أمسكت إنجيه يدي التالا وضغطت عليهما، لكن وجهها ما زال يعصف به القلق، ووقفتها تبدو ثقيلة.

تخطت التالا عتبة الباب قائلة وهي تمسك ذراع إيري وتبتسم: «لديَّ أنباء طيبة، لقد وافق والد رونا على طلب الزواج».

تسلل الارتياح على وجهه، فرفع بصره والتقت عيناه بعيني إنجيه.

ابتسمت إنجيه وقالت: «إنك تستحقها، يا إيري».

أومأت التالا قائلة: «ستكونان زوجين رائعين».

مست الرقة في عينيْ إيري قلبي، ولمست الألم الحاد لفقدانه مرة أخرى، وتملَّكتني رغبة عارمة في البكاء.

أومأ وقال: «شكرًا لكِ».

«سيتعين عليك ترتيب كل شيء، بالطبع. سنقوم بجميع الإعدادات والتحضيرات حالما تريد».

ابتسمت التالا مرة أخرى وتأملتها. بدت سعيدة حقًّا، وكان الآخرون ينظرون إليها بإعجاب وثقة. بيد أنني حين أنظر إليها، لا أفكر إلا في مراقبتها الباردة لي في الغابة، ثم ابتعادها وتركي للموت وحيدة.

جلست إلى الطاولة، وضمت يديها في حجرها، وقد تغير أسلوبها قليلًا، وران الصمت على الغرفة. «يجب أن نتحدث عما حدث، الليلة الماضية». انتقلت عيناها إلى فيسك، الذي وقف على الجانب الآخر من النار. «هل لديك شيء تود قوله؟».

لم يبد فيسك عصبيًّا مثلما كانت إنجيه، بل وقف مستقيمًا، ينظر مباشرة في عيني التالا وهو يضغط على الكلمات: «ذهبت لأتحدث مع ثورب، الليلة الماضية، بعدما عدت من الصيد، وعرفت أنه حاول قتل جاريتي».

«هل تحدثت معه؟».

ظل وجه فيسك جامدًا. وبجانبه، حدق إيري إلى النار، ويده تختلج على حزامه.

أمالت رأسها جانبًا وأضافت: «لقد تعدى ثورب على جاريتك، وليس لديه الحق فيما فعل بالتأكيد، لقد جنى على نفسه».

كان ذلك هو أسلوب الأسكا أيضًا. حين تخالف القانون، تدفع الثمن. لا يوجد قضاة أو مسئولون عن تطبيق القوانين، وما على التالا إلا المحافظة على السلام في القرية، وعندما يخطئ أحدهم في حقك، فإنك تتعامل مع الأمر بنفسك، وإذا لم تفعل، فستكون لقمة سائغة للآخرين.

أومأ فيسك: «شكرًا لكِ».

كررت إنجيه بهدوء: «شكرًا لكِ».

«ومع ذلك أود أن أنصحك، يا فيسك، لقد اخترت أن تتخذ جارية لك للمرة الأولى. ولم تختر شخصًا عاديًّا، لقد اخترت أسكا، أيمكنني معرفة السبب؟».

هز فيسك ذقنه، ومد كتفه، وأجاب: «أمي بحاجة إلى المساعدة في شئون المنزل».

قالت إنجيه بصوت قلق: «ما الأمر؟».

حدجت التالا فيسك لبرهة ثم أجابت: «لقد حلمت بها، ورغم أنني لست واثقة من معنى الحلم، فإنني أشعر بأن ثورا تضع عينيها على هذه الأسكا».

تصلب فك إيري.

«تبدو حانقًا مما فعله ثورب».

«أحتاج إليها للعمل. إذا قتلها ثورب، فسيتعين عليه أن يدفع لي ثمنها، تمامًا كما سيفعل في حالة قتله خروفًا أو حصانًا».

تزايدت الهوة داخلي، وازداد عمقها حتى كدت أسقط فيها وأتلاشى.

نظرت تالا إلى إنجيه وقالت: «أوصيك بمقايضتها مع قرية أخرى بعد ذوبان الثلوج، في مكان لا يعرفون فيه هويتها الحقيقية، إنها تجذب الكثير من الانتباه لأنها أسكا وستكون عديمة الفائدة، وأود أن أذكرك أيضًا بأنه ينبغي لك اختيار زوجة، مثلما فعل إيري. كنت آمل أن يكون ذلك في هذا الشتاء، لكن يبدو أنه لن يحدث».

تردد فيسك قبل أن يهز رأسه: «لا».

«حسنًا، الشتاء المقبل، اتفقنا؟».

أجاب فيسك وإنجيه في صوت واحد: «اتفقنا».

قامت واقفة وهي تسوي هندامها قائلة: «يسرني سماع ذلك، كما تسعدني مساعدتك في العثور على جارية أخرى يا إنجيه. أعلم أنكِ بحاجة للمساعدة».

«شكرًا». عانقت إنجيه التالا، وأراحت ذقنها على كتفها، ثم توجهتا إلى الباب متشابكتي الأذرع، فغصت مرة ثانية في الفراش.

أغلقت عيني ورحبت بالظلام من جديد.

الخامس والعشرون

جلست بجانب إنجيه في المرج، ننتزع بصيلات الشمر في صمت. كانت الشمس تميل إلى الغروب فيما انتشرت أجواء باردة إثر انعكاس بقايا أشعتها على الأرض المتجمدة. دفعت المجرفة في الأرض أرفع التربة، وأحركها بيدي.

تضرر جلد معصمي إلى حد كبير فيما كانت الكدمة على وجهي تؤلمني حين أحرك فمي.

التقطت إنجيه بصيلة ونفضت عنها التراب بأصابعها وهي تقول: «أنا آسفة على ما حدث».

اعتدلت على ركبتي، وأخذتها منها ثم وضعتها في السلة بجانبي. لم يكن ذلك خطأها، لكنني أردت أن أغضب منها على أية حال. لقد سُنحت لي فرصة الوصول إلى النهر، والآن ضاعت إلى الأبد.

راقبتني، ووضعت يديها في حجرها، ثم طفقت تزيل التراب تحت أظافرها: «أظن أن علينا التحدث عن إيري». ثم نظرت إليّ مباشرة وأردفت: «أعرف من أنتِ، يا إيلين».

أجفلت فيما اندفعت أفكاري بسرعة البرق، فعجزت عن اللحاق بها بسهولة. وتلفت حولنا في المرج بشكل غريزي، بحثًا عن تهديد، لكننا كنا بمفردنا تمامًا.

أخذت تراقبني بثبات: «لم أخبر أحدًا».

تسارعت نبضات قلبي حتى أحسست بأنه سيقفز خارج صدري، محاولةً تخمين أفكارها، واستشفاف دواخلها، ومدى معرفتها: «كيف؟».

«عندما أحضرك فيسك إلى المنزل، عرفت أن هناك أمورًا كثيرة لم يخبرني بها. وحين ذكرت عائلتك وسنك، ساورتني الشكوك، وظننت أنكِ قد تكونين الأخت التي أخبرنا عنها،

ولكنني لم أكن متأكدة». استنشقت نفسًا عميقًا ثم زفرته بحدة.

وقفت، ومشيت بعيدًا كي أحظى برؤية واضحة للمرج. إذا كانت تخطط للإيقاع بي، فسيكون هذا مكانًا جيدًا. لم يكن ثمة بقعة للاختباء. «هل أخبرك بشأني؟».

«أجل، لكنه لم يكن مضطرًا لذلك، حيث إنكِ تشبهينه تمامًا».

تساءلت وأنا أركز بصري على خط الأشجار: «هل أخبركِ أنني كنت رفيقته في القتال؟».

علت شفتيها ابتسامة حزينة وهي تقول: «لا، لم يقل ذلك».

نظرت لها بثبات. كانت جالسة على العشب وتنورتها منفوشة حولها. ازدردت ريقي وأنا أحاول التحفظ قدر الإمكان: «لقد فقدته في القتال. استدرت ولم أجده. كنت أبحث عنه». جذبت نفسًا عميقًا وأردفت: «وشاهدته يسقط فوق حافة الهاوية. لم أستطع الوصول إليه»، ثم جلست مجددًا بجانبها، وأنا أسألها: «ماذا ستفعلين؟».

«حسبت أنني إذا سمحت لكِ بالهروب، فسيزول الخطر، لكنني أخطأت. استغرق سكان هذه القرية سنوات ليثقوا بإيري. وإذا علم الريكي أنه وفيسك يكذبان بشأن هويتك أو أنهما يحاولان مساعدتك، فسيقتلونهما. لن أخبر التالا أو أي شخص آخر. ستهربين بعد انحسار الثلج، وستعودين إلى الأسكا ولن نطاردك». عادت للحفر وبانت ملامح الألم الذي خالطه الخوف على وجهها.

قلت: «إنه لا يود الرحيل، لن يعود معي».

«أعلم».

«أنا...». ابتلعت كلماتي المخنوقة.

اعتدلت وسألتني مستوضحة: «ماذا؟».

«شكرًا... على ما فعلته من أجل إيري».

حين نظرت إليها مجددًا، كانت الدموع تترقرق في عينيها، فأجبت: «على الرحب والسعة».

أتى صوت هالفارد: «أمي!».

ركض نحونا عبر المرج ووقفت إنجيه بسرعة، ممسكة تنورتها. «هالفارد؟».

«إنها جيدا!». قفز هالفارد صعودًا وهبوطًا، يلوح لها بيديه ليدعوها إليه.

اتسعت ابتسامتها وقالت: «حان الوقت.» مدت يدها لي.

غمرني التردد وأنا أنظر إليها وإلى أصابعها الناعمة والنحيلة الممدودة لي، وتلك الابتسامة العريضة على وجهها.

رفعت يدي وكدت أسحبها قبل أن تأخذها. جذبتني بجوارها، وأخذت تزيل العشب عن سروالي، كما تفعل الأم مع طفلتها.

«هيا بنا». رفعت السلة على ذراعها وشرعت تسير نحو الأشجار الكثيفة.

مع كل خطوة تخطوها، كان فستانها الطويل يفسح طريقًا في العشب الجاف الطويل، وذراعها تتأرجح بجانبها وهي تركض وراء هالفارد، وشعرها الداكن الطويل ينسدل على ظهرها في ضفيرة واحدة متشابكة.

لا تهم رغبتي في التغافل عن الأمر أو محاولاتي العسيرة لأضع نصب عينيّ ما تعلمته منذ الصغر. كانت إنجيه أمًّا بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وبغض النظر عن اختلاف الدم، كانت تحب إيري كأنه فلذة كبدها.

أخذت أراقب من الباب الأمامي، عبر الطريق إلى منزل جيدا، حيث كانت إنجيه ورونا في الداخل. لقد استمر المخاض لساعات، لكنه كان أول طفل لجيدا، وقد تمكثان هناك طوال الليل.

انتهى هالفارد من تناول الطعام وصعد السلم تاركًا إياي وفيسك وإيري بجوار النار. أخذت سروال هالفارد ووضعته في حجري، وشرعت أرتق موضع تمزيق في الركبة.

قلت ويدي تمرر الإبرة في الصوف: «سأبقى حتى بداية ذوبان الثلج».

اعتدل إيري وهو يميل للأمام، فيما رمقني فيسك بنظرة خاطفة، وتباطأت نظرته للحظة واحدة.

رددت ما قلت مرة ثانية: «سأبقى حتى بداية الذوبان، ثم سأرحل إلى الديار».

أومأ إيري مبتسمًا: «حسنًا».

إذا لم تخبر إنجيه مخلوقًا، فليس هناك فائدة من المخاطرة الآن. سأتوارى عن الأنظار وأتجنب المشكلات، وسأعود إلى دياري وأواجه عاري بشجاعة المقاتل، وأحاول استعادة ما فقدته، في نظر سيجر.

دلفت رونا من الباب، محمرة الخدين؛ من البرد، وجلبت صندوقًا خشبيًا من الرف. ملأت طبقًا بالحساء الذي تناولناه للعشاء وناولتها إياه.

ترددت قليلًا ونظرت إليه، ثم إلى إيري. أخذت الطبق مبتسمة. «شكرًا لكِ».

عدت للجلوس، واستأنفت رتق السروال، وأنا أشعر بالحرج. لم أفكر في الأمر، بل فعلته تلقائيًا.

أمسك إيري يدها أثناء مرورها وجذبها نحوه: «هل كل شيء على ما يرام؟».

ابتسمت ولمست أنفه بأنفها. «لم تلد بعد»، ثم أفلتت أصابعها من يده ومضت للخارج.

علا غطيط هالفارد في العلية، بينما جلس فيسك وإيري أمام النار يصلحان طرفي الشبكة، كنت أستمع إليهما، وهما يتحدثان عن رحلة الصيد التالية، وموسم القتال التالي، والزيارة التالية لتجار الريكي؛ كانا يضعان الخطط.

ستستمر حياة الجميع حين أرحل، وسأتلاشى مثل كدمة أو ذكرى أو كخيط دخان.

دهن فيسك المرهم على الجلد المتشقق على مفاصله، والذي ظهر بعد زيارته لثورب. ومررت أصابعي على الجرح في ذراعي، وأحسست بالوخز الذي شعرت به حين لمسني، وغمرني الدفء الشديد بجانب النار.

ارتفعت من الخارج صرخة، فاعتدلنا جميعًا. ران الصمت على إيري وفيسك، وقفت، ونظرت خارج الباب، إلى القرية المظلمة، لكنني عجزت عن رؤية شيء، وعاد الهدوء مجددًا.

انحنيت على عتبة الباب وقلت: «ربما كانت جيدا».

استرخى إيري في مقعده، وألقى قطعة حطب أخرى نحو النار. «إيلين بارعة في صنع الشباك».

نظرت إليهما وتساءلت: «ماذا؟».

«نحتاج إلى شبكة جديدة. هل يمكنك صنعها؟».

نظرت مجددًا إلى خارج الباب، وتذكرت جلوسي على الرصيف بحبل مالح بين يدي؛ أربط العقد وأصلح الخيوط الممزقة، بينما إيري ينظف الأسماك بجواري. أومأت بالإيجاب.

دوت صرخة أخرى فقفز إيري وتجمَّد في مكانه وهو يصغي.

تبعتها صرخة ثالثة، ثم رابعة.

كنت أعرف ذلك الصوت، كنا جميعًا نعرفه. صراخ في منتصف ليلة صافية، وخشب يتكسر، وصليل معدني.

لا شك أنها غارة على القرية.

السادس والعشرون

بمجرد أن طرأ لي ذلك الخاطر، دوّى جرس الإنذار عاليًا في دار الطقوس، فهبَّ إيري وفيسك سريعًا، وذهبا لإحضار أسلحتهما المعلقة على الحائط.

واربت الباب، وأخذت أختلس النظر للخارج، ولم أرَ سوى توهج النار في بيت جيدا عبر الطريق، وحين استدرت، وجدت فيسك يمد يده بأسلحتي نحوي؛ سيفي وبلطتي وسكيني.

حملقت إليهم فاغرة الفم.

جاء صوت هالفارد النعسان والمتردد من العلية: «فيسك؟».

دفع الأسلحة إلى يدي، فأمسكت بها وضممتها لصدري، وتدفق داخلي بهدوء ذلك الشيء الثابت والمؤكد الذي أعرفه؛ نداء القتال. دوى الصفير مجددًا وارتفعت الجلبة، واقتربت. نظر فيسك إلى الباب ثم إلى هالفارد.

مررت جراب البلطة فوق رأسي وشددت الأشرطة وقلت: «اذهب، سأبقى معه».

نظر إليّ ثم إلى هالفارد، وقال: «اذهبي إلى جيدا حين يكون الطريق خاليًا». انتظرني حتى أومأت بالموافقة.

مضى إيري إلى الباب، ووضع سكينه في حزامه، وأمسك بلطة في كل يد. ازدردت ريقي، واستدرت للنار. تسللا للخارج في الظلام، وسمعت المزيد من صدى الصرخات والجلبة التي تمتد في أرجاء القرية.

ضبطت البلطة على ظهري فمنحتني الإحساس بالارتكاز، وأعادتني مجددًا إلى ذاتي القديمة، في حين أمدني الشعور المألوف بسيفي على خصري بالثبات.

اختلس هالفارد النظر من فوق حافة العلية، وتساءل وعيناه مغرورقتان بالدموع: «ماذا يحدث؟».

لم يكن ثمة فائدة من محاولة بث الطمأنينة في قلبه. كان يعرف معنى الغارة، سألته: أين أسلحتك؟».

غاب ثم هبط السلم بعد بضع دقائق، وجراب البلطة معلق على ظهره. ومضى إلى الصندوق بجوار الحائط، وأخرج حزامًا به سكين.

سلَّمني إياه قائلًا: «كانت لوالدي».

لففت الحزام حول خصره، وربطت طرفه في عقدة لأنه كان طويلًا جدًّا، لكنه سيفي بالغرض، وسيتمكن من الوصول إلى السكين، وذلك هو المهم.

جثوت على ركبتي، ونظرت إلى عينيه مباشرة.

«هل قتلت أحدًا من قبل؟».

هز رأسه بخجل نافيًا.

«أتعرف كيف؟ أين توجه ضربتك؟».

«أنا... أظن ذلك».

«أرني».

رفع يده الصغيرة المرتجفة ضاغطًا على رقبتي، فأومأت، ثم أشار إلى بطني، وجانبي، وأسفل ظهري.

قلت محاولة الابتسام: «صحيح. أيهما تجيد: السيف أم السكين؟». أعلم أنه لا يجيد استخدام البلطة. لقد رأيت ذلك.

رفع ذقنه مجيبًا: «السيف».

«حسنًا، خذ نفسًا عميقًا وانتبه إلى ما سأقول».

أطاعني، وأخذ نفسًا بطيئًا، واعتدل مستقيمًا في وقفته.

«في غضون لحظات، سيدخل أحدهم من ذلك الباب. وسيحاول قتلنا أو خطفنا، لكنني سأقتله قبل حدوث ذلك».

أومأ متأهبًا.

«إذا قتلوني أو أخذوني، فستكون مهمتك هي قتلهم. هل فهمت؟».

«نعم».

ثم أخبرته بالكلمات التي قيلت لي ذات مرة، في ليلة وفاة أمي: «اركض إلى الغابة. ولا تتوقف حتى الصباح مهما حدث».

تردد في رأسي صدى صرخات أعادتني إلى كابوس تلك الليلة في هيلي، حيث كنت أجري حافية القدمين بين الأشجار. وإيري يتقدمني، بينما كان صوت والدي العميق والهادر خلفي: اهربا!

تفرس هالفارد في وجهي وقال: «حسنًا».

قلت وأنا أؤكد له: «لا تحاول مساعدتي، ولا تعد لإنجيه أو فيسك أو إيري، اركض واتركهم وراءك».

لقد صرت محاربة في الليلة التي سحبني فيها إيري إلى الغابة. وإذا نجا هالفارد، فستكون هذه هي الليلة التي يغدو فيها محاربًا أيضًا.

اغرورقت عيناه بالدمع مجددًا.

وقفت قائلة بلهجة آمرة: «لا تبكِ. إذا مت الليلة، فسترى والدك في فريدزر. أليس كذلك؟».

لاحت ابتسامة بين دموعه المنهمرة: «بلى».

صرّ الباب فعلا وجهه ملامح الفزع، واتسعت عيناه في رعب. استدرت ووقفت أمامه، واستللت ببطء سيفي من غمده.

ظهر رجل عند الباب المفتوح.

عرفته على الفور. كاد السيف يسقط من يدي، بينما توقف قلبي عن الخفقان. واجتاحتني نيران الخوف، وحاولت التنفس، وطرفت بعينيّ.

فراء ملساء ولامعة، وبريق فضي، وعينان بيضاوان جامدتان.

الهيريا.

تفحصته سريعًا بعينيّ. كان شعره الطويل المتشابك ينسدل حول وجهه الذي يحدق إليّ ببلادة. حدقت إلى السيف بيده وتراجعت ببطء.

صاح وعيناه ترمقان الطوق حول عنقي: «إنها مجرد جارية».

ظهر رجل آخر خلفه، واختلس النظر إلى الداخل، ثم اختفى.

قلت بهدوء محاولة السيطرة على انفعالي: «تراجع، يا هالفارد».

أطاعني وتحرك نحو الحائط عند الجانب الآخر للنار، ممسكًا سيفه الصغير.

تقدم رجل الهيريا خطوة نحونا، فاندفعت الدماء بسرعة في عروقي؛ ووصلت إلى كل عضلة. راقبت حركاته بعناية، وثبتُّ قدميّ وضبطت توازني. تفحص ببصره المنزل، وكانت عيناه تستعرضان ما سيسطو عليه ومَن سيقتله.

راقبته، وتحينت اللحظة.

أخذتُ نفَسًا.

أخرج سكينه.

نفَسان.

تقدم خطوة أخرى.

ثلاثة أنفاس.

انقض عليّ، فمددت يدي نحو الوعاء على النار، ممسكة به من المقبض وقذفته نحوه. اصطدم بصدره فأوقعه، وأطلق صيحة ألم مدوية، إذ أحرق الحساء الساخن جلده الملطخ بالتراب. انزلق على الأرض الحجرية المبللة، يحدق إليَّ بذهول.

ثم شرع يتحرك مرة أخرى. أحكمت قبضتي على السيف، وانتزعت بلطتي بينما ينهض، واستخدمت قوة الدفع لأطوحها كي تضرب سترته المدرعة، لكنه لم يتزحزح، وسيفه يرتفع فوق رأسي. طوحتها مرة أخرى، هذه المرة نحو ساقيه، وانطلق نحوي. سقطت على الأرض، وأفلت السيف، وانزلقت البلطة، مرتطمة بالحائط بجوار هالفارد. اندفعت نحوها، والمزيد من الصرخات تتردد في الظلام.

ربما كانت لرونا، أو إنجيه.

صاح هالفارد خلفي: «إيلين!». فتدحرجت وانزلق السيف على الحجر بجواري، مرسلًا شرارات تتطاير من حولنا. أمسكت البلطة، واستقمت، وأرجعتها للوراء فوق رأسي. انفجر الألم الممض في كتفي مرة أخرى حين طارت في الهواء واخترقت فخذ الرجل، وسقط سيفه على الأرض بصوت مجلجل.

وثبتُ سريعًا حتى أصل إلى السيف قبله، ثم التقطته وأغمدته في جانبه وأنا أصيح، فتكور على نفسه صارخًا، وظهر الهيريا الآخر عند الباب مرة أخرى، وأخذ ينقل بصره بيني وبين الرجل الذي يتلوى على الأرض.

ركض نحونا، وقد استل سيفه. فرفعت البلطة من ساق الرجل وألقيتها. دارت في الهواء حتى انغرزت بين ضلوعه. كانت رمية سيئة، لكنها أصابته. سقط على ركبة واحدة، وحاول الوقوف، فهرعت نحوه، وأمسكت السيف الملقى على الأرض، وأغمدته في أحشائه.

أمسك بي، والدماء تنبجس من فمه، وتشبثت أصابعه المتغضنة بملابسي وتهاوى فوقي. ركض هالفارد نحو الباب، وأغلقه بقوة، وساعد على زحزحة الرجل جانبًا. وقفت ألهث والدماء تقطر من يدي.

أمسكت بلطتي وسيفي.

نظر هالفارد إليّ بعينين متسعتين وسألني: «هل أنتِ بخير؟».

أومأت برأسي، وعدت إلى الباب. تأججت النيران في القرية والتهمت البيوت. ما زال باب جيدا موصدًا. وكانت الغابة قاتمة السواد، لكن كان بوسعي رؤية صف الأشجار. أخذت الأفكار تصطرع في عقلي. يمكنني الركض نحو الأشجار وبلوغ النهر. كان الظلام يعم الأرجاء، لكنها كانت فرصة سانحة قد لا تتكرر، فلن يتتبعني أحد، بل لن ينتبهوا من الأساس.

كان وجه هالفارد شاحبًا من الرعب وهو يتطلع إلى النيران المتأججة في المنازل على طول الطريق. قد ينجح في الوصول إلى بيت جيدا، كان منزلها صغيرًا وتصعب رؤيته في الظلام، وربما لن يلاحظوه، لكن حلقي جفَّ من الفكرة، وزحفت القشعريرة على ظهري. صحت متذمرة، وقبضتي تضغط بقوة على السيف. حتى لو وصل هالفارد، فلن يستطيع كيرلينج حماية الآخرين.

لا يمكنني أن أتركهم الآن.

قلت: «هيا». ثم ضممته ولففت ذراعي حوله، وفتحت الباب بقوة وانطلقنا في الظلام، شاهرين سيفينا.

أنار ضوء النيران من المنزل الثلج أمامنا، وتقدم ظلٌّ من الأشجار. دفعت هالفارد نحو الضوء القادم من بيت جيدا، وأرجعت ذراعي للخلف ثم وجَّهتها بسرعة إلى الأمام، وأغمدت السيف في جسد امرأة من الهيريا، ودفعتها للأرض، وعيناي تراقبان هالفارد.

صاح بينما سمعت وقع أقدام خلفي: «إيلين!».

استدرت وطوحت بلطتي حولي فسقطت عليها امرأة أخرى وتعثرت على الأرض، بينما تألقت أشعة القمر على درعها الفضية. سحبت البلطة وأغمدتها مجددًا في ظهرها. ظهر هالفارد في تلك اللحظة، وكاد يصطدم بي.

ركض أمامي وعندما تعقبنا رجل آخر، توقفت فجأة، وانحنيت ليسقط من فوقي. تدحرج على الثلج، وطار سيفه، وضربني رجل آخر من الخلف. دفعت سيفي للخلف، ثم أصبته في بطنه؛ لكن الرجل الآخر هبَّ على قدميه مجددًا. ولم يسعفني الوقت.

ركض الرجل نحوي، فأغلقت عينيّ، وأنا أتكور على نفسي، وقد أحسست بالموت يزحف سريعًا.

لكن الضربة لم تأتِ قط. سمعته يسقط على الأرض أمامي. وفتحت عينيّ لأراه منكبًّا على وجهه، وثمة سكين مغروسة في مؤخرة عنقه. ومن خلفه وقف هالفارد، ويده ما زالت مرفوعة من الرمية.

صرخت بينما أنهض مجددًا: «اهرب!».

ولم يكد يستدير حتى اصطدم به رجل من الهيريا، ولف ذراعيه حول جسمه ورفعه وركض، بينما يتمايل هالفارد بين ذراعيه.

صرخت: «هالفارد!»، وانغرزت قدماي في الثلج العميق بينما أركض.

لكن الهيريا كان قد تقدمني، متحركًا بسرعة. وعندما وصل إلى الأشجار، حركت ذراعيّ بقوة. كنت أفقده في خِضم الفوضى؛ إذ أخذ المزيد من الهيريا ينسحبون إلى الغابة.

استدرت نحو القرية، وزاغ بصري بين الجثث الملقاة هنا وهناك. صرخت: «إيري!». كان من المستحيل أن يسمعني أو أن يكون قريبًا. صرخت مرة أخرى: «فيسك!»، وشعرت كأن رئتيّ تنفجران.

ترددت من خلفي صرخات هالفارد في الظلام.

دق شيء في أعماق صدري؛ وأخذ يطحن ويتكسر، كانهيار جليدي كاسح، شيء يائس وغاضب كاد يمزقني.

أمسكت يد بي والتفتُّ، وطوحتُ بلطتي. انحنى فيسك.

تنفّست الصعداء، وأسقطت البلطة على الأرض، وأمسكت سترته وصحت: «لقد أخذوا هالفارد!».

نظر إلى وجهي، يحاول أن يفهم ويستوعب ما أقول ثم صرخ: «لا».

لم يتبق في صدري طاقة لأشرح له، فأشرت إلى الأشجار.

التقط بلطتي ووضعها مرة أخرى في يدي. ودون تردد، أخذ يركض بين الأشجار، وجريت خلفه. وكان الثلج يخف تحت أقدامنا إذ ننحدر. لم يأتِ أحد من الريكي خلفنا، وعلمت أن ذلك يعني أن الوضع كان كارثيًا في القرية؛ ما جعل الهيريا يغادرون أحياء.

لحقنا آخر مجموعة منهم، بخطوات رشيقة، وظللنا منخفضين نحو الأرض. ألقى فيسك سكينه على الرجل الأول فاخترقت حلقه وسقط، وتوليت أنا أمر الثاني، وانزلقت على الأرض المتجمدة حينما طوح بسيفه نحوي. انحنيت إلى الخلف وطعنته بين لوحيْ كتفيه، فسقط على جانبه. وحين استدرت أبصرت فيسك يصرع رجلًا آخر على الأرض.

بعد بضع دقائق اقتربنا من جماعة منهم تتحرك عبر المنحدر المغطى بالأشجار، وتربصنا بين الأشجار الكثيفة، محتميين بالظلام. كانوا يمشون في صف طويل، وستراتهم المدرعة تلمع تحت ضوء القمر.

توقفنا جاثمين وراء شجرة ذابلة ومتعفنة، وطفقنا نراقب منها. كان الهيريا يجرّون الأسرى من الريكي بحبال مربوطة حول أعناقهم كالحيوانات. لعنت بصوت خافت وحاولت تمييز جسد هالفارد، لكن كان هناك الكثير من الهيريا ولم أستطع رؤيته. سمعت صهيل حصان فوجهت بصري إليه في نهاية الصف. كان هناك ثلاثة أشخاص يُسحبون خلفه، أحدهم يُجر. نهضت على ركبتي، واتسعت عيناي.

تساءل فيسك بأنفاس ثقيلة: «هل بوسعك رؤيته؟».

تشبثت أصابعي بلحاء الشجرة. «أظن أنه الشخص الصغير وراء الحصان، لكنني لست واثقة».

قال بصوت متحشرج: «لا أستطيع رؤيته، ربما...».

«إذا أرادوا قتله، لفعلوها في فيلا. إنك تعلم أنهم يأخذون بعض الأسرى في غاراتهم».

لكنه يعرف السبب أيضًا، وإذا صحت الشائعات عنهم، فإنهم يضحون بهؤلاء الأسرى. لقد وجدنا جثثًا مستنزفة الدماء في الغابة بعدما أغاروا على هيلي.

نظر إليّ، وأبصرت الفكرة نفسها ترتسم كالعاصفة على وجهه. أخرج نفسًا طويلًا، وأراح جبينه على الشجرة، وأغلق عينيه؛ من الجزع والألم.

همست: «يمكننا الوصول إليه، لكننا لن نتمكن من إنقاذ الآخرين، فهناك الكثير منهم».

نظر إلى طبقات الثليج المتكاثفة وهو يفكر: «سنحرر هالفارد، ثم نعود للآخرين فيما بعد».

أومأت موافقة: «وبعد ذلك سنبيدهم عن بكرة أبيهم».

السابع والعشرون

ظللنا متواريين، ونحن نتجه شرقًا، ونهبط المنحدر، في خط موازٍ للهيريا أثناء توغلهم في الغابة. تسلل البرد عبر درعي بينما نزحف ببطء، وأبقيت عينيّ على هالفارد، الذي يجره الحصان الأسود في مؤخرة المجموعة. وعندما انفصل الصف وتخلفوا عنه قليلًا، توقفت وأشرت في الاتجاه الأيمن.

تسلل ضوء القمر عبر الأشجار، وأضاء سريعًا وجه هالفارد. كان أنفه يبدو مكسورًا، وسيل من الدماء يُغرق قميصه. أجفلت حينما شعرت بلسعة في عينيّ. ربما كان ذلك أول كسر يُصاب به، وربما كانت أول تجربة يحتك بها مباشرة ليعترك الحياة وما فيها من عنف وصراع مثل بقيتنا.

توتر فيسك بمجرد أن رأى أخاه، وكاد ينطلق نحوه، فأمسكت ذراعه، وجذبته للأسفل، لكن جسده كان مشدودًا، وعيناه متوترتين، وقد تغيرت معالم وجهه، فهوى قلبي بين قدميّ. كان خائفًا، وكان خوفه هذا غريبًا عليه.

تشبثت أصابعي بذراعه، وضغطت عليها، فثاب إلى رشده، وأبعد عينيه عن هالفارد ونظر إليّ. تراجع، وتباطأت أنفاسه، فأبقيت نظرتي عليه حتى علمت أنه لن يندفع على المنحدر شاهرًا سيفه.

كنا بعيدين عن هالفارد بمسافة مناسبة سمحت لنا رؤيته إذ يحاول جاهدًا مواكبة الحصان. كان يتعثر على طول الطريق، وأصابعه منزلقة في الحبل الملتف حول عنقه، لمنع العقدة المنزلقة من الانغلاق. إذا سقط، فسيختنق.

كانت هناك امرأة مقيدة بجانبه، وبجوارهما جثة ملطخة بالدماء تُجر على الأرض. أيًّا كان صاحبها، فقد فارق الحياة.

لازمنا السكون والصمت.

بحثت عن حجر في الأرض، ووجدت واحدًا بحجم كف يدي، ووقفت.

أمسكت يد فيسك بمعصمي، ومنعني قائلًا: «سأذهب أنا».

همست: «سأحضره أنا، يا فيسك». كنت أسرع وأصغر حجمًا، ويصعب رؤيتي. أما إذا خرج هو من وراء الشجيرة، فسيلاحظونه على الفور.

نظر إليّ لهنيهة ثم تركني، ورفعت قدمًا واحدة، وتحركت ببطء، متجنبة بقع الضوء على أرض الغابة. وتبعني فيسك ويده تضغط على ظهري.

تحركت الغيوم وأظلمت الغابة من جديد عندما اقترب الحصان منا. أخرج فيسك السكين من حزامه، وانخفض، ورفعت الحجر في يدي. وبمجرد أن مرت المجموعة التالية من الهيريا، أرجعت ذراعي إلى الخلف وطوحت بالحجر، فانزلق على أغصان الأشجار، كأنما يثب على الماء. وعبر أمام الحصان، فرفع حافريه الأماميين، ونفخ منخريه.

كان هالفارد يستند إلى شجرة، وتحرك الحصان بتوتر، بينما واصل الهيريا التقدم. أخرجت سكيني.

تقدم اثنان من الهيريا كانا يسيران خلف الأسرى، فأخذ أحدهما الزمام وطقطق بلسانه لتهدئة الحصان، ثم أومأ نحو جثة الريكي الملقاة على الأرض: «افصلها».

تقدمت خطوة حين أطاع الرجل الثاني، وانحنى ليقطع الحبل بشفرة البلطة. خشخشت الحبال وانحرفت لليسار، ودرت حول الحصان عبر الطريق المظلم. وكان الهيريا لا يزالون يتحركون أمامنا أسفل المنحدر.

انقضضت بسرعة على جانب الرجل الأول، فلم يسعفه الوقت لفعل شيء. وقفزت وطوقت رقبته بذراعي وحززت عنقه بالسكين حتى انبجست منه الدماء، وجندل فيسك الرجل

الآخر بجانبه، ولم تكد عينا هالفارد تقع علينا في الظلام حتى شرع يبكي.

كان المزيد من الهيريا قادمين.

وصلت إليه وأمرته: «صه!». ثم قطعت الحبل بحركة واحدة ودفعته نحو فيسك، الذي رفعه وطفق يصعد السفح، والصبي يلف ذراعيه وساقيه حوله.

ثم رأيتها.

تقف على الطريق، وحبل يلتف حول عنقها. كانت التالا تراقبني. توقفت، ونظرت حولنا. كانت الغابة هادئة باستثناء وقع أقدام تقترب لثلاثة من الهيريا. كانت تقف هناك، كأنما تعلم ما سأفعله. تمنيت لو أتركها مربوطة بالحصان مثلما تركتني، حتى تصبح الجثة التالية المجرورة على أرض الغابة. أردت أن أقتص منها. ولكنني أبصرت في عينيها نظرة هادئة ذات مغزى. كأنما كانت تنتظرني.

ودون تفكير قلبت السكين في يدي بحيث يكون المقبض نحوها، وألقيتها لها، فأمسكت بها. واستدرت على عقبيّ، وبصرها يتابعني. وبعد بضع ثوان، سمعت وقع قدميها خلفي، بينما ألحق فيسك على المنحدر.

انخفضنا مجددًا، وراقبنا الرجال يلمحون الحصان. وحين علت أصواتهم، مددت يدي نحو التالا، فوضعت السكين فيها. ارتكزت على ركبتيَّ، كي ألتقط أنفاسي، ودفعت كتفيّ، ثم رفعت السكين أمام مرمى بصري. وصوبت، وتريثت، ثم أرجعت ذراعي للخلف، وسددتها للأمام بقوة.

طارت السكين مثل الريح، حتى اخترقت ظهر رجل على جهة اليمين، فسقط منبطحًا على وجهه، وتوقف الآخر، ورفع رأسه إلينا، ثم فر مبتعدًا.

انزلقت على المنحدر، وسحبت السكين من ظهر الرجل الأول، ثم تتبعت ببصري الثاني.

ثم توقفت كل الأصوات. وران الصمت.

لم أسمع إلا أنفاسي تهدر في أذنيّ، ودارت الأشجار حولي. ضيّقت عينيّ، في غير تصديق، وحاولت التركيز. لكنه بالتأكيد كان مقبض سيف الأسكا. والجلد المشوب باللون الأحمر لغمد سيف الأسكا، وهذا لا يعني سوى شيء واحد؛ لقد هاجم الهيريا المضيق.

لم أفكر، لم أتنفس، بل ركضت دون وعي.

حشدت قوتي وألقيت جسدي إلى الأمام في اتجاه الأشجار نحو الظل الهارب. وأثناء ركضه التفت يراقبني وأنا أقترب منه، ثم فقد توازنه واصطدم بشجرة. تدحرج حين انقضضت عليه وثبته بركبتيّ، وأمسكت شعره ليواجهني.

همست بصوت مبحوح مذعور: «من أين حصلت على ذلك السيف؟».

نظر إليّ وكزَّ على أسنانه.

ضربت رأسه بالأرض فتأوه وأنا أصرخ: «من أين حصلت عليه؟».

وصل إلينا فيسك والتالا. لم يكن هناك أحد على مرمى البصر، لكن إذا صرخ، فإن الهيريا قد يسمعونه.

لن أستطيع قتله، ليس بعد.

وبعزم قوتي ضربت جانب رأسه بمقبض السكين، فهمد جسده، ومال رأسه جانبًا.

قلت بتلعثم وحلق جاف: «هذه... جلود الأسكا».

قال فيسك: «أعلم». وأنزل هالفارد، فوضعت التالا ذراعها حول كتفيه، وجذبته نحوها. أضاف فيسك: «سنأسره».

أمسك بساق، ومسحت وجهي ثم أمسكت الأخرى. جررناه عبر الغابة، وكان يتقدمنا التالا وهالفارد.

قلت بأنفاس لاهثة من وزن الهيريا: «لقد هاجموا المضيق».

«ربما».

وقبل أن أتمكن من الرد، وصل إلينا صوت فيلا عبر الأشجار.

شقت أشعة الشمس طريقها وانعكست على قمة الجبل، ومحت معها ظلمة اليوم السابق للقرية المكتسية بالحزن والأسى. كان الدخان ما زال يتصاعد من بعض المنازل المحترقة، بينما تنتشر الجثث على طول الطريق الرئيسي. وبين كل بضع خطوات، كانت بقع الدماء القانية على الثلج.

نظرت التالا خلف كتفها إلى فيسك، وافترقت شفتاها.

جررنا الهيريا حتى اقتربنا من المنزل، وازدردت ريقي بصعوبة. كان هادئًا ولم أعرف معنى ذلك، ولم أدر تأثيره عليّ. كانت الدنيا تدور من حولي، فداخلني شعور بالهشاشة. كأن جسدي سيتمزق إلى شطرين.

أسقطت ساق الهيريا ودفعت الباب بقوة. خدشت صرخة إنجيه الصمت. واندفعت إلى الأمام تعانق هالفارد، وسقطت على الأرض. كان وجهها مشوهًا ومليئًا بالكدمات، واستطعت بصعوبة التعرف عليها.

جالت عيناي في جميع أنحاء الغرفة حتى وجدته.

إيري.

كان يقف عند طرف الطاولة، محمر الوجه، عيناه مغرورقتان بالدموع، بينما تلتصق خصلات شعره.

أجهشت بالبكاء وركضت إليه. سقطت على صدره وطوقني بذراعيه بقوة، ورفعني عن الأرض. حاولت التنفس ببطء كي يهدأ قلبي.

أفلتني واقترب من فيسك وعانقه ولثم خده، وكان وجهه يموج بالانفعالات. «ظننت... ظننا...». هز رأسه مضيقًا: «لم نتمكن من العثور على جثثكم».

كانت رونا منكمشة على الجدار خلفنا، وقد جذبت ركبتيها إلى صدرها. أخذت تحملق بعينين خاويتين في النار، والدموع تنساب على وجهها المغطى بالغبار والطين.

كانت إنجيه ما زالت جالسة على الأرض، وذراعاها تطوقان جسد هالفارد، وتبكي على شعره. همست في أذنه فأومأ وكفكف دموعه. تجمعت تحت أنفه الدماء الجافة، وأحاطت برقبته حلقة من الجلد المتقرح مكان الحبل. وحين أبعدته عنها، تفحصت الجلد، وضغطت على كل جانب من أنفه بإبهاميها وهو ينظر إلى السقف. ظهرت تحت عينيه كدمتان داكنتان.

نظر إيري إلى الهيريا الملقى خارج الباب وتساءل: «ما هذا؟».

شهقت إنجيه، واحتضنت هالفارد بقوة.

مررت يدي خلال شعري، وحكت أظفاري بالجزء المحلوق. «لقد أغاروا على الأسكا».

انكمش وجهه واتسعت عيناه، وطرح السؤال الذي لم أجرؤ على إجابته.

انحنيت على الطاولة، وفركت وجهي بيدي الخشنتين المتقرحتين، وأجلت بصري في الغرفة، بينما تشنجت عضلاتي. كانت الدماء لا تزال تندفع بسرعة تحت جلدي، إنها الطريقة التي يهدأ بها جسدي ببطء بعد المعركة، والطريقة التي يعدو بها عقلي في شتى

الاتجاهات، محاولًا إيجاد شيء للتشبث به. ومع أنفاسي العميقة عاودني الشعور بالألم في جميع أوصالي، فسحبت سترتي المدرعة جانبًا لألقي نظرة عليها.

في النهاية، تركت إنجيه هالفارد ونهضت قائلة: «دعيني أرَ».

كانت رونا تجلس صامتة مستندةً إلى الجدار.

التقت عينا إنجيه بعينيّ، وهمست: «والدها».

اضطرب قلبي، وحامت فكرة وحيدة سوداوية في عقلي؛ والدي؛ الأسكا.

وضع فيسك يده على كتف إنجيه وقال: «عليكِ الذهاب إلى دار الطقوس، فالجرحى سيكونون هناك».

كانت عيناي تراقبان حذاء الهيريا في المدخل.

أومأت إنجيه ونظرت إلى رونا قائلة: «أنت على حق».

وقفت رونا بعينين خاويتين، ومضت تجلب السلة على الطاولة ووضعتها على ذراعها، وصوبت نظرة فارغة نحو الباب، تنتظر. لكن إنجيه لم تتحرك حتى نظرت إليها. انتظرت حتى رفعت بصري، فاحتضنت وجهي بكفيها، وضغطت خدها الدافئ على خدي، ولامست أنفاسها جانب وجهي. ضمتني، وطوّقتني بذراعيها، وجذبتني بقوة نحوها.

همست لي ومشاعر الامتنان تجتاحها: «شكرًا لكِ».

تصدع الجليد الكثيف في أعماقي وانهارت طبقاته ليتلاشى متحولًا إلى ينبوع من المشاعر تتدفق في ثنايا قلبي، فأجبت: «لم أفعل شيئًا، هذا واجبي».

الثامن والعشرون

أرحت رأس هالفارد على حجري على الطاولة كي يعيد فيسك أنفه المكسور إلى موضعه. وحين انزلقت الدموع على وجهه، مسحتها بظهر يدي.

ساعده إيري على النهوض، وسحب القميص فوق رأسه، وعدت إلى المدخل، وأحصيت الجثث، بينما يسحبهم الريكي على الطريق ويفصلون بينها. كنت واثقة من أن جثث الريكي تفوق الهيريا.

وقفت أنتظر فوق رأس الهيريا الذي جررناه عبر الغابة. كان رجلًا ضخمًا وصلبًا، ملابسه متسخة وممزقة الأطراف. كانوا يسافرون لبعض الوقت، ويعيشون في ترحال مستمر، لكن جلود الأسكا لم تكن بالية. إذا كانوا قد أغاروا على هيلي، فقد حدث ذلك مؤخرًا.

«أمي لا ترغب في وجوده هنا، إنها خائفة». أخذ فيسك يفك حزام سترته، وهو يتألم ويحاول رفع ذراعه فوق النار.

مددت يدي نحوه: «تعالَ».

استدار وأعطاني جانبه، فأمسكت معصمه ورفعت ساعده فوق كتفي. وسحبت الأبازيم بهدوء، وفتحت جانب السترة، وانحنيت لأرفع قميصه من الجانب فوق ضلوعه.

جذب أنفاسًا ضيقة عندما ظهر تجمع دموي كبير داكن تحت الجلد. ورفعت يدي لأتحسس العظام بأناملي، فأعاد رأسه للوراء وأغلق عينيه. لقد قضيت شهرًا أعالج إصابة مشابهة في أورفانجر، قلت: «إن العظام مكسورة».

ولدهشتي ضحك قائلًا: «أعلم».

اعتدلت ونظرت إليه. لم أره يبتسم من قبل. كان جانب وجهه مسحوبًا، فكشف عن غمازة في زاوية فمه، فأشحت بنظري، واحمرت وجنتاي. أرجعت ذراعه مرة أخرى للأسفل، وحللت أبازيم الجانب الآخر من السترة، وساعدته على خلعها وأنا أوجه بصري بعيدًا.

قال بصوت هامس: «في الليلة التي وجدتك في الغابة...».

أمسكت السترة بين ذراعي وأنا أتساءل: «ماذا؟».

«كنت تصيحين: الهيريا».

سمعت صوت تأوه عند الباب وأبصرت القدمين وهما تتحركان.

وضعت السترة على الطاولة وخطوت ببطء، فيما سحبت السكين من حزامي. وحين أضاءت أشعة الشمس وجهي، وطئت الثلج وأنا أحدجه بنظرة لم أدرِ أثرها عليه.

تقلب وهو يمسك جانب رأسه النازف.

هتفت: «إيري!» وأنا أرى الهيريا يفتح عينيه.

خرج إيري من الباب، وسحب الهيريا من سترته على الأرض ليجلس.

انتظرت حتى يلتفت الهيريا إليّ، وقد تدلى رأسه، وعيناه كانتا تتفحصان ما حوله، حتى هبطتا على الطوق حول عنقي. خرج فيسك من المنزل، يدس يده أسفل جانبه المكسور.

جثمت بالقرب منه وقلت بهدوء: «من أين حصلت على درع الأسكا؟».

كان يصوب بصره بعيدًا عني، محاولًا تقدير فرصته في الهروب.

اعتصرت السكين بقوة في يدي. «من أين حصلت على الدرع أيها اللعين؟».

زم شفتيه، وأمال رأسه للوراء. بينما ارتسمت على فمه ابتسامة صغيرة.

رفعت ذراعيّ وأسقطتهما بقوة، فغاص نصل السكين في فخذه. صاح، وتلوى حين أخرجتها، ونظر إليّ والزَّبَد يتطاير من فمه محملقًا بدهشة.

صحت وأنا أميل النصل جانبًا لتتناثر الدماء على الأرض: «لماذا درع أسكا في حوزتك؟».

اندفعت أنفاسه من رئتيه بقوة وهو يعض شفتيه، ويحدق بغضب.

غرزت السكين بعمق مجددًا هذه المرة في الساق الأخرى. فصرخ بصوت أعلى، ولويت السكين. ثم سحبتها فمزقت الجلد والعضلات، واندفع نحوي. أمسك إيري سترته، وأداره ليستلقي على ظهره، وركعت فوقه، لكن الشراسة في وجهه لم تتراجع.

أمسكت شعره، وثبت رأسه بالأرض، وألقيت سكيني عند قدمي فيسك. ثبته إيري في مكانه وهو يتلوى تحتي، ويركل. كانت دقات قلبي أعلى صوتًا من وقع الأقدام خلفي. تجمع المزيد من الريكي في الطريق وهم يشاهدون، وعلت وجوههم أمارات الرعب. لقد سمعوا القصص، لكنهم لم يروا الهيريا وجهًا لوجه إلا في الليلة الماضية. بالنسبة للريكي كانوا مجرد أسطورة، أما أنا فكنت أراهم الشياطين الذين قتلوا أمي، ودمروا أبي إلى شظايا أحزان.

قبل أن يتلوى مرة أخرى، ضغطت إبهامي بقوة في الزاوية الداخلية لعينه، حتى شعرت بالعضلة الدافئة والأنسجة الرطبة. حاول أن يركل، لكنني جثمت عليه بكامل جسدي، وانتزعت إبهامي، وأخرجت العين من محجرها.

كان فمه مفتوحًا، والصرخة محبوسة في صدره.

صرخت، وأنا أضغط بإبهامي على العين الأخرى: «من أين حصلت على الدرع؟».

صرخ متألمًا: «لقد هجمنا على الأسكا!».

اعتدلت وقلت: «متى؟ متى كنتم هناك؟».

جلس، ممسكًا محجر عينه النازف بيديه المقيدتين. «قبل بضعة أسابيع».

سألته بصوت مهتز: «ماذا حدث؟».

عندما تردد، أمسكت سكيني وشققت لحم ذراعه. سقط على جنبه يحاول الزحف بعيدًا، بينما تصاعدت الأصوات خلفي.

«اقتحمنا ستًّا من قراهم على طول المضيق».

شقت الكلمات صدري كخنجر مزق أعماقي، فيما توقفت دقات قلبي.

قالت التالا: «وماذا عن الريكي؟ كم عدد القرى؟».

كانت تقف بجوار فيدر، زعيم قريتهم، أمام حشد متزايد. تمايلت السماء فوقنا، فهززت رأسي، محاولة تهدئة الأصوات الهادرة بداخله.

نظر الهيريا إلى يديه المضرجتين بالدماء. «أربع قرى للريكي. وفيلا هي الخامسة».

نظرت التالا إلى فيدر، وملامح الخطورة على كل ذرة من وجهها. إذا نجحوا في الإغارة على هذا العدد من القرى في أسابيع قليلة، فإن عددهم غفير. غمر الذعر عقلي فلم أسمع صوته المبحوح ينطق بأسماء القرى التي أغاروا عليها والتي لم يهاجموها بعد.

قال فيدر بلهجة آمرة: «أرسلوا الفرسان لتحذير الآخرين». وشرعت الأقدام تتحرك على الطريق. تقدم للأمام بالقرب مني ونظر إلى الهيريا وسأله: «أين معسكركم؟».

وقفت، محاولة التفكير بسرعة. بيد أن أفكاري كانت عالقة، ومرتبطة بصورة والدي؛ الدماء تغمر جثته الطافية على مياه المضيق الزرقاء الرمادية. التفت لمواجهة الريكي المجتمعين

خلفي، يراقبون. اختلجت يداي على جانبي، وفطنت إلى أن عين الهيريا ما زالت في قبضتي. كانت دافئة ولزجة. أسقطتها في الثلج، وسقطت سكيني من يدي الأخرى. أمسك إيري بها وعاد إلى الهيريا.

تقهقرت خطوة للخلف وتعثرت، لكن أحدهم أمسكني من مرفقي. رفعت رأسي فأبصرت فيسك واقفًا بجانبي، وسحبني برفق نحو المنزل. لسع الهواء البارد بشرتي الساخنة، وطرفت بعينيّ مرة أخرى محاولة التركيز، وفركتهما بيديّ المخدرتين. كان الريكي في الخارج يصيحون في غضب، يتعطشون للدماء والانتقام. وخمنت أن إيري ربما كان يجر الهيريا إلى دار الطقوس. سيعرفون منه مكان المعسكر ثم يعلقونه. وسيعذبونه.

نزع فيسك عني أدوات القتال وأنا أحدق إلى النار. كان يراقبني، فشعرت بأنني سأتحطم إلى شذرات كأنما كان ينتظر أن يرى ذلك.

همست: «يجب أن أذهب إلى الأسكا الآن. لا يمكنني الانتظار حتى ذوبان الثلوج».

كانت الصيحات في الخارج تتعالى أكثر فأكثر.

قلت مجددًا: «يجب أن أذهب».

«أعلم ذلك، سأذهب معك». لم يشح بناظريه، ولم تطرف عيناه.

حدقت إلى وجهه.

«لن تستطيعي هبوط الجبل قبل ذوبان الثلوج، ما لم يقم شخص بإرشادك، سأذهب معك، سآخذك إلى هيلي».

كان محقًّا فيما يقول، لكنني أردت أن أرفض وأسأله عن سبب عرضه. وتمنيت الهروب من فيلا بأقصى ما يمكن. تمنيت الفرار لأتحاشى ذلك الهمس العميق داخلي، حين ينظر فيسك إليّ مثلما يفعل الآن، ومثلما فعل عند النهر، وكأنه يخفي شيئًا لا أدري كنهه.

التاسع والعشرون

قالت إنجيه بلكنة يشوبها الحذر: «فيسك».

وقفا يواجهان بعضهما، وقد عقد كل منهما ذراعيه. لم ألحظ من قبل مدى تشابه ملامحهما حين تتبعتها بعينيّ. العيون التي تحفها الرموش السوداء، والشكل المربع للوجهين.

انحنى إيري نحو الطاولة، مراقبًا رونا التي غفت بجانب الحائط وولّت ظهرها للنار.

كرر فيسك: «سنأخذها إلى هيلي، ثم نعود إلى البيت».

نقلت بصرها بينه وبين إيري: «إنهم بحاجة إليكما هنا».

«سنعود لمواصلة القتال».

حدقت إنجيه إلى النيران لبرهة، وأنفاسها منتظمة. كانت لا تزال ترتدي الفستان الملطخ بالدماء، وملامح الإرهاق وعدم النوم بادية على وجهها، وشعرها ينسدل مبعثرًا حوله.

وقف فيسك بلا حراك ينتظر.

مدت يدها ولمست شفتيها بأصابع رقيقة، كدأبها حين تفكر. لم تنظر لي، لكن أفكارها كانت تنجذب نحوي؛ تتساءل وتتعجب.

تجاوزتهما، وصعدت إلى العلية. ما زال هالفارد غافيًا على سريره يلتحف بفراء الدب. وقفت، ووضعت يديّ على العارضة العلوية من السلم. كانت جيدا مستلقية على جانبها بينما كان كيرلينج منطويًا خلفها، ويطل عبر كتفها. كانت تحمل الوليد الصغير بين يديها، وتضمه إلى بشرتها العارية وتقبِّل رأسه.

كانت ملامح وجه كيرلينج قد تغيرت، فقد اختفت الكآبة من عينيه، اللتين لم تعودا ثقيلتين. نظرت جيدا إليّ وتجمدت، ورفعت قدمي لأهبط درجة. ولكن بدلًا من المرارة التي أبصرتها في عينيها في الأيام السابقة، وجدت رقة وهدوءًا في وجهها. وحين نظرت مرة أخرى إلى الطفل، ومرت بأناملها على شعره الداكن الناعم، دفن كيرلينج وجهه في ظهرها وأغلق عينيه.

لففت ضفيرتي حول مفاصل أصابعي، وتأملتهم جميعًا كأن كل ما مر لم يحدث: الهجوم، ومعركة أورفانجر التي أدت إلى فقدان ساقه. والنزاع الدموي الذي يحترق في قلوبهم تجاهي وتجاه قبيلتي، كل ذلك تلاشى في تلك اللحظة، لم تكن هناك سوى البداية، التي يحجب نورها كل شيء آخر. كانت جميلة لدرجة مؤلمة، تلمس كل جرح مكشوف داخلي.

هبطت بصمت السلم، وتركتهم في الضوء الخافت للعلية، وخرجت لأغتسل من الدماء وآثار أحداث أمس، كنت أسمع صوت جدال إنجيه والآخرين في الداخل، وأصوات الهمس تخترق شقوق الجدران.

غمرت يديّ في برميل الثلج المذاب، وآلمت لسعة البرودة جلدي. وظللت أفركهما حتى استحال الماء لونًا ورديًا. وتمايل انعكاسي على سطحه. كانت الهالات تظهر تحت عينيّ، وآثار كدمة على وجنتي ما زالت تلتئم.

رأيت إنجيه من الباب، تضع حقائب السرج على الطاولة وتحزم الأشياء. كان وجهها عابسًا، وشفتاها مزمومتين. يبدو أنها رضخت للأمر الواقع. ورغم أنني أردت ذلك، فإن شيئًا بداخلي ارتجف.

«جئت لأشكرك».

استدرت، ممسكة حافة البرميل، والماء ما زال يتساقط من شعري.

وقفت التالا على الطريق وهي تشبك يديها أمام ثوبها النظيف، كان شعرها معقوصًا فوق كتفيها، وعيناها الخضراوان تلمعان على وجهها المشرب بالحمرة، وأبصرت كدمات حول عنقها، مثل تلك الموجودة على عنق هالفارد.

أمالت رأسها جانبًا وتأملتني من قمة رأسي حتى أخمص قدميَّ وتساءلت: «لماذا ساعدتِني؟». عندما لم أجب، اقتربت وقالت: «أعلم أنكِ رأيتني تلك الليلة. عندما تركك ثورب تموتين في الغابة».

لم أحر جوابًا لأنني لم أعرفه. لم يكن لديَّ سبب لتقديم العون لها. ورغم ذلك ساعدتها، وليتني ما فعلت، فلن يعرف أحد أنني تركتها هناك.

افترَّ ثغرها عن ابتسامة. «عينا ثورا تتابعك، يا أسكا. لقد رأيتها منذ المرة الأولى التي قابلتك فيها».

قلت مذكرة إياها: «أنا لا أخدم ثورا، ولا تهمني مشيئتها، ولا أرغب في رضاها».

اتسعت ابتسامتها وقالت: «مثل إيري».

نظرت بطرف عيني إلى البيت، وتهيأت للدفاع.

«أخبرتني إنجيه هذا الصباح».

فغرت فمي وهوى قلبي بين قدميّ. لقد وعدتني إنجيه بأنها لن تفشي السر.

«عندما عدنا من الغابة، فهمت الأمر. وحين دلفتِ من الباب. أشعر بالغباء لعدم فهمي ذلك في وقت سابق. إنكِ تبدين تمامًا مثله، يا إيلين».

حاولت تحليل نبرة صوتها، وربطها بالنظرة الهادئة المرتسمة على وجهها.

لوحت بيدها نحوي وقالت: «لا تقلقي بشأن إيري. أظن أننا تخطينا ذلك الآن. سأتحدث إلى فيدر. لقد كسبت ثقتنا، وربما يمكننا الآن كسب ثقتك».

تساءلت وأنا أرمقها بنظرة حائرة: «ولماذا ترغبين في كسب ثقتي؟».

«إنكِ محاربة، وينبئني قلبي بأننا سنحتاج إلى كل محارب من هنا وحتى المضيق إذا أردنا ردع الهيريا عن العودة إلى هنا وإنهاء ما بدأوه».

ضحكت وقلت: «تريدون الأسكا إلى جانبكم؟».

«بالنظر إلى ما ستجدينه في هيلي، ربما لم يعد هناك جانبان».

اختلست نظرة خلفي نحو الباب وقلت: «كيف عرفت أنني سأذهب إلى هيلي؟».

«إنهم قومك». نظرت إليّ، وأبصرت في عينيها بعض الحنان الذي تقدمه للآخرين.

إنها تظن أن الأسكا اندثروا، أو على وشك ذلك.

«في الصباح، سنرسل أرواح الريكي إلى فريدزر، ثم سنغادر إلى القرية التالية. إذا رغبت في الذهاب إلى هيلي، فبوسعنا أن نأخذك حتى مور». مدت يدها ووضعتها على كتفي، فاجتاحتني مشاعر التوتر والقلق وأنا أنظر إليها.

رفعت ذقني وقلت: «سيصحبني فيسك وإيري».

صوبت بصرها مجددًا للوراء، نحو البيت. ليتني لم أنطق بذلك. كانت ثمة فكرة تجول في عينيها، ثم استقرت في مكانها، وصارت نظرة حكيمة ذات مغزى.

«ربما ستعودين مجددًا إلى الجبل بعدما تجدين ما تبحثين عنه». ضغطت يدها بلطف عليّ ثم رفعتها.

اشتعل الغضب في أعماقي من جديد، إذ هل تتوقع مني أن أمنح الريكي ولائي أو ثقتي لأنها تبتسم لي وتعاملني بلطف؟ أنا لست إيري.

قلت وأنا أنظر إليها مباشرة: «نبئيني عن الحلم الذي رأيتِه».

لمعت عيناها الخضراوان ثم رمقت البيت مرة أخرى.

ضيقت عينيها، وهي تفكر في الأمر: «رأيتك مع دب في الغابة». أمالت رأسها جانبًا مجددًا محاولة أن تعرف أفكاري.

حافظت على هدوئي، محاذرة ألا يفصح وجهي عن أي شيء قد تبحث عنه.

«إنكِ لا تفهمين». ثم مدت يدها إلى فتحة فستانها وسحبت قلادة من البرونز ذات سلسلة طويلة. وبسطتها على راحتها ومدتها لي. كان محفورًا عليها رأس دب، مثل الموجود على أبواب دار الطقوس. «إن الدببة مقدسة عند ثورا، فقد خلقتها قبل أن تخلق شعبها من صخور الجبل المنصهر».

ساد السكون للحظات، ثم لم تلبث أن قطعته قائلة:

«إنهم رسلها».

«إذا كنتِ تعتقدين أن ثورا تفضلني، فلماذا تركتِني في الغابة تلك الليلة؟ لماذا وليتِني ظهرك وابتعدتِ؟».

أطرقت بعينيها إلى السماء تفكر بعمق، ثم لم تلبث أن قالت: «كانت الطريقة الوحيدة لمعرفة ما إذا كنت على حق بشأنك، ولقد كنت على حق، لقد حفظتك ثورا».

«لم تنقذني ثورا، بل فيسك».

ابتسمت بسخرية وقالت: «صدقي ما تشائين، يا إيلين. الدب هو علامة». ثم أردفت والكلمات تخرج ببطء من بين شفتيها الرفيعتين: «وتلك العلامات لا شك تجلب التغيير».

الثلاثون

اصطف الريكي معًا في الصباح الباكر، وسط أجواء الصقيع البارد، بينما ندف الثلج تتناثر بهدوء في أفق السماء. وتمايلت ندف الثلج الصغيرة ذهابًا وإيابًا في طريقها للأسفل، بينما التهمتها ألسنة اللهب العظيمة التي تضطرم أمام دار الطقوس.

أنصت الجميع إلى التالا وهي تصلي من أجل الموتى من الريكي، وتطلب من ثورا أن تقبلهم وتحفظهم حتى ينضم أفراد عائلاتهم إليهم في الحياة الأخرى. لم يبُد على وجهها أي عاطفة أثناء الحديث. ورغم انطفاء بريق عينيها، فإن صوتها بدا واثقًا، كانت ثابتة وقوية. وشعرت بأن الريكي يستمدون منها القوة، ويتطلعون إليها بلهفة لتمنعهم من الانجراف في مهاوي الحزن والأسى.

لفحتنا حرارة النار، وابتلع أزيزها الهادر أيضًا العويل والنحيب. لقد سمعت تلك الأصوات مرارًا، ولا سيما حين نعود من المعركة وتبحث العائلات عن وجوه أحبائها المفقودين.

لم يضاهه أي صوت، كأن الروح تتمزق إلى شذرات متناثرة.

صاحت وهي ترفع ناظريها إلى السماء: «هيل بارا».

رددت شفاه الريكي الكلمات، وسمعت صوت فيسك العميق خلفي: «هيل بارا».

سفر آمن.

مرت التالا أمام المذبح، واتجهت إلى رجل كان يبكي، وقد تهدلت كتفاه تحت فراء كثيف. وهمست في أذنه فتباطأ نحيبه المكتوم، حتى هدأ تمامًا ثم نظرت إلى وجهه، وتركته لتنتقل إلى الشخص التالي.

كنت سعيدة لأنني لم أعرف ما فقد ومَن فقد.

أحرقوا جثث الريكي، وتصاعد الدخان الأسود في الهواء. كانت الأرواح في طريقها إلى فريدزر، لرؤية أحبائهم المفقودين. أغمضت عينيّ محاولة تنحية المخاوف التي تحوم في ذهني، وتساءلت عما إذا كنت سأبكي على روح والدي بعد يومين.

انفض جمع الريكي بعد أداء الطقوس، وبحثت عن إيري فوجدته يقف مع رونا، التي أخذت تحدق إلى اللهب، بوجه رمادي ووجنتين حمراوين، وقد تلامس ذراعاهما، بينما عانقت أختها الصغيرة ساق إيري بقوة.

تراجع المزيد من الريكي، وساروا ببطء في الطريق المؤدي إلى القرية، واتجهت نحوهم. انعكس ضوء اللهب الحاد في عينيْ رونا المتعبتين.

قلت وصورة والدي لا تفارق ذهني: «خالص التعازي».

أومأت، وهي تزدرد ريقها، ثم انحنت لترفع شقيقتها، وتلحق بوالدتها على الطريق. راقبهم إيري.

قلت: «يجب أن تبقى».

هز إيري رأسه: «لا أستطيع».

«يمكنني الوصول إلى هيلي. مكانك هنا، معها». وأشرت برأسي نحو رونا وأردفت: «سيتعين عليك أن تقاتل قريبًا، وقد لا تملك الكثير من الوقت لتقضيه معها».

تفحصت عيناه وجهي تبحثان عما لم أقله متسائلًا: «ما الأمر؟».

طوّقت جسدي البارد بذراعيّ مجيبة: «لا أعرف ما سيفعلونه بك. أقصد الأسكا. يجب أن أتحدث معهم أولًا».

أومأ متفهمًا الأمر، إذ لن نعرف ألبتة رد فعلهم إزاء حقيقة إيري.

انتظرت فيسك وإيري خارج دار الطقوس، وأخذت أراقب الجمرات الأخيرة للنار تتلاشى على المذبح. استحالت الجثث رمادًا الآن، وتلاشت أرواحهم وأجسادهم من هذا العالم وانتقلت إلى العالم الآخر.

تجمع المحاربون لسماع خطة فيدر، ولكن حين حاولت الدخول، أغلق اثنان من الريكي الأبواب في وجهي. اتكأت على الحائط، وشبكت أصابعي وأصغيت، كنت أسمعهم يتجادلون أو يستحسنون الكلام. بيد أن الهدوء كان السمة السائدة. وكرهت ذلك الشعور الذي حل بالقرية. لطالما كان الريكي عدوًّا باطشًا، كانوا أقوياء. إذا كانوا غير متأكدين من الاتجاه الذي سيسلكونه، فهذا يعني أنهم خائفون.

عندما فُتحَت الأبواب أخيرًا، وقفت وتقدمت نحو إيري وفيسك حين خرجا من الأبواب، متسائلة: «ماذا قال؟».

كان وجه إيري شديد الإرهاق وتسرب ذلك إلى صوته الأجش المنهك: «سيجتمعون مع قادة القرى الأخرى لمعرفة مدى خسائرنا ومدى المساعدة التي قد نحتاج إليها».

تمتمت بخفوت: «من الأسكا».

توقف وقال: «لقد أتى محاربو الهيريا بأعداد غفيرة، يا إيلين».

واجهته وقلت بصوت مخنوق: «أنت تعلم أن ذلك لن يحدث أبدًا. ربما سيغادرون، مثل المرة السابقة».

قال بحزن: «لا، ما حدث من قبل لن يتكرر أبدًا».

كنت أعلم أنه يقول الحقيقة. عندما جاء الهيريا من قبل، جاءوا مرة واحدة فحسب، ولم يكن هناك الكثير من القتلى أو الدمار، لكن هذه المرة مختلفة بكل تأكيد.

سادنا الصمت بقية الطريق، ومآسي ما حدث أمس تجثم على صدورنا. إن الهيريا الذين أغاروا على فيلا لا يُمثّلون سوى مجموعة صغيرة منهم. وربما عددهم غفير ولا تعرفه العشيرتان.

فتح فيسك الباب ودلف إلى الداخل، واتجه ليتحدث مع إنجيه، وتركني أنا وإيري بمفردنا.

سألته: «ماذا قال؟». كان فيسك يجلس بجوار هالفارد، يفحص أنفه مجددًا.

قال إيري بصوت حاسم: «سيرافقك فيسك».

جذبت نفسًا وتساءلت: «لماذا؟».

هز رأسه وقال: «لماذا تصعِّبين على نفسك الأمر يا إيلين؟ إنكِ بحاجة إليه».

جاوزني، ولمست إنجيه ذراعه وهو يمر. نظرت إليّ عندما أقبلت، ثم اتجه بصرها إلى فيسك.

نهض وقال: «إنهم يتجمعون، يجب أن نذهب».

التقطت أسلحتي من المقعد ووضعتها في مكانها. قفز هالفارد من الطاولة وركض خارجًا، وقدماه تدقان الأرض الحجرية.

رفعت إنجيه ذقن فيسك لينظر إليها وقالت: «توخَّ الحذر، يا عزيزيـ ثم عد إليَّ ثانية».

لم يجبها، بل نظر إلى عينيها دون أن ينبس ببنت شفة. وضعت يديها على كتفيه وأخذت تدعو له بصمت، وعندما انتهت، حاول أن يبتسم لها وسألها: «بمَ تفكرين؟».

ارتسمت على محياها ابتسامة شابها الحزن وأجابته: «أفكر في أنك تفاجئني دائمًا». ثم انتقل بصرها نحوي ثانية ثم تركته يذهب، فتوجه فيسك إلى إيري وعانقه. كان إيري

يتحدث إليه بصوت خفيض.

قال إيري بعدما تركه: «كوند إلدر».

فرد عليه: «كوند إلدر».

لقد سمعت تلك الكلمات من قبل. انفخ نارًا. كان الريكي يقولونها بعضهم لبعض في ساحة المعركة.

اقتربت إنجيه من الباب وسحبت شعري من تحت حزام البلطة، وهي تقول: «أتسمحين لي؟».

سَرَت بجسدي قشعريرة عندما أومأت، وجلست في الزاوية على الكرسي الذي كنت أتناول عليه وجبتي، وأنا أراقبهم يجلسون معًا كعائلة إلى الطاولة.

سحبت شعري على ظهري، وفرقته إلى أجزاء سميكة، ثم ضفرتها على كتفي. ارتجفت من الشعور الذي انتابني في هذه اللحظة، فيما تصاعدت من أعماق ذهني ذكريات ضبابية عن أمي؛ ذكريات حسبت أنني نسيتها.

أطرقت ببصري إلى الأرض متسائلة: «هل هناك أي شيء لن يفعله فيسك من أجل إيري؟».

«إنه يحب إيري أكثر من نفسه، لكن ذهابه هذه المرة لا يتعلق بإيري». نظرت إلى وجهي لبرهة، ثم وضعت يديها برفق على رأسي، وأخذت تتلو صلواتها.

حبست أنفاسي؛ لأنني كنت أعلم ما سيحدث عندما أطلقها؛ ألم ممض وحادّ في صدري. مسحت عينيّ بعدما انتهت، ووقفت متجهة نحو الباب دون الالتفات للخلف. كان هالفارد يمسك زمام الحصانين ويحتجزهما على الطريق، ولم ينظر إليّ عندما اقتربت منه.

سألني وهو يركل الثلج بحذائه: «هل ستعودين؟».

أمسكت زمام حصان إيري ومررت يدي على خطمه، قائلة: «لا أعرف».

«بل يمكنك ذلك، يمكنك العودة إذا أردت».

مددت يدي إلى جيب سترتي ثم أمسكت يده: «شكرًا لك».

نظر إليّ، وملامح وجهه تتغير: «لماذا؟».

«لأنك لطيف معي على الدوام».

وضعت الهدية في كفه، كانت تمثالًا بسيطًا. لم أكن أعرف شكل والده، ولم أكن نحاتة ماهرة، لكنني استخدمت بقية الخشب الذي أعطتني إياه إنجيه لأصنع تمثالًا له.

سألني بصوت هامس: «هل هذا والدي؟».

أومأت، وأنا أجذبه من قميصه وأطوقه بذراعيّ. دفن وجهه في سترتي، وعانقني بقوة، وحاولت دفع الشعر عن وجهه، لكنه كان متشابكًا جدًّا، فيما جعلت الكدمات الأرجوانية الداكنة تحت عينيه لونهما الأزرق أكثر بريقًا.

خرج إيري وفيسك وإنجيه من المنزل، وتوقف إيري أمامي. نظرت إلى صدره، لم يعد درع الريكي غريبًا في نظري. لن يبدو جلد الأسكا مناسبًا عليه بعد الآن.

قال: «إلسكا يكار». وانتشر دفء تلك الكلمات حولي ووصل إلى أعماق فؤادي.

أحبك.

انحنيت نحوه، وتركته يحتضنني. لقد أحببته أيضًا أكثر من أي شيء في هذا الكون، ولكنني تساءلت عما إذا كنت سأستطيع أن أعترف له بذلك مجددًا. وتساءلت عما إذا كان بعض مني سيظل غاضبًا دائمًا. «ماذا تريدني أن أخبر والدنا؟».

أجاب متنهدًا: «الحقيقة».

لم أكن أرغب في أن أخبر أبي بأمر إيري، ولكنني لن أكذب عليه أبدًا.

قبّل جبيني وأمسك زمام الحصان وأنا أمتطي ظهره. كان الريكي ينتظرون في نهاية الطريق. لم ألتفت إلى الوراء حين اختفينا عن الأنظار في منعطف الدرب، بل ثبتت عينيّ على ظهر فيسك، وحصان إيري يتبعه. لقد حسبت مرارًا أنني رأيت أخي للمرة الأخيرة. كنت واثقة، ولم أرغب في الإحساس بذلك الشعور مجددًا.

سألت، وأنا أحكم قبضتيّ حول الزمام: «كم يومًا؟».

لكن قبل بلوغنا دار الطقوس، ترجل فيسك عن الحصان مجددًا، وانحنى إلى الأرض، وأمسك زمام حصاني.

صحت: «ماذا تفعل؟». حاولتُ أن أتراجع للخلف لكن الحصان تبعه.

لم يجب، وقادني بعيدًا عن الطريق الرئيسي، بعيدًا عن الآخرين، حتى توقفنا أمام خيمة الحداد. كان الكور يتوهج في الظل.

قطبت جبيني وقلت: «ما الذي...».

توقف الحداد عن الطَّرق ونظر إليّ، كان يحمل مطرقة بيده، ومريلته الجلدية السوداء ملتفة بإحكام حول وسطه.

نقل بصره بيننا.

كان يتحدث إلى الحداد، وهو يشير إليَّ، يهمس له بشيء لم أستطع سماعه بسبب تلك الأفكار التي تعتمل في رأسي.

هز الحداد كتفيه قائلًا: «حسنًا».

أمسكت السرج بأصابع شاحبة.

«هيّا، إذن». وألقى المطرقة على الطاولة.

ترجلت عن الحصان، بينما أمسك أداة ذات مقبض طويل تنتهي بخطاف وقال: «ادخلي».

دلفت إلى الخيمة وأمسك الطوق، وهو يدفعني للأسفل، ليربط جانبًا منه بقضيب حديدي مدفوع في جذع شجرة سميكة.

قال آمرًا: «لا تتحركي».

ثبَّت الأداة في الجانب الآخر من الطوق، فيما التقط نفسًا عميقًا، ثم مال للخلف وشرع يسحبها. توسَّع الطوق ببطء وظللت ساكنة محاولة منعه من لمس الحروق. وعندما اعتدل وانحنى ليسحب ثانية، أغلقت عيني.

خلع الطوق عن عنقي، وأسقطه على الأرض أمامي؛ دائرة سوداء مكسورة مطمورة في الثلج.

تلمست أناملي جلد عنقي، بعدما تحرر من الطوق الثقيل البارد فسألت فيسك: «لماذا فعلت ذلك؟».

«إذا كنتِ ستعودين لديارك، فلن تعودي بصفتك جارية». فك يديه المعقودتين، وعاد إلى الحصان. واستأنف الحداد عمله، وأصوات طَرْق الحديد في الكور تتردد في الأرجاء.

سمعت أصوات الريكي يتحركون على الطريق وقلت: «أنت لست مدينًا لي بشيء. لقد أنقذت حياتي أكثر من مرة، وأرى ذلك عادلًا».

حدق ببصره إلى الأرض، فيما حملت كلماته مشاعر فياضة:

«لن أوفيك حقك أبدًا مهما فعلت».

الحادي والثلاثون

انطلقنا ونحن تغمرنا مشاعر ممتزجة من الترقب والخوف، وربما الرهبة فيما يخبئه لنا القدر، انطلقنا في صف طويل عبر الغابة كثيفة الأشجار، وقد استوعبت أخيرًا ما عناه فيسك حين أخبرني بأنني لن أتمكن من هبوط الجبل بمفردي. لم يكن ثمة طريق واضح في الثلج الكثيف، فقد انحرفنا يمنة ويسرة في عدة طرق مطمورة، وحول جروف غير منتظمة. واستغرق الأمر نصف اليوم حتى فطنت إلى أننا نتجنب المنحدرات المتدلية للجبل التي تهدد بانهيار ثلجي.

كانت كل حركة محددة ومحسوبة بدقة، لذا فقد حافظوا على السير بوتيرة بطيئة، وظلوا هادئين عندما ابتعدنا عن ظلال الأشجار. وقاد فيدر المجموعة أمامنا، وأخذت يتلفت حولنا حين نتحرك، ويدرس ارتفاع الجبل قبل أن نخطو إلى الأمام.

تجاهل الريكي وجودي، ما أراحني كثيرًا؛ لقد شاهد العديد منهم اقتلاعي عين الهيريا. أجفلت حين استعادت ذاكرتي ذلك الشيء الدافئ اللزج في يدي المرتجفة. وربما يعلمون أنني أنقذت التالا، وربما اكتسبت ثقتهم، كما قالت. لكنني بتُّ غير عابئة بذلك الآن، كل ما كان يسيطر عليَّ الآن هو الخروج من هذا الجبل والعودة إلى الديار.

ارتحلنا حتى وقت متأخر من الليل واعتدلت في جلستي محاولة تمديد ظهري وكتفيّ الحساستين. ما زال مكان التئام الجرح يؤلمني، بل يحرقني، لكن الإصابات ما فتئت تلحق بي مرة تلو أخرى. رفعت ذراعي ببطء، ومددت العضلات برفق، وألقيت نظرة للوراء على فيسك حيث تراجع خلفي. بدا قمر الشتاء ضخمًا ومشوهًا في السماء، في حين أطل على الغابة كطوق يطفو على الماء، وتجمد الهواء حولنا مع غروب الشمس. ومع كل منعطف في

الطريق، تضاعف ثقل الخوف المتواري وراء أفكاري، وازداد خيالي جموحًا حول ما ينتظرني في المضيق.

دوّى صفير طويل وخفيض أمامنا، فتباطأت الخيول حتى توقفت، فيما ترجل فيسك عن الحصان، وانتظرني لأنزل وأربط حصاني بجواره.

«سننام بضع ساعات ثم نستأنف الرحلة». جذب السروج من الحصانين، وسحب جلود الدب من تحتهما.

«هل سننام هنا؟». لم يكن هناك سوى الثلج العميق.

أشار إلى واجهة صخرية خلفي، حيث كان الريكي يختفون. ورفعت حقيبة السرج فوق كتفي السليمة، غذينا السير فى الاتجاه نفسه. وحين انزلقنا إلى شق واسع يمتد عبر الصخرة من الأرض تراجعت، وشعرت بالحاجة لأمسك سكيني بيدي.

أضاءت ضربة من القداح الكهف حيث أشعل أحدهم النار، ثم أضرم آخر نارًا أخرى خلفنا. وسرعان ما ظهرت النيران واحدة تلو الأخرى حتى أبصرت ما بداخل الكهف، يتألق بالوهج البرتقالي. كان كهفًا ضخمًا، وتتدلى من بعض المواضع في سقفه أحجار ساقطة، كأنها أصابع تحاول انتزاعنا وسحبنا إلى بطن الجبل. وساده الهدوء التام حتى إنني سمعت وقع كل حذاء على التراب أسفلنا.

قادنا فيسك نحو النار في مؤخرة الكهف، وتجاوزت الريكي الذين كانوا يستعدون للنوم. وانحنيت على الجدار، وانزلقت حتى جلست على الأرض، ونظرت حولي. اجتمع الريكي حول النيران الأخرى، وتركوني أنا وفيسك على حافة المجموعة. كان أمرًا غريبًا أن أراهم بتلك الطريقة؛ متعبين ومحطمين وضعفاء، وكأن روحهم غافية في سبات عميق داخل أجسادهم، لكنها موجودة. كانت كامنة كالعنقاء قبل أن تستيقظ من رمادها، لكن رغم كل شيء لم أستسغ فكرة النوم بينهم.

جذب نظري رأس ذو شعر أحمر قانٍ. وارتعشت حين أبصرت ثورب، كان يجثو بجانب النار عبر الكهف، يسحب بطانية صوفية فوق صدره، فيما تغطى الكدمات والجروح وجهه، وعيناه منتفختان.

وضع فيسك جذعًا جافًا في النار لإذكائها. كانت مفاصل يديه متقرحة لضربه ثورب منذ بضعة أيام. عندما رآني أحدق له، نظر إلى يديه ثم إلى ثورب.

سألته بهدوء: «هل سيسعى للانتقام بسبب ما فعلته؟».

«لن يلمسك مجددًا».

التفتُّ مجددًا إلى ثورب، لقد رأيته أيضًا عند حرق جثث الريكي، لكنه لم يلقِ نظرة واحدة في اتجاهي.

ركل فيسك حقائب السرج باتجاهي، فأدخلت يدي وأخرجت الخبز الذي حزمته إنجيه. وقسَّمته إلى نصفين، ناولت فيسك أحدهما، فيما ضممت ركبتيّ إلى صدري. ذكَّرني مذاقه بمنزلهم، وابتلعت لقمة. سادتني الدهشة للتفكير في إنجيه وهالفارد، إذ كنت أشعر بحنين إلى فيلا. لم يكن يشبه حنيني للوطن، بل كان شيئًا آخر.

«هل تؤمن بما قالته إنجيه؟ عنك وعن إيري؟». راقبت وجهه بعناية، محاولةً استشفاف ما يدور بباله.

ارتفع حاجباه، متفاجئًا من السؤال: «السال فيوترا؟».

أومأت برأسي، وأخذت قضمة أخرى.

«لست أدري». مال إلى الجدار، وحدق إلى الخبز بين يديه.

«ماذا حدث، برأيك؟».

فكر لبرهة قبل أن يجيب: «أعتقد أنني رأيت نفسي في إيري».

«ماذا تعني؟».

التقت عيناه بعيني وأجاب: «لقد علمونا طوال حياتنا أننا مختلفون بعضنا عن بعض، لكن الحقيقة كانت على النقيض تمامًا مما رسَّخوه بأعماقنا، فنحن متشابهون، بل نكاد نكون متطابقين، وأظن أن اكتشاف ذلك أرعبني».

غصت في الظل، بعيدًا عن ضوء النار، لم أرد أن يرى أي تعبير يشي بما في أعماقي؛ لأنني فهمت ما كان يقوله، كان شعورًا يجتاحني حين أنظر إلى هالفارد، ويتنامى شيئًا فشيئًا عندما تذكرت الريكي وهم يرفعون جدران مزرعة كيرلينج، وأصواتهم حين يرفعون عقيرتهم بالغناء.

«إذا كنت تؤمن بذلك، فلماذا كنت تقاتل في أورفانجر؟».

مرر يده عبر شعره وأجاب: «لأننا سواء أكنا متشابهين أم لا، فنحن أعداء. إن قومي يُقتلون في موسم القتال على يد الأسكا».

ليتني لم أسأل، فالتفكير في مدى تشابهنا جعل المستحيل ممكنًا، وجعل المرء يتيه في غابة من الدروب المتشابكة التي لم يتصور وجودها من قبل. كانت فكرة مرعبة: «هل ما زلنا عدوين؟ أنا وأنت؟».

أجاب ببساطة: «كلا».

رفعت رأسي ووجدته ما زال يراقبني، وانزلقت نظرته فوق شعري، ثم عادت إلى وجهي، فارتجفت. صوبت بصري مجددًا إلى النار، ووجهي يكاد يشتعل.

هدأ الريكي، ما جعل الكهف يغوص في حالة من السكون. بسط فيسك فراء الدب على الأرض الرطبة فيما تكوّرت على نفسي عند الجدار، ووجهي يقابل المساحة المفتوحة. كانت

النار دافئة، لكنني لم أحب أن يكون ظهري مكشوفًا وعرضة للخطر. سحبت بطانية حتى ذقني، بينما أعاد فيسك ترتيب الحطب بحذر حول النيران ليحترق لفترة أطول. لم يشتك من الألم في ضلوعه، لكنه حرص على ضم ذراعه قريبًا من جسده، وعلى عدم حمل الكثير من الوزن على ذلك الجانب. وحين فرغ استقر بجواري مطمئنًّا.

راقبته وهو يلتقط نفسًا عميقًا ثم يخرجه، ويغوص في الأرض، بينما سحب بطانيته فوقه. وحاولت تخيل هيلي؛ المسارات الترابية التي تتعرج حول القرية، مثل مداخل الأنهار، والأشجار الباسقة تحت أشعة الشمس الدافئة، وتحليق الطيور فوق المضيق، وانخفاضها بأجنحتها المشرّعة ومخالبها الممدودة لاصطياد الأسماك من الماء.

اضطربت أنفاسي ودسست يديّ بين قدميّ لمحاولة بث الحرارة في جسدي، فارتعش جسدي؛ ليس من أثر البرد فحسب، بل من الهيريا وهيلي أيضًا، وما سأجده في المضيق.

تطايرت سحائب الغبار أمامي ففتحت عيني. كان فيسك يلقي نظرة إلى الوراء، فيما عيناه تجريان على بطانيتي، ثم انزلق إلى الخلف، إلى المسافة بيننا.

انتظرت حتى هدأت أنفاسه ثم زحفت بالقرب منه، شعرت بالحرارة تنبعث من جلده. دفعت وجهي نحو ظهره المغطى بفراء الدب، واختلست النظر إلى الجلد المحبوك لسترته، متتبعة النقش بعينيّ، حتى ثقل جفنيّ رويدًا رويدًا، ثم غفوت على صوت أنفاسه، كان صدره يعلو ويهبط أمامي، مثل مد وجزر مياه البحر وهي تتدفق عبر المضيق.

الثاني والثلاثون

عثرنا في طريقنا على الجثة الأولى، التي كانت لأحد مقاتلي الهيريا، شبه مدفونة في الثلوج الجديدة المتساقطة؛ ذات شعر طويل مبعثر حول فروة الرأس وفراء متلألئ متصلب في الرياح الباردة.

انتشرت إلى الأمام سلسلة من الجثث المجمدة في الغابة، والتفت فيسك للخلف لينظر إليّ. كنا قريبين من مور؛ أولى قرى الريكي وأكبرها.

لاح أمامنا، ونحن نهبط، السطح الضخم لدار الطقوس أمام منحدر الجبل. وكان جزء من السقف متصدعًا ومسودًا من الدخان، لكنه ما زال قائمًا، ولم تكن المنازل محظوظة بالقدر نفسه، فقد استحالت ركامًا من الأخشاب المحروقة. بدأ عدد قليل من الريكي إعادة البناء، وكانوا يكشطون الأخشاب المكسورة لإصلاح الجدران، وتناهى إلى مسامعنا أصوات أدواتهم وهي تطرق الخشب.

توقفوا عندما تقدمنا في الطريق، وبعد دقائق قليلة خرج نفرٌ منهم من دار الطقوس، وفتحوا أبوابًا كبيرة محفورة مثل تلك الموجودة في فيلا، وتقدمهم رجل أشيب الشعر. كان وجهه مخيطًا بطول وجهه حتى أعلى عينه إثر جرح عميق بضربة سيف، بينما ظهرت آثار الهجوم على وجوه الآخرين وأجسامهم أيضًا. لم يحالفهم الحظ الحسن، مثل فيلا.

صاح الرجل العجوز: «فيدر»، ثم توقف ينتظرنا.

ترجل فيدر عن فرسه، وهو يصيح: «لاثام». ثم أمسك يده وجذبه نحوه مربتًا ظهره.

ترجل الآخرون عن خيولهم وذبت في المجموعة محاولة الاندماج. إذا نظر ريكي مور إليّ بتمعُّن، فسيعرفون أنني لست واحدة منهم، ولكنني عندما قلبت بصري فيما تبقى من

أطلال القرية، فكرت للمرة الأولى أن ذلك لم يعد مهمًّا الآن بعد كل ما حدث.

حل فيسك حقيبة السرج التي حزمتها إنجيه، والممتلئة بالأدوية والضمادات، وتبعناهم لأعلى الدرب إلى دار الطقوس. حنينا رءوسنا أثناء المرور تحت العارضة المنهارة عند الباب، ودلفنا إلى الغرفة الرطبة المعبقة بالدخان. وانتابتني الدهشة.

كانت الأرض زاخرة بأطفال الريكي، وبعض أغراضهم متناثرة هنا وهناك. كانوا يخيمون على البطانيات والمقاعد؛ رءوسهم محنية كصغار الطيور في أعشاشها، وملابسهم متسخة، وجروحهم غير معالَجة؛ فإما أن المعالج قُتل أو أنه يعتني بإصابات أكثر خطورة.

تمددت على المذبح جثة، تسلط عليها الضوء المتسلل من السقف المكسور؛ كان رجلًا ملفوفًا بعباءة زرقاء، وإبزيم حديدي دوار مربوط عند العنق. نظفوه وعقدوا يديه بعناية على صدره، حيث تدلت خيوط من الخرز الخشبي. كان فيما يبدو كاهن القرية أو الـ«تالا» الخاص بهم.

أجال فيدر بصره في الغرفة وتساءل: «متى جاءوا؟». ربما كان يفكر فيما كان يدور في ذهني؛ كم كانت فيلا محظوظة!

أجاب لاثام بصوت أجش أجوف: «منذ خمسة أيام في منتصف الليل. جاءوا يتسللون بين الأشجار كالأشباح».

ساد الصمت في الهواء المشبع بالدخان. علا الشحوب الوجوه، بينما كان الضعف يقطر من كلماتهم، وتذكرت كم كان الوضع مشابهًا في هيلي في طفولتي بعد قدوم الهيريا.

تأمل فيدر جثة الرجل الممددة على المذبح.

أومأ لاثام قائلًا بتردد: « لقد توفي البارحة بسبب العدوى». جذب كرسيًّا من عند الحائط وجلس، وقدم آخر لفيدر. حاولت الاقتراب أكثر للاستماع. «نحن القرية الخامسة للريكي

التي تعرضت للهجوم خلال الأسبوعين الماضيين، وأنتم السادسة، وسيعودون لا محالة».

«كم فقدتم؟».

«مائة وثمانية وأربعون شخصًا».

ران الصمت بغتة. لم تفقد فيلا سوى أربعة وخمسين، لكن مور كانت أكبر بكثير. وإذا فقدت القرى الأخرى مثل تلك الأعداد، ففرصة الريكي معدومة لهزيمة الهيريا. عادت أفكاري إلى هيلي. إذا استطاعوا فعل ذلك في الجبل، فماذا فعلوا في المضيق؟ كانت القرى هناك أكثر انكشافًا، والوصول إليها أسهل. ازدردت ريقي بصعوبة، وعاود جسدي الارتجاف.

جلس فيدر، وخلع عن كتفيه فراء الدب ووضعه على حجره. «لقد علمنا أنهم هاجموا الأسكا قبل أن يصعدوا الجبل».

اعتدل لاثام، وقد ارتسمت الدهشة على وجهه الملتوي وهو يقول: «الأسكا؟».

«لا نعرف بعد كيف سارت أمورهم. سيذهب أحدنا إلى هناك لمعرفة ما جرى لهم». قالها مختلسًا النظر إلى فيسك.

«إن الهيريا كغثاء السيل، يا فيدر. لا أعرف من أين جاءوا».

رد فيدر بصوت شارد: «بل تعرف»، فزحفت القشعريرة على الجميع.

لطالما انتشرت الشائعات حول الهيريا، ولم يكن أحد يعرف مكانهم أو موطنًا لهم وأين يذهبون حين يتقهقرون، بل قيل قديمًا إنهم ليسوا بشرًا، بل هم أرواح، وإنهم ينفذون مشيئة إلههم الغاضب. وإذا كان ذلك صحيحًا، فربما لن نستطيع دحرهم.

«سنلتقي الناجين في فيلا. سيصلون خلال اليوم أو اليومين المقبلين».

انحنى فيدر للأمام ورمق لاثام، قائلًا: «عندما يحدث ذلك، فسنقرر ما يجب القيام به معًا».

«سيتعين علينا القتال». لكن تلك النظرة الشرسة للريكي غابت ملامحها عن وجه لاثام.

تجاوزتُ المجموعة التي ما زالت تتبادل الحديث، وشققت طريقي نحو المخيم المؤقت لدار الطقوس. نظر أطفال الريكي إليّ بوجوههم المتسخة. كانوا متدثرين بالبطاطين، وبعضهم يمسك أطباقًا بها طعام بارد. بثت النيران المشتعلة في وسط الغرفة الحرارة حولنا، وتوقفت عندما جاء فيسك ليقف بجانبي.

كان يخفي بعناية توتر جسده، لكنني رأيته في عينيه. وكانت أنباء فقدان العديد من أبناء الريكي تمثل ضربة موجعة، ومواجهة الهيريا ستؤدي إلى موت محتوم. كان يفكر في إنجيه وهالفارد وإيري.

سألته: «متى نغادر إلى هيلي؟».

«في الصباح. وحتى ذلك الحين سأعالج كل من استطعت». ثم جال بعينيه في الغرفة واستطرد: «لكنني لست ماهرًا مثل والدتي».

اتجهت إلى إناء زاخر بالماء على الجانب الآخر من المذبح. ووضعته على الفحم وأمسكت الطفلة التي بجانبي أولًا. نظرت إليّ بحذر حين أجلستها على مقعد بالقرب من النار. وعندما صار الماء دافئًا، نظفت وجهها، وأزلت الغبار والرماد عن بشرتها الفاتحة المكسوة بالنمش، وهي تنظر إليّ بعينيها البنيتين، وشعرها الأشقر الطويل ينسدل على ظهرها في عقدة متشابكة.

أخذ فيسك ساقها بين يديه، وشرع يفحص الجرح في ربلتها. كان الجرح إثر نصل بلطة وما زال مفتوحًا، وقد احمرت أطرافه والتهبت. فركت جلدها، لتنظيف موضع الجرح، بينما ضمَّده فيسك، وسحب الإبرة ببطء في الجلد، وهو يمسك الخيط بين أسنانه. أبت أن تبكي، وهي تراقبه يمسك اللحم معًا بين يديه. وحين انتهى، انتقل إلى الطفل التالي. صبي أشقر

وذراعه موضوعة في حمالة كتف مؤقتة. كنت أنظف وجوههم، بينما يعالج فيسك جروحهم من أثر الهجوم. طوال حياتي، لم أفكر قط في الريكي كأطفال صغار، لم أعرف إلا الوجوه الشُّجاعة لمحاربيهم في المعركة، لكنني بتُّ أدرك الآن أن لديهم تاريخًا، وأسماء، وأرواحًا.

نجورد.

إيدون.

إيلا.

فريج.

نظرت إلى أعينهم، كانوا صغارًا تنتابهم مشاعر الخوف، لكنهم أقوياء مثلما تعلَّموا، كانوا يكزون على أسنانهم ويتحملون وجع الغرز ووخز الجروح الملتهبة. وخلف دموع عيونهم واحمرار أنوفهم، كانوا أقوياء مثل أوتاد الجبال الراسخات.

عقصتُ شعورهم للوراء في ضفائر. وابتسم فيسك دون أن ينظر إليّ، كان بصره مركزًا على الجرح في كتف صبي.

«ما الأمر؟».

رفع نظره، وذقنه يشير نحوهم: «يبدون مثل الأسكا».

وكان على حق، كدت أضحك. لم أكن بارعة في تضفير الشعر، لكنني كنت أجيد عمل بعض ضفائر الأسكا، كنت أفعل ذلك منذ طفولتي، تجمعوا حولنا يراقبوننا بأذرع معقودة.

إنهم محاربون صغار، مثلما كنت أنا وإيري. ومثلما سنظل إلى الأبد.

الثالث والثلاثون

تريثت على ظهر حصاني في الطريق، بينما أخذ فيسك يتحدث مع فيدر ولاثام. أشرقت الشمس للتو، وما زال الهدوء يخيم على أرجاء القرية، لكنني كنت قد حزمت الأمتعة قبل نومنا. أشعر بأن هيلي تجذبني؛ تمد يدها وتلف أصابعها حولي. تناديني للعودة إلى المضيق. ولم ينتبني شعور كهذا من قبل. لقد قُتل كثير من الأسكا خلال المعارك والهجمات، لكنني لا أظن ألبتة أن الأسكا سيتلاشون أو ستُستأصل شأفتهم.

امتطى فيسك حصانه وانطلق على الطريق، وتجاوزني ليعود للمسار. راقبنا فيدر، والرياح تطيِّر شعره على وجهه. وتردد صوته في الغابة: «كوند إلدر!».

كانت الخيول تعرف الطريق، رغم عجزي عن ذلك. لقد اعتدت التنقل مستعينة بالعلامات المميزة. بيد أن ذلك كان مستحيلًا بسبب الثلوج التي تغطي كل شيء. اتجهت عينا فيسك نحو قمم الأشجار وزاوية الجبل، وليس الأرض. وارتفعت الشمس أكثر، وأصبحت الأرض أكثر انحدارًا. وانزلقت الخيول بحوافر ترتجف، مرسلةً الصخور تتدحرج على رقع الأرض الجرداء. وحين هبطنا إلى أخطر أجزاء الطريق، مال فيسك إلى الوراء، كي يضبط وزنه، وفعلت مثله. وعندما بلغنا السفح، انكشف أمامنا وادٍ بعيد أسفله، حيث امتدت مساحة خضراء نائية وراء فسحة بيضاء.

مع ارتفاع درجات الحرارة أثناء النهار وذوبان الثلوج، صارت الأرض أكثر انزلاقًا، فترجلنا عن الحصانين وقدناهما، ثم توقفنا ليستريحا. مضيت نحو حافة الهاوية، وألقيت نظرة على الأشجار. بدت ظلال الغابة كالزبد على سطح الماء؛ ناعمة وكثيفة بفعل تساقط الثلوج.

قطعت الصمت بيننا وأنا أقول: «ماذا برأيك سيحدث عندما يهاجم الريكي الهيريا؟».

أحكم فيسك ربط سرج الحصان مجيبًا: «أعتقد أننا سنُهزم». لم ينمَّ صوته عن الخوف.

«لكنكم ستقاتلون، على أية حال؟».

نظر لي باستهجان قائلًا: «بالطبع سنقاتل».

راقبت نسرًا يندفع فوق الأشجار، يميل يسارًا ثم يمينًا، مردفة: «ولكن إذا عجزتم عن الانتصار...».

قال بنفاد صبر: «إذا لم نحارب، فسيقتلنا الهيريا، على أية حال، فهل نلقى نهاية الشرفاء بأن نقاتل أم نموت ميتة الجبناء. أيهما تفضِّلين؟».

كان يعرف إجابتي، مثلما أعرفها. لن أنتظر أبدًا عودة الهيريا، متحصنة في قرية شبه محترقة، حتى إن كان الموت مصيري المحتوم. لكنني لم أحب أن يشارك إيري في معركة خاسرة، ولا يمكنني تحمل فكرة مقتل إنجيه وهالفارد على يد الهيريا.

تأملت فيسك؛ كانت عيناه شاردتين وفارغتين، تحدقان إلى السماء وقد بدا أن روحه غادرت جسده، فاجتاحتني قشعريرة شديدة.

«قد يستقر الريكي في أرض جديدة». ثم أشرت نحو الأفق، وراء المضيق مردفة: «ربما خارج الوادي».

أمال رأسه جانبًا وقال: «في أراضي الأسكا؟».

هززت كتفيّ وقلت: «هجوم الهيريا يغير الأمور. على أية حال، لن يتقاتل الأسكا والريكي فيما بينهما إذا كانا في الوادي، إن الهيريا هم العدو الأكبر».

قال مصححًا: «إنهم العدو المشترك».

عقدت ذراعيّ. كنت أفكر في الشيء نفسه، ولكنني لم أستطع تصوّره. عجزت عن تخيل عالم يجمع بين الأسكا والريكي على الجانب نفسه. يمكنني تصور تشابك الجلود البنية

والحمراء والدروع البرونزية والحديدية في ساحة المعركة، لكن القتال جنبًا إلى جنب كان تخيله مُحالًا.

سألت، وأنا أراقب النسر يستدير، ويميل جناحيه جانبًا ويعود إلينا: «وإذا انتصرنا عليهم، فماذا سيحدث بعد ذلك؟».

ترك السرج، فاحتك بلبدة الحصان قائلًا: «لست أدري».

استأنفنا المسير، وأخذ الطريق يزداد انحدارًا، فأبطأنا كي لا تتعب الخيول. واهتز جسدي؛ من التوتر الناتج عن قيادة الخيول، وآلمني فكي؛ من الضغط على شفتي، محاولة منع الانزلاق. وفور أن عدنا على الأرض المنحدرة، نظرت خلفنا؛ إلى قمة الجبل الشاهقة المكدسة بالثلوج الثقيلة. كنت أشعر بقوتها، وهي تحوم كأنما تتحين الفرصة كي تتدحرج نحونا. وتخيّلت للحظة الشعور بالدفن أسفلها، والاستسلام تدريجيًا للبرد وإغلاق عينيك متهيئًا للموت. مثل الليلة التي تركني فيها ثورب في الغابة. ومثل الأيام التي قضاها إيري مستلقيًا أسفل الأخدود وهو يحتضر. ولكنني شعرت بالاطمئنان عندما راودتني تلك الفكرة؛ إذ كانت تعني أنه لا مزيد من التساؤل. التساؤل عما إذا كان الأسكا قد نجوا، وإذا كنت سأعود إلى البيت، وما سيحدث لإيري. والتساؤل عن تلك الرابطة التي تتوثق أواصرها تدريجيًا بيني وبين فيسك.

جنحت الشمس للمغيب، فاصطبغ العالم باللون الأزرق وتدثر بالبرودة مجددًا ونحن نتجه نحو الأشجار الكثيفة. وخيم الهدوء على الغابة، ولم يخدشه سوى لهاث الخيول وأصوات حوافرها. وعندما واجهتنا فجوة في الشجيرات، كان الضوء قد تلاشى تقريبًا.

مر فيسك من تحت الأشجار أمامي، وسقط ضوء القمر عليه أثناء ترجّله عن الحصان. وحاولت تحاشي التحديق إلى جسده أمام الليل القارس.

عبرت الفجوة بين الأشجار، وتوقف حصاني عند حافة بحيرة كبيرة متجمدة. كان سطحها يمتد في كلا الاتجاهين كالزجاج الأسود المتجمد، فترجلت ومشيت نحو الحافة، وضربت بكعب حذائي الجليد السميك وتساءلت: «كيف سندور حولها؟».

أخذ الحقيبة من السرج وعلقها على كتفه وأجاب: «لن نفعل، بل سنمشي عليها».

نظرت إليه متعجبة: «نمشي عليها؟».

«أجل».

انتصب الجبل فوقنا كأنه يراقبنا وأنا أقول: «أليست هناك طريقة أخرى للدوران حولها؟».

«بلى، لكنها ستستغرق يومًا كاملًا». كان يفك حقيبة سرجي، ويسحب الأربطة.

نظرت إلى البحيرة وقلت متوجسة خيفة: «ماذا لو سقطنا فيها؟».

أجاب مبتسمًا: «لن نسقط». أشحت بنظري عندما شعرت بالحرارة تتدفق إلى وجهي مجددًا.

طوح لي بالحقيبة وعلقتها على كتفي، بينما دفع الحصانين إلى اتجاه الجبل، وصفعهما على أرجلهما الخلفية، فانطلقا يركضان بخطوات تشبه الرعد البعيد في الغابة المظلمة.

تقدم خطوة على الجليد وقال: «إنهما يعرفان طريق العودة».

تحت أقدامه، صرّ الجليد، فاضطرب قلبي. التقطت نفسًا عميقًا، وصوبت بصري نحو الجانب الآخر، الذي حجبه الظلام، وانطلقت خلفه، أسير بزاوية مائلة، كما علمني أبي، لتجنب الضغط على الجليد. وانزلق الثلج المسحوق تحت حذائي كلما تقدمنا على السطح، ثم تلاشى تاركًا الجليد ناعمًا ومصقولًا.

عصفت الريح من حولنا، وأطلقت شهقة حين نظرت أخيرًا إلى الأسفل، وتوقفت في منتصف خطوتي. ودرت حول نفسي بعينين مذهولتين. كانت سماء الليل تنعكس على الجليد بأشكال وألوان واضحة، وسلاسل ساطعة للنجوم تتموج حول بعضها، وقمر ضخم مستدير ومبقع يحدق إليّ مرسلًا ضوءًا ينير الأجواء الظلماء.

بدت الأشياء غير مألوفة كأنني أرى العالم وموجوداته بعين جديدة، يعتورها الكثير من المشاعر المتضاربة ما بين اليأس والأمل، الشجاعة والخوف، وترقب ما هو آتٍ.

لمست شفتي بأناملي، وحامت عيناي حول السطح. وتوقف فيسك يراقبني، وإبهامه معلق في حزامه على صدره، وقد أنار الضوء المنعكس على الجليد جانب وجهه.

رفع رأسه ونظر إلى القمر المنير قائلًا: «يحدث هذا لأسبوع أو اثنين فقط، ثم يعتم الجليد بمجرد أن يضمحل».

انحنيت وضغطت بيدي على طبقة من الجليد وأنا أراقب انعكاس الضوء عليه حول أصابعي، واعترتني ذكرى الماضي فقلت: «عندما كنا صغارًا، كدت أغرق في المضيق. سقطت عبر الجليد». تريثت هنيهة ثم استطردت: «كنا نحاول أنا وإيري معرفة إلى أي مدى يمكننا الذهاب، وعندما سمعت صوت التشقق، رفعت رأسي، وكان وجهه آخر شيء رأيته قبل أن ينهار السطح أسفل قدميّ».

تقدم فيسك خطوة نحوي.

«كان الظلام كثيفًا. وبالكاد كنت أرى، ثم أمسكت بي يداه، وسحبني وألقاني على الجليد». تذكرت كيف كانت تبدو المياه؛ كانت زرقاء داكنة؛ لم أرها داكنة بهذا الشكل من قبل.

أضفت: «ولست أدري كيف لم يسقط هو أيضًا. واعتراني الغضب لاقترابنا من الحافة بهذه الطريقة». ثم فجأة انتابتني غصة، فكففت عن الكلام.

في الماضي كان إيري يحبني لدرجة الاستعداد للقفز إلى الماء المتجمد من أجلي، لكنه تركني بعد ذلك.

قال فيسك كاسرًا الصمت الهش بيننا: «إننا نقوم بما يتوجب علينا فعله. كنتِ ستموتين لو لم يقفز». توقف قليلًا ثم أردف: « كذلك لو لم آخذك تلك الليلة في أورفانجر، لقتلك ذلك الريكي».

وقفت لأواجهه: «أعلم».

«لو لم أطلق السهم في كتفك، لوضع غيري سهمًا في قلبك. لو لم أتخذك جارية، لكنتِ موجودة في إحدى تلك القرى المحترقة على الجبل».

رددت دون وعي: «أعلم».

قال: «وإذا عاد بي الزمان، فسأعيد الكَرَّة».

كان ما يتفوه به حقيقيًا، بيد أن كل تلك الأمور موجعة ومؤلمة. كان سيف فيسك سيقتلني في لمح البصر. وفي تلك الليلة كنت سأقتله دون تردد. وحين أفكر في تلك الفكرة الآن، أشعر وكأنني أسيرة تحت الجليد المتكاثف أسفلنا، قابعة في الظلام.

نظرت إليه وسألته: «لماذا جئت معي؟».

أبعد أصبعه عن الحزام في صدره وتحرك متوترًا.

«لماذا أنت هنا؟».

وحين نظرت إليه مباشرة، عانقتني عيناه، وآوتني داخلهما فأحسست بروحي تسكن في اطمئنان.

تراجعت خطوة للوراء.

فتحت فمي لأقول شيئًا، لكن الكلمات لم تخرج، بل ظلت سجينة في حلقي. وفجأة شعرت بالأعماق المتجمدة والمعتمة تحتنا مجددًا، التي تنتظر أدنى تشقق لتسحبنا إلى داخلها وتبتلعنا. تزايدت دقات قلبي وهيمن عليّ الخوف، فشعرت بالثقل. كان شعورًا مرعبًا، كأن شيئًا يربطني به. وإذا سقط أحدنا في الظلام، فإن الآخر سيتبعه أيضًا.

تجاوزته، واتجهت بسرعة نحو الجانب الآخر، نحو أمان الأرض الصلبة. دمدمت البحيرة تحت وطأة جسدي، كانت تبدو مثل وحش كاسر دون مشاعر، فأغلقت عيني محاولة عدم رؤيتها. دفنت مشاعري في أعماقي بينما أبقيت ناظري في اتجاه فيسك الذي كان يقف أسفل القمر المنير والنجوم المتلألئة في سماء تمتد بامتداد الكون، كان يبدو في تلك اللحظة مثل كائن أسطوري يمثل لي العالم وأشياءه، ودونه يفقد كل شيء معناه ويبدو هو والعدم سواء.

الرابع والثلاثون

لم نتوقف للحظة واحدة إذ لم أستطع السيطرة على انفعالي ورغبتي الجامحة في أن أرى وطني مرة ثانية.

سلكنا طريقنا خلال الغابة في وقت متأخر من الليل، بينما تتناوب السماء الظلمة والنور من خلال تلك السحب الغائمة التي تطفو فوقنا، في حين توارى القمر وراء الوادي الكبير، وصعدت الشمس وراء الجبل خلفنا.

واصلت التقدم أمام فيسك، وأسرعت خطواتي مع اقترابي من المضيق. انحسرت الأشجار بمجرد وصولنا إلى الوادي، وتباعد بعضها عن بعض مع ظهور سطح التربة تحت طبقات الثلج الذائبة. وتراجعت ظلال قمم الأشجار مفسحة المجال لبحر من الأعشاب الخضراء الجديدة التي تنعكس عليها أشعة الشمس. كان لونها فاقعًا فاضطررت إلى إغلاق عينيّ؛ كانت أولى البشائر أمام الشتاء. ولا شك أنها ستبدأ النمو على سطح الجبل في الأسابيع المقبلة.

لازمنا الغابة، بعيدًا عن الوادي المكشوف. وشممت رائحة البحر. وذاق لساني طعمه البارد المالح، وتوسلني كي أنسى أين أنا وما أفعل؛ وأن أنسى ذكريات الماضي وما حدث لإيري، وذلك الألم الممض في كتفي والهجوم، وأن أنسى وحشية الهيريا. سلكت الدرب الذي خبرته قدماي طوال حياتي، عبر الوادي ونحو المضيق. وشعرت بأن كل ما حاق بي كأنه لم يحدث ألبتة.

بيد أن الذكريات تسللت إلى عقلي ببطء، ثم زحفت في ثنايا أعماقي مرة أخرى، مع ارتفاع الأرض أمامنا وتقدمنا نحو الجرف المطل على قريتي. اختفى العشب وحل محله صخور ساخنة بفعل أشعة الشمس. وتوقفت حين لامستها قدماي. جعلت أتأمل البحر الأزرق

الهادئ الرقراق، والذي تمتد أعلاه سماء شتوية رمادية. وتوقفت خطوات فيسك بجواري ينتظر في ترقب.

نظرت إلى حذائي، واستنشقت نفسًا عميقًا، ثم سرت مباشرة نحو الحافة. زدت سرعتي، فيما انكشف المنظر تدريجيًا حتى أبصرت الشاطئ. ورنَّ جرس إنذار في عقلي. كان الهدوء الشديد يخيم على المكان.

تقدمت خطوة أخرى، فيما ظهرت ملامح القرية في الأفق؛ دياري الحبيبة، ولكنني لم أكد أرى ما يكمن أمامي حتى شهقت؛ من هول ما رأيته.

بالأسفل، لم تكن هيلي سوى تجسيد تام لمعاني التدمير والموت والهلاك.

ركضت وعيناي تتفحصان أسطح المنازل المنهارة، وقدماي تنزلقان على الصخور المتناثرة على السطح. بدت القرية خاوية على عروشها. وعوضًا عن رؤية دار الطقوس، أبصرت حطامًا ملطخًا بحلقة سوداء من بعيد.

وضعت يديّ على أنفي لأحجب رائحة العفن، ووصلت إلى نهاية الطريق وخطواتي تتعثر، وانطلقت أقفز فوق الجثث المتحللة في شمس الظهيرة.

هتفت: «آجي!». لكنني سمعت صوتي بالكاد من الهزيم المروع داخل أذني.

ركضت أسرع بين البيوت المحترقة والمتهاوية. وحين وصلت إلى منزلنا، انحنيت ووضعت يديّ على ركبتيّ. كان البيت أطلالًا، لم تتبق منه سوى بعض الجدران، فتهدجت أنفاسي وآلمتني عيناي.

أبصرت عند عتبة المدخل طبقًا فخاريًا مكسورًا.

دلفت إلى المنزل، بينما فيسك يتقدمني على الطريق، فيما أجلت بصري فيما حولي وقد كتمت أنفاسي. كان المزيد من الأطباق المكسورة متناثرة على الأرض حول حفرة النار،

وسريري ملقى على جنبه، والبطانية شبه محترقة ومبتلة بالماء المتساقط من ثقب بالسقف، والذباب يطن فوق آنية حديدية مسكوب منها طعام فاسد.

دوّى صوت فيسك خلفي: «إيلين».

لكنني تجاهلته، أمسكت الطاولة وأعدتها لوضعها الصحيح، ثم جمعت قطع الفخار من الأرض. ورتبتها بشكل منظم بين يدي، والأفكار تصطرع في ذهني.

دوَّى صوته عاليًا: «لقد اختفت الأدوات والأسلحة، والجثث بالخارج تخص الهيريا. لقد رحل الأسكا، يا إيلين».

كنت مهتمة بجميع التفاصيل إذ أثارت في نفسي ذكريات يصعب شرحها، فوضعت الشظايا بعناية في الوعاء، وهششت الذباب، وعدلت السرير. وأمسكت البطانية بين ذراعي؛ لقد حاكتها أمي حين كانت في مثل سني تقريبًا. والآن انحلت العقد وبهتت الرسوم الحمراء والبرتقالية.

قلت بصوت مختنق: «إذا كان الوضع سيئًا جدًّا حتى إنهم اضطروا للمغادرة، فهو حتمًا قد قُتل». اختنقت الكلمات مجددًا في حلقي، ودفنت وجهي في البطانية المبللة، وأجهشت بالبكاء. صرخت: «لقد قُتلوا، لقد أبيدوا جميعًا».

طوقني بذراعيه الدافئتين فانهرت بين يديه، ترنحت وقبضتاي تضغطان على صدري الذي شعرت بأنه يتمزق، وتلاشى من قلبي الأمل الضئيل الذي راودني حين هبطت الجبل؛ وقد انهارت ثقتي بأن الأسكا كانوا قومًا أقوياء وصامدين لا يعرفون الهزيمة.

لكنهم للأسف قُتلوا.

ضمني أكثر وتهاويت متخيلة جثة والدي، تحترق على المذبح؛ لحيته تشتعل، ولحمه يسودُّ، وإذا كان قد فارق الحياة، فإننا جميعًا كذلك؛ لأنه كان أقوى منا، ومن دونه، فَقَد

عالمي توازنه.

قال فيسك بصوت هادئ: «لقد حُرقت جثث الأسكا، وجرى إفراغ المنزل، هناك ناجون، يا إيلين».

لم أستطع تصديق ذلك، لم أستطع وضع هذا الاحتمال في ذهني. كان الحزن ينهش كل شبر من جسدي؛ حزني على فقدان بيتي وقبيلتي.

حلَّ ذراعيه عني ورفع رأسي لأنظر إليه: «فكري. إلى أين قد يكونون ذهبوا؟». أزاح خصلات شعري عن وجهي وأردف: «أين مكانهم الآمن؟ هل ثمة قرية أخرى للأسكا؟».

أغمضت عينيّ أفكر، كنت أعرف إلى أين سيذهبون، لكن لم يكن مسموحًا بأن نخبر أحدًا من غير الأسكا؛ إنه سر. ولم يسبق لي أن زرت ذلك المكان يومًا ما. نظرت إلى عينيه، اللتين كانتا تحدقان لي وتبحثان، وتحثاني على السيطرة على عقلي المضطرب واليائس. كانتا مثل مشعلين يبددان الظلام.

مسحت وجهي بكفيّ وأجبت: «فيركي، سيذهبون إلى فيركي».

الخامس والثلاثون

أضرم فيسك نارًا في إحدى الحفر، بينما كنت أعيد ترتيب المكان مرة أخرى، إذا عشنا هنا مرة أخرى، فسيتعين علينا إعادة بنائه من جديد، إذ تدمر معظمه، ولكنني كنت بحاجة لإعادة كل شيء إلى موضعه، حتى إن كنت لن أرى ذلك المكان مرة ثانية.

عندما انتهيت، أمسكت الفرو على سرير أبي، ودفنت أنفي فيه كان معبقًا برائحة التوابل والأتربة والبحر. أغمضت عيني من الوخز وزممت شفتي محاولة منع الدموع المنهمرة.

جلست على الحجر أمام النار، بينما جلس فيسك بجانبي، وناولني آخر قطعة من خبزنا، فتناولتها وقلبتها بين يديّ. اقترب من النار، ومد أصابعه أمام الحرارة ثم ضمها في راحتيه. كانت ملامحه دائمًا تتغير في ضوء النيران، فيما كانت ملامح وجهه قاسية، مثلما رأيتها لأول مرة في أورفانجر. وحين كنت أفكر في ذلك، تبدو كأنها ذكرى في ركن قصي من عقلي. صارت نظرته التي كانت تثير الصراع في داخلي، تكسرني وتعريني أمام نفسي.

سألته ويدي تضغط على الخبز الصلب: «ماذا سيحدث، في رأيك، لو كنت قد قتلتني تلك الليلة؟».

أخذ يمضغ قطع الخبز ناقلًا بصره بيني وبين النار وهو يجيب: «لست أدري، ولا أعرف إذا كان إيري سيعلم ذلك، وربما لم أكن لأعرف مطلقًا مَن تكونين».

«ماذا لو عرف؟ أو لم يصل في الوقت المناسب؟».

قال بصوت عميق مشوب بالخوف: «أظن أنه لن يسامحني أبدًا».

«إنه يشبهك». التفتُّ لأواجهه، متشوقة فجأة لسماع الأشياء التي لم يقلها.

تغيرت ملامحه مجددًا، وأشاح ببصره إلى المسافة الصغيرة بيننا: «ماذا تعنين؟».

«إن العائلة هي أهم شيء بالنسبة لك».

تناول لقمة أخرى.

سألته: «كم شخصًا قتلت؟».

تحول ليواجهني وتمنيت أن أبتعد: «لست أدري». ثم سحب البلطة من غمدها على ظهره، ووضعها على الطاولة خلفنا وسألني: «بالنسبة لكِ، كم محاربًا قتلتِ؟».

فكرت في سؤاله رغم معرفتي بالإجابة. لم أكن أعرف. هززت رأسي وأنا أرجع بذاكرتي عن أول شخص قتلته في حياتي.

لا شك أنه قد تغيرت الأجواء كثيرًا بيننا، وقد تضاءلت المسافة إلى أقل قدر.

حكَّ ذقنه وهو يستعيد ذكرياته بدوره وهو ينظر إليّ: «أتذكر أول رجل صرعته في موسم قتالي الأول، حيث كنت أقاتل مع والدي وطرحه أرضًا، ثم أمسكه وأمرني بأن أحز عنقه ففعلت دون تردد».

قلت بصوت هادئ في الظلام: «كم كان عمرك؟».

«اثنا عشر. وأنتِ؟».

«أحد عشر».

لم يسألني مَن كان أو كيف حدث ذلك، وشعرت بالامتنان.

تداعى زخم الذكريات في عقلي، إذ كانت المرة الأولى التي أتذكر فيها إزهاقي روح شخص، وشعوري بشيء آخر غير البقاء على قيد الحياة، وأتذكر كذلك خوفي الشديد

والخجل لخوفي بهذه الدرجة.

في ذلك اليوم، نمت في خيمتنا، والدموع الساخنة تتساقط على وجهي. ولم ينبس والدي بكلمة. صلى معي لروح أمي، ثم جلس بجانب سريري حتى غفوت. وفي اليوم التالي قتلت أربعة محاربين من الأعداء. وبعد ذلك، ثلاثة. ولم أبكِ بشأن ذلك ألبتة. لكنني أشعر بها الآن؛ الدموع نفسها التي تسيل على وجهي حين كنت فتاة صغيرة، كانت دموعًا طاهرة ونقية، تتسرب من المكان نفسه داخل جوانحي، سخينة في وجه البرد القارس.

رمقني فيسك متسائلًا: «ما الأمر؟».

سالت دمعة على خدي فتركتها دون أن أقيّد حريتها وهمست: «يراودني شعور غريب».

«ما هو؟».

«الشعور بالوحدة؛ لم ينتبني شيء كهذا من قبل». أجلت بصري في أركان المنزل المظلم وابتلعت الأسى والحزن وأردفت: «حتى في فيلا، كان لديَّ الأسكا. كنت أعيش كل يوم للعودة إليهم، لكنهم... رحلوا، أشعر وكأنني...». حبست البكاء في صدري، وشعرت بالخجل بغتة.

اقترب مني أكثر متسائلًا: «وكأنكِ ماذا؟».

تأملت وجهه العطوف؛ اللحية الخفيفة على ذقنه؛ الرموش السوداء حول عينيه الزرقاوين وأنا أهمس: «كأنني لهيب على وشك الانطفاء. كأنني سأتلاشى» كان صوتي هشًّا جدًّا لا يكاد يتحمل الكلمات التي يعبر عنها.

ران الصمت على الغرفة، وابتلعت المسافة بيننا كل شيء. خفض بصره إلى شفتيّ، فانتقلت الحرارة من صدري إلى سائر جسدي، ووجدت كل بقعة دفينة مظلمة وأشعلت جذوتها من جديد.

حاولت أن ألتقط أنفاسي، لكنني لم أستطع، كنت كمن يغوص في أعماق المياه المتجمّدة، في أغوار تلك البحيرة الجليدية، لكنه بمجرد أن تحرك، تحررت أنفاسي وأحسست بحرارتها تدب في جسدي، حتى هربت الأفكار كجيش متقهقر لتفسح للمشاعر الدفينة المجال. لامستني حرارته قبل أن تلامس شفتاه شفتيّ، فتجمدت محاولةً الشعور بتلك النبضة الحارقة واللاسعة تحت جلدي.

رفعت يدي ببطء، وفتحت عينيّ لأنهل من ملامحه، في حين لامست أطراف أصابعي حدود وجهه، فابتعد قليلًا وأخذ ينظر إليّ وكأنه لم يكن متأكدًا من وجودي أمامه.

لامستني أنفاسه.

في مكان لم أعلم أن بوسعي الشعور به.

في مكان لم أعلم أنه كائن في هذا العالم.

«فيسك». نطقت اسمه بصوت ليس صوتي، وعلق بيننا في الصمت.

زمَّ شفتيه معًا وتساءل: «ماذا؟».

وقفت مترددة على حدود تلك المشاعر الدفينة الجامحة؛ فها هو فيسك المدفون حيًّا في أعماقي. نظرت فوق حافتها، ورمقت الظلام الدامس، لكنه ناداني من بقعة مضيئة من بعيد، بل صرخ باسمي.

وقفزت إليه، إلى النور الذي أضاء مجددًا حياتي وانتشلني من تلك الظلمة العميقة.

تعانقنا بحرارة، فيما تعالت أنفاسنا كأمواج البحر العاصفة، تتحطم بداخلي وتجذبني للأسفل. أمسكت سترته المدرعة، وضغطت يداه عليّ، سحبني إليه. وانزلقت على الحجر محاولة الاقتراب منه.

التأم الثقب الملتوي والنازف في داخلي.

سمحت له بأن يمحوه ويزيله بمشاعره الدافئة، ولكن فجأة تلاحقت صور الدمار والنيران والحطام لتجعلني أفيق مما أنا فيه وأحس بثقل شديد يضغط على صدري.

تهاويت في حضنه، وعجزت عن التقاط أنفاسي؛ من وطأة الثقل. انزلقت ذراعاه حولي فدفنت وجهي في كتفه. بكيت. وترددت في أعماقي صرخة مظلمة ومقدسة، أمسك بي فيسك ليمنعني من الانهيار، لكنني بكيت حتى عجزت عن الشعور بأي شيء، بكيت حتى نسيت معنى كل شيء في هذا العالم.

لقد أطل القمر فوق بيتي المحطم ولكنني تحطمت معه تاركًا إياي حطام أطلال مهدمة.

السادس والثلاثون

استيقظت في سرير والدي وأنا ملتحفة بإحدى البطاطين، وطيور البحر تصيح فوق المياه، ورائحة الموت تزكم أنفي مجددًا. جرفتني إلى الوراء، إلى هيلي.

اعتدلت،

وأنزلت قدميّ للأرض. كان رأسي يؤلمني، وقد فركت وجهي المتورم، وجلت ببصري في البيت الصغير، كان خاويًا.

ارتفعت الشمس في كبد السماء، واخترقت أشعتها الممتزجة بالرماد والغبار البيت. ربطت غمدي وحزامي، وسرت إلى الرصيف البحري، وكل ذرة في جسدي تتحفز لما هو آتٍ.

تحولت التربة إلى حصى. وحين وصلت إلى الماء، خدش صمت القرية وقع حذائي المألوف فوق الحجارة السوداء المستديرة. تنفست هواء البحر النقي القادم من الماء وانحنيت، وأخذت أنثره على وجهي. حككت شعري بأصابعي، وتطلعت إلى الأفق.

كانت المياه ذات اللون الأخضر المعانقة للشاطئ تذوب في المياه الزرقاء كلما ازدادت عمقًا. وأغلقت عينيّ وفتحتهما ثانية. لم يتغير شيء، فها هو البحر نفسه، والشاطئ نفسه. ثم نظرت إلى قريتي؛ وطني الحبيب؛ وعاودتني الحقيقة المؤلمة. لن يعود أي شيء لسابق عهده.

رفعت رأسي إثر سماعي صوتًا في المياه فأبصرت فيسك؛ كان يقف على الرصيف في الطرف الآخر من الشاطئ، يسحب من الماء شبكة ممتلئة بالأسماك. وكان يمسك سكينه

بين أسنانه ويميل للوراء، ويجر الشبكة، حتى انزلقت على الرصيف. كانت الأسماك تشبه البلورات، تتلألأ متلوية في ضوء الشمس.

عندما رفع نظره إليَّ، احمرَّ وجهي. ما زلت أشعر بقبلته على شفتيّ، وأتذكر لمسته. أتذكر شعوري بالضآلة وكأنني سأذوب فيه، كان شعورًا يشبه سهمًا ناشبًا في صدري.

مشيت بطول حافة الماء حتى وصلت إلى الرصيف، وراقبته إذ يسحب أربع سمكات من الشبكة، ويترك الباقي يتساقط في الماء. سار والتقى بي في منتصف الطريق، وتوقف أمامي ممسكًا السكين في يد، والدلو في الأخرى.

تطايرت خصلات شعري حول وجهه، فأمسكته وأزحته على كتفي. قلت وعيناي تنغلقان بسبب أشعة الشمس: «أنا آسفة».

تأمل عينيّ متسائلًا: «على ماذا؟».

أشحت ببصري إلى الماء محاولةً العثور على الكلمات، وأنا أستدرك: «على ما حدث في الليلة الماضية».

ابتسم وعادت الحرارة إلى وجهي.

«أنا...».

قاطعني ليجنِّبني الحرج: «كم يلزمنا من الوقت للوصول إلى فيركي؟».

«إذا رحلنا الآن، فسنصل صباح الغد».

أومأ، وصوَّب بصره إلى القرية. «حسنًا، لنذهب».

كان عليّ إخباره بأنه ليس مضطرًا للقدوم معي، وأنه سدد بالكامل دَينه الذي يعتقد أنه مدين به، ولكنني شعرت بالضعف والهشاشة فعجزت حتى عن الاختباء من نفسي.

لم أرد أن أكون وحيدة، ولم أود أن يرحل.

«شكرًا لك».

أومأ واستدرت ضد الريح، أراقب ظله يتحرك بجانبي على الأرض ونحن نسير معًا. صعدنا الشاطئ وعدنا إلى الطريق، ومضينا إلى البيت، وحين دلفنا من المدخل متجهين نحو حقائب السرج، زحفت القشعريرة على ظهري وتجمدت الصرخة في حلقي بينما لمحت سهمًا مرفوعًا أمام وجهي، وأبصرت خصلات شعر أحمر تلمع في الظلام، وسمعت صوت وتر يُسحب بإحكام.

ميرا.

تصوب على فيسك.

شهقت هاتفة: «لا»، وألقيت جسدي عليها وانزلقت أصابعها عن الوتر.

انطلق السهم واندفعت فوق ميرا لأتبين الأمر. وقف فيسك في المدخل، وعيناه متسعتان، يمسك دلو الأسماك أمامه، كان يتأرجح من المقبض على أصابعه، والسهم مثبت في جانبه.

رأيت الأفكار تصطرع في عقله، ويده تتجه نحو السيف المعلق على وركه.

دفعتني ميرا جانبًا فانقلبت على الحجر المحيط بحفرة النار. تمزقت عضلة كتفي عن العظم وتأوهت، بينما قفزت ميرا من الأرض والبلطة في يدها. وامتلأ الهواء بالغبار عندما أصدرت زئيرًا، وطوحت بها لتغرزها في عنق فيسك، لكنه ألقى بنفسه للخلف، وسقط على الجدار، واهتز البيت حولنا.

حاولت الإمساك بساقها وهتفت: «ميرا!». لكن الغبار حجب عني الرؤية وخنقني.

تجاهلتني وأشهرت بلطتها مرة أخرى، ثم طاردها فيسك، فدفع نفسه بعيدًا عن الجدار وأمسكت يده عنقها. أسقطت البلطة وحاولت الإمساك بقبضته بينما يدفعها نحو الجدار المقابل. وتمايل جسدها الصغير أمام جسده القوي.

قلت وأنا أدفعه: «توقف!». لكنه لم يتحرك، فصرختُ: «اتركها!».

رمقني بطرف عينه، ثم ارتخت أصابعه على عنقها، ووضع بدلًا منها السكين.

تجمدت، ونقلت بصرها فيما بيننا.

«فيسك».

اقترب منها والسكين يضغط على جلدها: «مَن هنا غيرك؟».

انحرفت عيناها إليّ، وتصلب فكها.

اقتربت منه ببطء ووضعت يدي فوق يده: «اتركها».

«مَن تكون؟».

«إنها صديقتي».

نظرت ميرا إليّ بعينين مذهولتين حين خفض فيسك السكين، وتساقطت دموعها قبل أن أصل إليها، فعانقتني وأخذت تبكي وهي بين أحضاني. ورمقت فيسك من فوق كتفها، أعاد السكين إلى حزامه ووقف في الظلال.

سألتني والكلمات تتداخل على شفتيها: «كيف جئتِ هنا؟ وماذا تفعلين؟». ودفعتني للخلف تتأملني، والكحل الأسود الباهت حول عينيها يسيل على وجنتيها المبتلتين.

عضضت شفتي، لم أعرف إن كان ينبغي عليّ إخبارها بالحقيقة أم لا، وإن فعلت كيف ستفهمها. «لقد أُسرت في أورفانجر. وجئت عندما سمعت بما حدث».

«كيف تمكنت من نزول الجبل قبل ذوبان الثلوج؟».

أومأت لفيسك.

مررت يديها على وجهها وتباطأت أنفاسها، متسائلة: «لماذا؟».

لكن كل ذلك لم يكن مهمًا. رفعت بصري نحوها، وهيأت نفسي حين أطلقت السؤال: «هل هو ميت؟».

أمسكت معصمي، وضغطت عليه: «كلا، إنه حي يرزق، في فيركي».

نظرتُ إلى فيسك والابتسامة تتسلل إلى وجهي، ثم انحنيت ووضعت يديّ على ركبتيّ لأحافظ على توازني، والأسئلة تتلاحق: «كم عدد الناجين؟».

ارتسمت الجدية على وجهها وران الصمت على البيت.

«لقد مات معظمهم، ربما نجا من قريتنا أربعون، بينما أُسر الباقي».

تهاويت على الحجر، محاولة إيقاف الدوار الذي شملني، كان العالم يتحرك حولي في خطوط مشوشة بلا لون. هززت رأسي محاولةً نسيان ما قالته: «وأسرتك؟».

لم تُجب، كان وجهها كأنه قُدّ من حجر.

نهضت واتجهت إلى الباب، كنت بحاجة ماسة إلى الهواء.

تبعتني وسألت: «ماذا تفعلين مع هذا الريكي، يا إيلين؟».

«لا بد أن أذهب إلى فيركي».

دفعتني وقالت: «ماذا يفعل هنا؟». تراجعتُ متأوهة. سألتني: «ما الأمر؟». ثم سحبتني نحوها وفتحت ياقة قميصي، ونظرت للجرح المتقرح في كتفي: «سهم؟».

فحصتْ ظهر كتفي وتوقفت يداها فجأة عن الحركة. «هل هذا...؟»، ثم نظرت إلى الحروق المحيطة برقبتي «هل قاموا...؟».

خفضت بصري، وغمرني العار.

اندفعت مبتعدة، ووقفت أمام فيسك إذ يخرج من الباب، ودفعته بيديها بقوة وسألته: «ماذا فعلتم بها؟».

نظر إليها نظرة خاوية.

التفتت نحوي وسألتني: «لماذا يساعدك، يا إيلين؟».

أجبتها وأنا أتكئ على شجرة منتصبة بجانب المنزل اعتدنا تسلقها أنا وميرا في طفولتنا: «لقد أغار الهيريا على الجبال، إنهم في كل مكان».

شاهدتها تفكر، ثم شبَّكت يديها، وضغطت بإبهاميها على شفتيها السفلى.

«فَقَد الريكي الكثير، الكثير جدًّا».

تمتمتْ مصوبة نظرة حادة إلى فيسك: «جيد».

شد قامته وزم شفتيه.

«سيقتلوننا جميعًا، يا ميرا. لا بد أن أرى والدي».

لم تفارق عيناها فيسك، الذي وقف صامتًا عند باب البيت. «وماذا عنه؟».

«سيأتي معي».

هزت رأسها، وتراجعت للوراء: «كلا، لن آخذه إلى فيركي. سيعود مع بقية الريكي ويقضون علينا!».

قلت وأنا أزدرد لعابي: «كلا، لن يفعل ذلك. الريكي ضعفاء لا يمكنهم القتال بمفردهم».

حدقت ميرا وقالت: «لست جادة بالتأكيد، لن يقاتل الأسكا بجوارهم أبدًا، ولن يسمح سيجر بالسلام مع ثورا».

«حتى لو كان من أجل البقاء على قيد الحياة؟ سيعود الهيريا. تأملي!». ولوحت بذراعي نحو القرية وأردفت: «لقد اقترب وقت ذوبان الثلوج، يا ميرا، وحينها سيعودون!».

عضت شفتها، وقالت بغضب: «فيجر يوفير فيور. لا يمكننا الوثوق بهم، يا إيلين. تعلمين ذلك».

اختلستُ نظرة لفيسك. حتى لو كنت أثق به، فلن أثق ألبتة بقبيلته، فقلت: «أعلم هذا علم اليقين.»

رفع ذقنه، ونظر إليّ.

قالت وهي ترمقنا: «حسنًا. أحضريه. سيقتله الأسكا عندما نصل إلى فيركي، على أية حال». ثم استدارت، ومررت قوسها فوق رأسها، وشرعت تسير بمفردها على الطريق وعقلها يحاول استيعاب ما حدث.

السابع والثلاثون

سرنا في خط واحد على حافة الساحل. وهبت الرياح بقوة على الجرف، ودفعت بنا إلى الوراء بينما نتحرك جنوبًا. ضممت بقوة ذراعي التي تؤلمني إلى جسدي. كانت الدماء تنزف منها وتغمر قميصي.

بدت هيلي صغيرة من بعيد، وازدادت كثافة الأشجار، ونحن نتجه إلى الغابة الساحلية، حيث تقع معظم قرى الأسكا. لقد سلكنا أنا وميرا هذا الطريق كثيرًا، حين كنا نرافق والدي إلى أوتان ولوند، لمقايضة السمك بما تحتاج إليه هيلي من أخشاب وأعشاب لا توجد سوى في الغابة.

لم تلتفت إليّ أثناء سيرنا، لكن كتفيها كانتا مشدودتين، ويدها تتشبث بمقبض سكينها، والأخرى تقبض على وتر قوسها. لن تتردد في قتل فيسك في أية لحظة، ولم أكن واثقة إذا كان ولاؤها لي يفوق كراهيتها للريكي. لقد فقدت والدها بسبب الحمى عندما كنا صغارًا، ثم فقدت أختها في اليوم الذي فقدتُ فيه إيري. والآن، فقدت كل الآخرين بسبب الهيريا، وكان يجب أن أكون بجانبها.

لم أرغب في تخيلها وهي تشاهد الجثث تحترق وشفتاها تتلوان كلمات الطقوس. ولم أود التفكير بها وهي تضم بين ذراعيها آخر فرد من عائلتها. كنت أعرف ميرا تمامًا كما أعرف نفسي. وكنت أعلم أن الأجزاء المكسورة في قلبها تأبى الانهيار. وقد تركتها تواجه الفواجع بمفردها؛ لأنني كنت أنانية، تركتها في أورفانجر، مثلما تركت إيري أيضًا.

لن أسامح نفسي ألبتة، حتى إن سامحتني.

وصلنا إلى الخليج المنحوت في الصخور الذي كان يشبه هلال القمر. ما زال الجليد يغطي حواف البحر في المناطق الضحلة، وأسراب الأسماك تسبح تحته كسحابة دخان متحركة.

لم ينبس فيسك بكلمة منذ مغادرتنا هيلي. وقد ركز انتباهه على الأرض الزلقة الصخرية، محاولًا إيجاد موضع ثابت لقدمه. لم يكن خبيرًا بتلك الأرض، مثلما لم أكن خبيرة بالجبل المكسو بالثلج. رفعت قلنسوة عباءتي لأتقي الرياح العاتية، وراقبت الضباب ينسدل على الأرض مع غروب الشمس. اندفعت المياه بقوة على الصخور بالأسفل. وعندما غابت عن أنظارنا، توقفنا وخيَّمنا نحو الداخل بالقرب من الغابة.

راقبت ميرا فيسك وهو يتحرك بين الأشجار ويجمع الحطب. وهمست بغضب: «كيف جرؤتِ على إخباره بأمر فيركي؟».

أخرجت السمك من حقيبتي، وسألتها منتقية كلماتي بعناية: «ماذا كنتِ تفعلين في هيلي؟».

«عدت لآخذ متعلقات عائلتي؛ أو بالأحرى ما تبقَّى منها».

أخذت نفسًا عميقًا وقلت: «إيري حيّ، يا ميرا».

تجمدت يداها على مقبض بلطتها، بينما ابتعدت عيناها عن الأشجار واتجهتا بقسوة نحوي: «ماذا؟».

«إيري حيّ. كان يعيش مع الريكي طوال هذا الوقت». أصغيت إلى وقع الكلمات حين نطقتها بصوت عالٍ. كان قولها لـميرا أمرًا يختلف عن قولها لبقية الأسكا. ورغم أن إيري كان محبوبًا بين سكان هيلي، فإنهم سيسلبونه حياته بسبب فعلته. وسيلحقني العار أنا وأبي أيضًا.

وقفت وتساءلت: «كيف؟ ولماذا؟».

«لم يكن ميتًا عندما تركناه في أورفانجر، وقد وجده الريكي، فأنقذوا حياته؛ فيسك أنقذ حياته».

أخذت تذرع المكان جيئة وذهابًا، وعيناها مضطربتان: «لا، لقد رأيته، رأيناه».

«إنها الحقيقة».

«ثم ماذا؟ هل صار الآن واحدًا منهم؟».

في تلك اللحظة فقط صدّقت هذه الحقيقة، ومن ثم اعترفت بها: «نعم».

«من المستحيل تغيير دمك، يا إيلين! من المستحيل نسيان جميع الأسكا الذين قتلهم الريكي!». تكلمت بصوت مشوب بالقسوة، وأدركت أنها تفكر في أختها.

«لن ننسى ذلك». وكان هذا أكثر ما يخيف في الأمر.

خرج فيسك من بين الأشجار، يحمل تحت ذراعه كومة من الحطب، وشرع يشعل النار، وأخذت ميرا تراقبه، كانت تحدجه بنظرات غاضبة ساخطة، لكنه تجاهلها.

أعادت بلطتها إلى مكانها على ظهرها وقالت: «سأتولى الحراسة».

انتصبت واقفة وقلت: «استريحي، سأفعل ذلك».

همست، وهي تخرج تمثاليْ أختها ووالدها من سترتها: «كي يقتلني؟ إنكِ حمقاء إذا تصورتِ أنني سأنام بالقرب من هذا الريكي». ثم استدارت وانصرفت إلى الظلام، وتركتنا.

وكأنما لم يسمعها، عكف فيسك على إشعال النار، ووجهه متوقد؛ من جمر المشاعر التي انتابته.

ناولته قطعة حطب أخرى وقلت: «إنها لا تثق بك، لن يثقوا بك أبدًا».

تناهت إلى أسماعنا صلوات ميرا الخافتة في الظلام.

جلس مستندًا إلى الشجرة، وأخرج البلطة من غمدها على ظهره. «هل تثقين بي؟». كان وجهه صلبًا وغامضًا، كدأبه.

«نعم». رفع عينيه لتلتقي بعينيّ، وبدا وكأنهما تتطلعان إلى قلبي، مثلما فعلتا في هيلي. «لكنني لا أعرف ما إذا كان الأسكا سيستمعون إلينا».

نظر إلى يديه وتساءل: «هل تعتقدين أن هذه هي النهاية؟».

«نهاية ماذا؟».

«نهاية كل شيء، الريكي، والأسكا». تعلقت الكلمات في الهواء، ثم لم تلبث أن تلاشت كخيط دخان.

«أهذا ما تعتقده؟».

«لا، أعتقد أنكِ ستنجحين في إقناعهم».

استحال هدوء الليل هشاشة على وشك التهشم. لم أكن واثقة من نجاحي. «كيف تعرف؟».

لاحت ابتسامة على ثغره، قائلًا: «لأن النار تسري في دمك».

كان ذلك ما قالته إنجيه عني في تلك الليلة حين راقبتهم من العلية؛ وعندما قال فيسك لهالفارد عني إنني خطيرة.

«هل تثق بي، يا فيسك؟».

«لم أكن لأجيء معكِ إذا لم أكن أثق بكِ».

اجتاحتني ذكرى قُبلته. يداه تلمسانني في الظلام، تسحبانني عبر الحجر، فقبضت يدي بقوة، وقاومت رغبتي في لمسه. «وإذا انضم الأسكا إلى الريكي وهزمنا الهيريا معًا، ماذا

بعد؟».

مد بلطته إلى النار ليقرب قطعة حطب أخرى من اللهب، وهو يؤكد: «بالتأكيد ستتغير أمور كثيرة».

«أي أمور؟».

مال بظهره إلى الشجرة، وتفرست عيناه وجهي، وأجاب بصوت رقيق: «كل شيء».

تسلقنا التل، الذي بات بعيدًا عن البحر الآن، فلم نعد نراه خلال الغابة. وانبطحنا على بطوننا في المنحدر، واختلسنا النظر عبر القمة، إلى الخلاء الفسيح الذ بدا ممتدًا امتداد الأفق. وقد خيم الصمت والهدوء.

سألتها وعيناي لا تفارقان الأشجار: «كم عدد الأسكا هناك؟».

أجابت ميرا: «على الأقل عشرة. لا بد أن هاجن معهم».

كنت أعرف هاجن منذ الطفولة، لقد قاتلت بجانبه، وكنت أعرف رد فعله إزاء إحضاري فردًا من الريكي إلى معسكرنا.

أشارت ميرا نحو فيسك وقالت: «خذي أسلحته».

تراجع للخلف وقال: «لا».

مددت يدي نحوه وقلت: «إذا رأوا تلك الأسلحة، فسيطلقون سهمًا عليك قبل أن يتسنى لنا الحديث».

قال في تصميم: «لن تطأ قدماي معسكر الأسكا دون أسلحة».

رفعت حاجبي وقلت: «كما فعلت عندما كنت مقيدة، وجُررت إلى فيلا وأنا أحمل سهمًا في ذراعي؟ لن يقتلوك، لن أدعهم يفعلون ذلك».

قالت ميرا وابتسامة مريرة تعابث شفتيها: «لن يقتلوك على الفور في البداية، بل سيعذبونك أولًا».

دفعت كفي المفتوح نحوه، قائلة: «والدي هناك بالأسفل، بوسعي التحدث إليهم».

نظر إلى يدي ثم فك حزامه وغمده، ولفّ بإحكام الجلد الطويل حول الجرابين وسلَّمني إياهما وهو يهز رأسه.

«سأذهب أولًا». فحصت عينا ميرا الأشجار مجددًا ثم نهضت، وتخطت قمة التل، وسارت ببطء في الغابة، ويداها ممدودتان إلى جانبيها.

أمسكتُ أسلحة فيسك بذراعي السليمة، وانتظرنا لهنيهة ثم تبعناها.

لكن فيسك أمسك خصري وأوقفني وقال ناظرًا في عينيّ: «إذا قاموا...». كنت أعرف ما سيقوله. «يجب أن أعود إلى عائلتي. إذا كان ذلك يعني قتل الأسكا للخروج من فيركي والعودة إلى الجبل، فسأفعل، هل تفهمين؟».

تأملت طوله الفارع. لم يكن بحاجة لأسلحة ليشكل تهديدًا لقومي. وبمجرد ذهابه إلى فيركي، ما من عودة. بوسعه جلب جميع الريكي لمهاجمة الأسكا الضعفاء؛ كانوا يشبهون آخر أوراق الخريف التي تترقب السقوط. سيقوم بما يتعين عليه، وكذلك أنا.

قلت: «أفهم».

الثامن والثلاثون

لمعت كرة من ضوء النار في الظلام أمامنا. ومع اقترابنا، ازداد عدد الكرات، وامتدت على كلا الجانبين، فيما تدفق ضباب الليل نحونا كأنفاس جائعة، حتى اختفت قدماي تحت غطائه الكثيف.

صاحت ميرا وتوقفنا ننتظر. طفقت أراقب المشاعل حتى بدأت إحدى الكرات تتحرك، ثم قفز رجل من إحدى الأشجار، ورأى ميرا واقفة قبالتنا، ثم حوَّل بصره نحونا. قال وهو يرفع المشعل بيننا ويضيق عينيه محاولًا الرؤية في الظلام: «إيلين؟».

أجبت: «أجل».

تقدم نحونا وقال: «من هذا؟».

تحدثت بهدوء قدر المستطاع: «إنه من الريكي، يا هاجن، إنه بمفرده، وقد جاء للتحدث مع إسبن».

لكن هاجن استل سيفه قبل أن أنهي كلامي، وعيناه ترمقان الأشجار حولنا. وخرج الآخرون من الأجمة، وسمعت المزيد من صليل المعدن.

رفعت يدي له وقلت: «نحن وحدنا».

صاح وهو يرمقني بغضب: «فتشوا المكان». وأطاع الآخرون أمره. وانتشروا في الغابة وقد طوقتنا مشاعلهم المتوهجة. كان على أهبة الاستعداد وهو يحمل سيفه، ويفتش فيسك للتأكد من عدم حمله الأسلحة.

رفعت يدي للأعلى مع هبوط الرجال من أعلى الأشجار، وأنا أصيح: «ليس مسلحًا».

كان فيسك متوترًا بجواري، عيناه يقظتان وتلتقطان كل حركة.

صاح أحد الرجال: «المكان آمن، يا هاجن».

حدجني بنظرة طويلة وفكه متوتر، ثم رفع يده أخيرًا وأمسك كتفي اليمنى. وفعلت المثل ونظرت مباشرة في عينيه. «إسبن لن يعجبه هذا الأمر، ولن يعجب والدك أيضًا، يا إيلين».

أومأت لفيسك ليذهب أولًا وتبعته، وتوغلنا بين الأشجار الكثيفة، حيث كان خرير الماء يخدش الصمت. توقفت المشاعل عند جدار حالك السواد.

شقت ميرا طريقها بين الرجال وقالت لي: «سننزل».

«إلى أين؟»، وتبعتها إلى حيث وقف الآخرون، ولم أكد أضع قدمي على الحافة حتى أدركت أنها هاوية عميقة.

سلمتني حبلًا وقالت: «اربطيه حول جسدك بهذه الطريقة».

راقبتها بعناية، وفعلت مثلما قالت. وعندما أحكمنا العقد، قام هاجن بتثبيت حبله بخطاطيف معدنية لحبل على الأرض. وألقى نظرة على الرجال الآخرين ثم انحنى للأسفل، وألقى نفسه فجأة للوراء فوق الجرف. قفز قلبي حين شاهدت الحبل مشدودًا ثم يرتخي مرة أخرى.

تبعته ميرا متراجعة إلى حافة الجرف ونظرت إليّ ثم اختفت. ونظرت للأسفل محاولة تتبعها ببصري، لكن لم أجد إلا المياه ينعكس عليها ضوء القمر. وسحب الرجال الحبال، وكانت المشابك في طرفها فارغة. ثم قفز رجلان آخران دون تردد.

ربط فيسك حباله، بينما أخذت أثبت خطافًا معدنيًّا على العقد حولي، ثم تراجع للوراء، ووضع كعبيه على الحافة، ودعمني بيده مثلما فعلت، وحرصت على تثبيت ذراعي على جسدي، إذ كان سيؤلمني مهما فعلت.

همست: «هل أنت جاهز؟».

أومأ برأسه.

انحنيت للأسفل وقذفت جسدي للخلف بأقصى قوة، وسبحت في الهواء، وقد أخذ الحبل الطويل يتموج أمامي كثعبان في السماء الليلية. واختفى ضوء المشاعل عند الجرف فوقنا، وأمسكت بنا الحبال بزاوية مائلة لحظة ظهور الآخرين، وهم يرفعون أيديهم لأعلى، ويمدون أصابعهم للإمساك بنا.

«إيلين!».

جاءني الصوت كخنجر شقَّ قلبي، بينما تأرجحت نحو جدار الجرف، وأمسك شيءٌ حذائي، فدرت حول نفسي حتى امتدت المزيد من الأيدي لتبطئ سرعتي. وعندما توقفت، أبصرت والدي يشق طريقه بين الحشد.

مددت يدين مرتجفتين نحوه وأنا ما زلت معلقة بالحبل. وتحررت صرخة من حنجرتي، وضربت يداي الهواء حتى وجدتني يداه الكبيرتان وجذبتني إليه. بكيت على كتفه، وارتجف وهو يضمني إليه، وانطلقت صرخة زاخرة باللوعة والحنين من شفتيه، بينما كان الآخرون يفكّون الحبل عن جسدي. عانقته بقوة. ورفعني وأحسست بالتوازن قد عاد إلى عالمي المتشظِّي. حين أجلت ببصري في الدمار الذي لحق هيلي، كنت متيقنة من أنني لن أراه مجددًا. لكنه ها هو قد عاد من الموت، مثل إيري، ومثلي.

أمسك وجهي ونظر إليّ، ومرر يده على شعري. وتساقطت الدموع من عينيه، وأغرقت لحيته الكثة وحطت على شفتيه المبتسمتين. لم أرَ والدي يبكي إلا مرتين؛ عند وفاة أمي وإيري.

«كنت أعلم أنكِ حية، كنت أعلم أنني سأراكِ مجددًا». ثم أردف بصوت مخنوق: «هل أَسَرك الريكي؟».

أومأت برأسي، وكبتُّ دموعي، لكنه سرعان ما لمح الشيء الذي تمنيت ألا يراه أبدًا. وانزلقت أصابعه من وجهي إلى رقبتي، وتحسست الجلد الذي أخذ يتشوه بسبب الحروق.

صارت أنفاسه ثقيلة، وحدجني بغضب. لم أر قط والدي ينظر إليّ بمثل تلك النظرة التي تحمل غضب وعنف الكون كله.

ارتفعت الصيحات عند الصخرة، فأشحت ببصري بعيدًا عنه، وحاولت إيجاد فيسك. لكن الأسكا كانوا يندفعون في كل صوب من حولنا. وشببت على أطراف أصابعي، وتركت والدي واندفعت بين الأجساد، والذعر يجتاح قلبي. وحين اخترقت الحشد، رأيت فيسك يقف موليًا ظهره إلى الجرف، ويضم قبضتيه. كانوا يحاصرونه، وتمنيت ألا يرى الآخرون غريزة القتال في وجهه المتصلب، كان يحرك عينيه من اليمين إلى اليسار، باحثًا عني.

شق والدي طريقه بين الزحام، ومددت يدي نحوه حين رأيت النظرة في عينيه، لكنه تحرر من قبضتي، ومضى نحو فيسك.

ركضت خلفه، محاولة الوقوف في طريقه وهتفت: «آجي». لكنه كان قويًا جدًا. وانزلق حذائي على الرمال بينما كان يندفع هو إلى الأمام.

أمسكت قبضتاه سترة فيسك، ودفعه بقوة للوراء على الحائط، وانطلق الزئير من شفتيه، بينما يستل سيفه من غمده.

حشرت جسدي بينهما، وكان ظهري يضغط على صدر فيسك، ويداي تضغطان على والدي، صائحة: «لا تفعل ذلك!».

كانت أنفاسه حانقة، وعيناه تنضحان بالكراهية والمقت الشديدين.

ظهر إسبن وراءه بالبلطة في يده، وهو يصيح: «ما الذي يفعله هنا؟».

قلت، وأنفاس فيسك تلفح ظهري، وتوتر جسده يتسرب وينتشر عبر درعه: «استمع لي، من فضلك. إنه لم يأت للقتال. لقد ساعدني على نزول الجبل».

تراجع والدي خطوة للخلف وكرر تساؤل إسبن: «ما الذي يفعله هنا، يا إيلين؟».

كانت الكلمات متعطشة للدماء في فمه.

«الريكي...» حاولت أن أقولها، ولكنني رأيت في وجوههم ترقبهم الفرصة لتمزيق فيسك إربًا. «تعرضوا جميعًا للهجوم، مثل هيلي».

ساد الصمت بين الأسكا، وأخذوا يتلفتون فيما بينهم، وخفض إسبن بلطته، ووضعها على ساقه، ونظر إلى والدي. لم يكونوا يعلمون.

«لقد أغار الهيريا على فيلا، وتكبدت خسائر فادحة، لكنها لم تكن بالقطع مثل القرى الأخرى. رأيت مور قبل مجيئي إلى هنا. لقد تدمرت تقريبًا».

استدار والدي إلى إسبن وقال: «سيعودون للقضاء علينا».

صوب عينيه إلى الرمال مفكرًا ثم قال: «كان الكشافون يراقبون معسكرهم، إن عددهم يبلغ ثمانمائة شخص على الأقل.»

تقلصت أحشائي، وأنا أتخيل المأساة.

«ثمة مجموعة منهم تُغير على الجبل. يبلغ عددها خمسين على الأقل بعد الخسائر في صفوفهم». ارتفعت الرءوس بسرعة عند سماع صوت فيسك.

عضَّ إسبن شفتيه. واستدار فأفسحت الحشود له الطريق. «أحضروه».

تبعناه، ومشينا بين الأسكا، أخذوا يزمجرون ويصيحون، ويلعنون بخفوت. وحين خرجنا من تحت الجزء المتدلي، نظرت أخيرًا للأعلى. كان الجرف يرتفع عن الضفة الرملية بشكل حاد، كسقف، والمياه تجري بسرعة في تيار أبيض. تتبعنا الحائط الصخري حتى وصلنا إلى صف من الأكواخ المصنوعة من فروع مقوسة وسقوف معشوشبة. وبجوار كل كوخ حفرة نيران محفورة في الرمل. كانت الرياح العاصفة تضرب الجدار برائحة الطمي والرطوبة.

وقف إسبن مع والدي وزعماء القرية أمام طاولة خشبية كبيرة في نهاية الضفة الصغيرة، وهم ينتظرون.

تساءلت وأنا أخشى الجواب: «كم تبقى من الأسكا؟».

ولهنيهة خُيل لي أن والدي لن يجيب أمام فيسك، وأخذ بصره ينتقل بيننا. «مائتان وتسعون قادرون على القتال من جميع القرى. كم من الريكي؟».

نظرت إلى فيسك. كان العدد منخفضًا جدًّا. كل هؤلاء الأسكا ماتوا.

التقت عيناه بعينيّ وأجاب: «لسنا متأكدين. لم يجتمع زعماء القرى الأخرى عندما غادرنا. وأظن أنه يوجد أقل من ثلاثمائة شخص من فيلا ومور معًا. وربما خمسمائة؛ بمن في ذلك الناجون من القرى الأخرى».

ارتفع حاجبا والدي بدهشة.

انحنى إسبن نحو الطاولة وسأله: «أتتحدث باسم الريكي إذن؟».

استرخى فيسك قليلًا، لكن عينيه ما فتئتا تراقبان الظلال عند الضفة. «أجل. إن زعماء الريكي يطلبون منكم الانضمام إليهم لمحاربة الهيريا».

تبادل أبي وإسبن النظرات.

«إنهم يفوقوننا عددًا، كل منا على حدة، لكننا قد نتمكن من دحرهم إذا اتحدنا معًا».

عقد إسبن ذراعيه على صدره العريض وقال: «وبعد ذلك؟».

«هذا يتوقف عليكم في التوصل إلى اتفاق مع الريكي، أنا لست قائدًا».

أراح والدي قبضتيه أمامه على الطاولة وتساءل: «إذًا، لماذا أرسلوك؟ وكيف نعرف أن بوسعنا الثقة بك؟».

تقدمت خطوة والتقت عيناي بعينيْ أبي وقلت: «لن نعرف، مثلما لن يعرفوا، ولكننا بحاجة إلى بعضنا البعض. وإذا لم نتآزر، فسيهلك قومنا، وستُستأصل شأفتنا ويقضى علينا جميعًا».

ساد سكون خيّم على الجميع.

أضفت بهدوء: «لقد رأينا جميعًا ما حدث في هيلي، وأعتقد أنه ليس لدينا خيار».

التاسع والثلاثون

استجوب الرجال فيسك حتى وقت متأخر من الليل، واستغرقوا وقتًا طويلًا قبل أن ينتهوا من الحديث، وأدركت أنه لم يكن مرتاحًا لإعطائهم الإجابات التي يريدونها، لكنه أجابهم على كل حال. كانت أمورًا تخاطر بانكشاف دفاعات الريكي أمام الأسكا، أمورًا لا يمكن التراجع عنها.

كان أبي أول من وافق فحسم أمره: «سأذهب».

لكن إسبن بدا مترددًا: «ليس بوسعنا إرسال الآخرين معك، يا آجي».

قالت ميرا، وهي تقف بجوار والدي، وعيناها تخترقانني: «سأذهب معهم».

كان فيسك يقف بعيدًا عن الحاضرين، وظهره يستند إلى الجرف. لن يسمح لأحد بأن يباغته.

وافق إسبن: «ستتحدث باسم الأسكا إذًا، وسنلتقي في أورفانجر».

مررت يدي خلال شعري في ارتباك. كان الريكي والأسكا يجتمعون في أورفانجر طوال أجيال. لكن كان هدفهم الوحيد سفك دماء بعضنا بعضًا، أما هذه المرة فسنجتمع لإنقاذ حياتنا. هل بوسعنا أن نكون محاربين نقاتل جنبًا إلى جنب؟ وهل سيجعلنا ذلك أضعف أم أقوى؟

عندما انصرفنا، قادنا والدي عبر المعسكر النائم إلى مكان بطول جدار الجرف، يفصله عن البحر نتوء صخري. واصل زعماء الأسكا عند الضفة الجدال في ضوء المشاعل، وارتفعت همساتهم المنهكة والمنكسرة فوق صوت المياه.

كان أبي يحمل عدة حُصُر منسوجة ومطوية تحت إبطه، وناول فيسك واحدة وقال: «يمكنك النوم هنا، سنغادر مع أول خيوط الفجر».

استدار ليغادر وتبعته عند الجزء الحاد من الصخرة الذي يقطع المياه وقلت: «سأبقى هنا». ازدردت ريقي بصعوبة، وحاولت أن أبدو واثقة وهادئة.

التفت يواجهني: «ماذا؟!».

«من المستحيل أن ينام بمفرده هنا. سيكون ميتًا بحلول الصباح».

تأملني ببطء محاولًا استشفاف أفكاري. كان هو وإيري وميرا الوحيدين الذين بوسعهم القيام بذلك.

«لقد سافرت معه لعدة أيام، إنه لا يشكل تهديدًا لي. وإذا صار كذلك، فبوسعي الاعتناء بنفسي».

تساءل بتردد: «ما الأمر، يا عزيزتي؟».

«نحتاج إليه للعودة إلى فيلا، للقاء الريكي». تنهدت وأردفت: «ثق بي، أرجوك».

مد يده نحوي، ورأيت عينيه تنزلقان مجددًا إلى الندوب على عنقي، ثم جذبني إلى ذراعيه موافقًا: «حسنًا».

ازداد الألم الممض في كتفي حين عانقني بقوة، ودفنت وجهي في جسده الضخم، أملأ أنفي برائحته المألوفة، فعاودتني ذكرى موسم القتال، ونحن نستعد في خيمتنا كل ليلة في أورفانجر.

ناولني حصيرة، ثم توجه في الظلام نحو الأكواخ، دون أن يلتفت للوراء. لطالما كان يثق بي كليةً، ولكنني أشعر بأن تلك الثقة تتزعزع وتكاد تتحول إلى شك. عدت إلى النتوء الصخري،

وبسطت الحصيرة على الرمال. ما زال الصمت، الذي ران علينا ليلة بقائنا في هيلي، سائدًا. وترددت كل نظرة وكلمة غير منطوقة في أعماق كل منا.

«يجب أن تذهبي معه».

أدخلت يدي في الحزام الخلفي، وأخرجت سكينه التي خبأتها في قميصي، ومددتها نحوه.

نظر إليها وتساءل: «هل سأحتاج إليها؟».

«لا أتمنى ذلك». إذا حدث شيء وقتل فيسك أحد الأسكا، فسأتحمل الذنب، وستنتهي أي بارقة أمل في التكاتف معًا.

تقدم خطوة نحوي، لكن بدلًا من تناول السكين، أمسك معصمي. والتفت أصابعه حول ذراعي فتسارعت نبضات قلبي. «يجب أن تكوني حذرة». أشعلت لمسته اللهيب في قلبي. «إذا ظن الأسكا أنكِ تحميننى، فلن يثقوا بكِ». ضغطت أصابعه عميقًا. «يجب أن يثقوا بكِ، يا إيلين. كلانا بحاجة إلى ذلك».

نظرت إلى يده على جسدي ثم إلى وجهه، وتذكرت تلك اللحظة في أورفانجر بكل وضوح، اللحظة التي رأيته فيها لأول مرة، منتصبًا في الضباب، وقد استل سيفه.

همست وأنا أسأله مجددًا: «لماذا جئت؟».

اقترب خطوة أخرى، وانقبضت كل عضلة في جسدي، تنتظر. «أنتِ لا تريدين حقًّا أن تعرفي السبب». وانزلقت يده أسفل ذراعي نحو السكين، والتقطها، ووضعها خلفه في حزامه، ثم أردف: «والسبب الآن ليس مهمًّا».

كان محقًّا. لم أكن مستعدة لسماع السبب، بل لم أكن مستعدة للتفكير فيه، لم تترك أفكاري مجالًا لمحاولة معرفة معنى ذلك وما سيحمله من تبعات، فقد نلقى جميعًا حتفنا في الأيام القليلة المقبلة.

نظر إلى المياه بينما استقر على حصيرتي وقال شاردًا: «لم تخبريهم بأمر إيري».

«لم أستطع».

«ستضطرين لذلك».

همست: «أعلم».

أطلت وجوه صغيرة من فوق الصخرة بينما أتقلب وأستيقظ. وعندما نظرت لأعلى، قفزوا إلى الأسفل، يركضون على الضفة ويثيرون الرمال حولهم.

انحنى فيسك، ونثر الماء على وجهه، وأجال بصره في الشاطئ. كانت المياه أكثر هدوءًا صباح اليوم، ورأيت أن النهر كان واسعًا؛ أوسع من أي نهر رأيته في حياتي. وعلى كل جانب، انتصبت الجروف العالية فوق الضفاف الرملية الصغيرة.

اعتدلت وانحنيت للأمام لأرى أن الجزء البارز من النتوء كان أطول مما حسبت. لقد استخدموا كل بوصة من الرمال تحته؛ فصنعوا المآوي، وشباك الصيد، وحفر النيران، والمناضد. كما نحتوا مستطيلًا كبيرًا في الجدار، وعلقوا فيه الأقواس والسهام والسيوف والسكاكين جنبًا إلى جنب في صفوف مرتبة. وبعيدًا، كانت بعض القوارب الخشبية الصغيرة معلقة من السقف بواسطة نظام من الحبال يمتد إلى الجدار ومثبت في الأرض. كان من الصعب العثور على هذا المكان. وإذا حاول أحدهم الهجوم، فسيضطر لعبور النهر أو هبوط الجرف. كان موقعًا مثاليًا للاختباء والكمون.

وكانت تلك الفكرة مؤلمة؛ الأسكا يختبئون؛ قبيلتي القوية والشرسة تتوارى في الظلال.

مسح فيسك الماء عن وجهه، وقال وهو ينظر إلى النتوء: «مذهل ما فعلوه هنا»، ثم وقف، ومد يده ليجذبني للنهوض.

أبصرت عند الضفة مجموعة من النسوة يمشين على الشاطئ، ويسحبن خلفهن صفوفًا من الأسماك، وأعينهن تراقبنا.

قلت بصوت مبحوح من النعاس: «يجب أن نذهب».

عندما بلغنا النتوء الصخري، أبصرت أبي وميرا وهاجن ورجلين آخرين يسيرون نحونا عند حافة الماء. ابتسم لنا رجل بشعر طويل مضفور، وهو يمد يده برغيف خبز صغير، فتناولته عندما لم يفعل فيسك، وقطعته إلى نصفين وأعطيته قطعة، فأخذها وهو متردد.

قال والدي: «كم يلزمنا من الوقت للوصول هناك؟».

أجاب فيسك: «يومان، وربما ثلاثة، وفقًا لحالة الثلوج».

كان إسبن وهاجن خلفنا يسحبان قاربًا من الحبال على السقف الصخري.

نظر أبي لي ثم اتجهت عيناه نحو القوارب وقال: «سنلتقي بكِ في أورفانجر».

توتر فيسك.

تقدمت نحو والدي، وقلت بصوت خفيض: «سأذهب معكم».

نظر إليّ مقطبًا جبينه، وهو يتساءل: «لماذا؟ لقد عدتِ من هناك للتو. لقد عدتِ إلى ديارك».

«هذه ليست دياري».

«ستذهب ميرا، وستبقين».

«إنني أعرف القادة، وأعرف القرية. سوف تحتاجون إليّ هناك». نظرت إلى عينيه مباشرة، حريصة على عدم السماح له برؤية أفكاري. لكنه كان يستطيع سبر أغواري. لطالما كان بوسعه ذلك، ولن يعجبه ما سيراه. أردفت: «أرجوك».

نظر إلى الماء مفكرًا، ثم قال لإسبن: «حسنًا». لقد اختار أن يثق بي. وتساءلت عما إن كانت تلك ستكون المرة الأخيرة.

رفع فيسك حقائب السرج على كتفه وتبعه إلى القارب، حيث وقف هاجن يثبته بينما نصعد، وقد غاصت قدماه في الماء. راقبتني ميرا وهي تمط شفتيها، كنت أعرف هذه النظرة؛ إذ كانت تشعر بالقلق.

منحتها ابتسامة صغيرة، لكنها لم تبدُ مطمئنة، وتحول بصرها إلى فيسك ثم عاد إليّ في تساؤل لم أجب عنه؛ لأنني لم أستطع أن أجعلها تفهم شيئًا أحاول أنا شخصيًّا فهمه.

أمسك والدي يديها وجذبها إلى الداخل.

أفسحت لها مكانًا قائلة: «لست مضطرة للقدوم».

أمسكت مجدافًا وجلست، بينما القارب يتمايل. «أسرتي الوحيدة المتبقية موجودة على متن هذا القارب».

طفا القارب فوق المياه العميقة، بعيدًا عن إسبن وهاجن اللذين وقفا على الشاطئ. تبادل إسبن ووالدي نظرة معينة صامتة. وعندما جاوزتني عينا أبي، واتجهتا نحو النهر، شعرت بغصة في قلبي، وأدركت أنه يتحاشاني، كنت أعرف دائمًا حين يخفي شيئًا.

نظرت إلى هاجن وإسبن خلفنا، لكنهما غابا عن الأنظار، وأخذ فيسك يتأمل أبي. لم تفته النظرة الصامتة بينهما.

راقبنا الجرف بينما نطفو عبر المضيق، وامتد النهر أمامنا وخلفنا. أمسكت ميرا أحد المجدافين في الماء، لتدير الدفة ضد التيار لنبقى بعيدًا عن الصخور، بينما أمسك والدي المجداف الآخر لتوجيه الجزء الأمامي من القارب. واستمر النهر في التدفق حول المنعطفات، حتى بلغنا منطقة ضحلة، ووثب أبي لتوجيه القارب إلى الشاطئ. وقفزت مع

فيسك في الماء، كي نساعده على سحبه إلى رمال ضفة صغيرة تقع أسفل جرف آخر، وخرجت ميرا بعدنا.

انزلقت الصخور على جانب الجرف حين تدلى فوق رءوسنا سلم من حبال. اصطدم طرفه بالأرض المبتلة بينما انحنى ثلاثة رجال فوق الحافة. صعد فيسك أولًا، وعندما ارتفعت قدماه فوق القمة، أمسك والدي السلم. ثبت يديّ وحذائي على الدرجات المهترئة للحبل.

ما زالت عينه تتحاشاني.

«ما الذي تخطط له مع إسبن؟».

تقدمت ميرا وناولت أبي حقيبة، ثم نقلت بصرها بيننا.

نظر إلى حافة الجرف حيث اختفى فيسك للتو. «إن ولاءنا للأسكا، يا إيلين، تعلمين ذلك».

قالت ميرا بتحدٍّ: «إنها تعلم، يا آجي».

تأملت وجهه. «أفهم ذلك. لكننا بحاجة إلى الريكي. أنت تفهم، أليس كذلك؟».

ظهر فوقنا رأس فيسك أعلى الجرف.

قال والدي منهيًا الحديث: «لنذهب».

سحبت نفسي لأعلى، وعاودني الألم الحاد في ذراعي. وعندما وصلت إلى القمة، أمسك فيسك سترتي ورفعني إلى الأرض.

التفتُّ قائلة: «دعني ألقِ نظرة عليها».

«لاحقًا». ثم التفتُّ أراقب أبي وميرا في الأسفل.

مال فيسك بجواري وقال هامسًا: «لن أصطحب قومك إلى فيلا إذا لم أستطع الثقة بهم. يجب أن تخبريه بأمر إيري».

كنت أعلم أنه على حق، ولكنني كنت أعرف والدي، فقلت: «قد يحطمه ذلك».

حدق فيسك إلى عينيّ وقال: «مَن يدري، ربما يجعله يغير رأيه».

الأربعون

أبحرنا ونحن نهتدي بالمنحدرات في طريقنا إلى فيلا. وجلس والدي وميرا معًا خلفنا، وقادنا فيسك، ماضيًا إلى الأمام دون الالتفات إلينا. ولم يتفوه والدي وميرا بكلمة حين أعدت لفيسك أسلحته مجددًا. لكن عندما شاهداه يضع غمد السيف حول خصره أدركت أنهما لم يعجبهما ذلك مطلقًا.

ظهر الجبل في الأفق عندما تبددت سحب الضباب، ولاحت معالمه الداكنة فوقنا، يحدق للأسفل كأنه يرانا. وكأن ثورا تُراقبنا، وتستمع. بدا فيسك صغيرًا أمامه، وتخيلت كيف يبدو مظهرنا من هناك؛ أربع هيئات صغيرة تتحرك ضد بحر الشتاء.

كنت بين فيسك والآخرين.

بين الأسكا والريكي.

نصبنا المخيم قبل أن نصل إلى الوادي، ولم يتحدث أحد عندما أشعلنا النار وافترشنا الأرض بعباءاتنا. ورغم أن الليالي كانت تزداد دفئًا كل يوم، فإنها صارت أكثر برودة حين توجهنا صوب فيلا. وسَرَت في جسدي رجفة حين تذكرت البرد الذي كان ينخر في عظامي. ما زلت أتذكر الغابة الزرقاء المظلمة التي كدت ألقى حتفي فيها، حين حاول ثورب قتلي في تلك الليلة.

مررت حقيبة السرج من ذراعي بحذر، لكيلا أوقظ الألم.

مد فيسك يده نحو ذراعي قائلًا: «دعيني أساعدك». لكن والدي تقدم للوقوف بيننا. وسحب فيسك يده، وأشار بذقنه نحو كتفي. «لقد انفتح جرحها من جديد».

حدجني والدي بنظرة متفحصة، ووضع يده الثقيلة على ذراعي، فأجفلت. تساءل: «ماذا حدث؟».

أزحته جانبًا وأجبت: «أُصبت بسهم في كتفي، والجرح يلتئم».

نظر فيسك إليّ قائلًا: «إنه لا يلتئم، دعيني أفحصه».

نظر والدي إلى فيسك بحذر: «هل أنت معالج؟».

«أمي معالجة، لقد قمنا بعلاجها».

ضيق والدي عينيه تجاهي، دون أن يفارق وجهي، واختلجت زاويتا شفتيه، واتجهتا للأسفل بينما تمرق الأفكار في ذهنه. كانت الثقة الواهنة بيننا تتأرجح في مهب الريح. ثم أومأ برأسه، فحللت سترتي المدرعة تحت ذراعي، ورفعها فيسك فوق رأسي، وسحب كتفي من قميصي. كانت الكدمات الجديدة تحيط بالقديمة، والمنطقة الخلفية من الجرح ما زالت تلتئم. لكن الجزء الأمامي كان متورمًا وينزف دمًا.

«اجلسي». مضى فيسك إلى حقيبته وعندما عاد، كان أبي يقف بجواري.

تساءل: «كيف حدث ذلك؟».

شد فيسك جسده.

«حاولت الهروب عندما أخذوني إلى فيلا، وأطلق أحدهم سهمًا في اتجاهي».

تناول فيسك دهانًا كانت قد أعطتنا إياها إنجيه. وفور أن استنشقت الرائحة، عادت إليّ ذكرى وقوفها بجوار النيران في بيتهم، تقلب القِدر الحديدية الكبيرة.

مال نحوي وقال: «يجب أن نطهره».

أومأت بتنهيدة، وأنا أعلم معنى ذلك. «افعلها». انتزعت السكين من حزامي وناولته إياها.

توتر والدي وتقدم خطوة بالقرب مني. وضع فيسك النصل في اللهب لهنيهة، وقلبه فعكس الضوء. وحين أخذ يتوهج، رفعه وتركه يبرد في هواء الليل. وضع مقبض السكين بين أسنانه، بينما سحب برفق فتحة الجرح بإبهاميه. أغمضت عيني، وتساقط على ذراعي القيح. وانتشر الألم من كتفي إلى بقية جسدي، فأحسست برأسي وكأنه سينفجر.

وضع يدي على القماش أسفل كتفي قائلًا: «أمسكي هنا».

وضع طرف النصل عند فتحة الجرح وقطعها بسرعة. فعضضت بقوة، وأخرجت نفسًا طويلًا ولاهثًا. وانبجست الدماء تسيل بغزارة على بشرتي ويمتصها القماش. ضغط فيسك على ذراعي لإخراج أكبر قدر من الدماء الفاسدة. تأوهت، وتشبثت بساق والدي الذي وقف بجانبي ودفنت وجهي فيها، وأخذت ألهث؛ من الألم المبرح.

عندما فرغ فيسك، مرر الدهان على الجلد المتشقق، وربطه بإحكام بضمادة جديدة. ووضع السكين مرة أخرى في النار، وغلت دمائي على النصل، بينما عصف الألم الممض بجسدي.

استرخى والدي فور ابتعاد فيسك عني، وعاد إلى النار وتناول قطعة من اللحم المجفف من حقيبته. وناولني إياها، لكنني كنت أشعر بالغثيان فلم آكلها. وجلست ساكنة، كي يهدأ الألم المبرح.

تناولوا طعامهم في صمت ثقيل حين جن عليهم الليل. والتففنا حول النار بيننا محدقين إليها في شرود، حيث أججت أفكارنا الخفية. كانت ميرا بالتأكيد تعرف ما يخفيه أبي، أعرف ذلك لأنهما لم يتبادلا النظر.

عندما مضى والدي إلى الغابة لجمع المزيد من الحطب، وقفت. وفهمت ميرا حركتي وتبعتني إلى الأشجار، تاركين فيسك عند النار. لحقت بوالدي، وانحنيت لالتقاط الفرع

السميك الذي شطره للتو ببلطته. ضممته لصدري، وانتظرته ليضع الخشب على ذراعيْ ميرا.

«ما الأمر؟». كان بوسعه الشعور بترددي الذي يبدو ظاهرًا.

حاولت الوقوف بثبات على قدميّ، لأستجمع قوتي، وكأنني إذا وقفت ثابتة، فلن تهزني الكلمات التي سأنطقها. «أود أن أخبرك بشيء».

استدار واستند إلى الشجرة خلفه، وعلق إبهاميه في سترته المدرعة. ومن خلفه نقلت ميرا الخشب إلى وركها، في ترقب.

قلت بصوت جاف: «إيري حي يُرزق».

رنت الكلمات في أذنيّ كأنها زئير أجش. وترددت في الغابة وامتدت حولنا كأفعى. تصلَّب وجه والدي. وتوقفت أنفاسه، ولم أشح بوجهي عنه. واصلت النظر إليه محاولة إعطاءه شيئًا يتشبث به، بينما العاصفة تثور في ذهنه.

«إنه حيّ. رأيته في ذلك اليوم في أورفانجر. كان يقاتل مع الريكي». كانت الكلمات تصغر كلما خرجت من فمي.

ابتعد والدي عن الشجرة، وأسقط يديه بجانبه.

«لم يكن ميتًا. عندما تركناه في الأخدود، لم يكن ميتًا. أخذه الريكي إلى فيلا، وآوته معالِجتهم».

تكلم والدي أخيرًا: «ماذا تعنين بـآوته؟». كان صوته مختنقًا، ولاح الغضب في عينيه.

«الصبي الآخر في الأخدود... كان فيسك. أنقذ حياة إيري. وأخذوه إلى فيلا وعالجوه و...». أردفت متنهدة: «لست أدري، لقد انضم إليهم».

نظر والدي إلى السواد الحالك للغابة وقد عقدت المفاجأة لسانه.

استطردت قائلة: «وجدته مرة أخرى في آخر معركة، وأَسَرني ليمنع الريكي من قتلي، كان يخطط لإبقائي معه في فيلا حتى ذوبان الجليد ثم السماح لي بالهروب».

مرر يديه على وجهه وزفر فيهما بحرارة.

«لقد عاش إيري مع عائلة فيسك طوال السنوات الخمس الماضية».

استدار نحو الوهج البرتقالي عند الأشجار بعيدًا، حيث كان فيسك جالسًا بجانب النار.

تقدمت ميرا نحوي وسألت: «لماذا لم يأت معك؟ لماذا لم يعد إلى الأسكا؟».

نظرت إلى قدميّ وأجبت: «أخبرته بأن يبقى، كنت خائفة مما قد يحدث له إذا جلبته معي، أردت أن أخبرك أولًا».

أخذ والدي يذرع المكان أمامي.

«لقد صارت عائلة فيسك عائلته الآن». لم أكن بحاجة إلى رؤية وجهه لأعرف تأثير تلك الكلمات عليه؛ لأنني أتذكر وقعها عليّ، ولكنني لم أشح بنظري بعيدًا. استجاب جسده لكلامي، وتصلب؛ من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. استطردت: «لا أفهم ما حدث؛ لكنه أصبح واحدًا منهم».

اندفعت أصوات مخلوقات الغابة حولنا في الليل، وحدجني لبرهة ثم نظر أخيرًا إلى ميرا. وتبادلا النظرة نفسها، لكن هذه المرة تصلب فكها، وتشبثت ذراعاها بالخشب. واستحال السؤال على وجهها غضبًا، وجمعت بقية الخشب ومضت نحو المخيم، وتركتنا. وقفت مترقبة، لم أستطع تخمين رد فعله.

لكن عندما ارتفعت عيناه أسفل حاجبيه الكثَّين، لتنظرا إليّ مجددًا، رأيت الدموع تترقرق فيهما، وكان أنفه محمرًا.

قال هامسًا بصوت مكبوت ومختنق: «لقد تركناه».

أومأت برأسي، والدموع في عينيّ تعكس ما يشعر به: «لكنه حي يا أبي، حي يُرزق».

الحادي والأربعون

تراءي لي الدب ثانية في أحلامي.

وقفت في الطريق الملتوي في فيلا، وقد غاصت قدماي في الثلج، كانت ندف الثلج تهطل متلاصقة في كتل كبيرة، وتهبط على الفراء البني الذهبي المحيط بوجهه، فنظر إليّ بعينين سوداوين واسعتين، واللتين تشبهان سماء الليل بلا نجوم لا نهاية لها.

زحفت نظرته الثاقبة على جسدي، فارتجفت ورفعت يدي ومددت أصابعي نحوه. نظر إليها، واقترب خطوة صغيرة نحوي، حتى شعرت بأنفاسه اللاهثة على وجهي.

لكنه تلاشى بعدها.

تلفتُّ حولي في القرية الخاوية، لكن الدب قد اختفى. ما زالت آثار أقدامه منطبعة على الثلج أمامي.

شهقت، وفتحت عينيّ، واستنشقت الرائحة الباردة التي كانت في حلمي. أغلقت عينيّ، ومررت يديّ المخدرتين مرة أخرى على الفراء. كان فيسك مستلقيًا على الجانب الآخر من النار، وذراعه تحت رأسه، وقد أزال النوم التوتر عن وجهه.

سمعت حركة خافتة ومتأنية لوقع أقدام، فمددت يدي نحو سكيني. لم أتحرك، لكنني فتحت عينيّ على اتساعهما حتى تتأقلما مع الظلام. مر ظل فوقي، على الأرض أمام النار. وحين رأيت صاحبه، كان الأوان قد فات.

كانت ميرا واقفة فوق جسد فيسك، وبلطتها مرفوعة فوق رأسها.

صرخت: «لا!»، وألقيت الفراء عني واندفعت.

لامس اللهب ساقيّ وأنا أقفز فوق النار. وكان فيسك قد تحرك جانبًا. وسقطت بلطة ميرا على الأرض حيث كان رأسه موجودًا للتو. ونهض والدي، واستل سيفه. ألقيت جسدي بين ميرا وفيسك، والسكين بيدي.

صوبت ميرا نظرة غاضبة نحوه، ورفعت بلطتها وقالت: «ابتعدي!».

جاء صوت والدي محذرًا إياها: «ميرا».

لكنها لم تسمعه، ولم يؤثر فيها. وتقدمت منها فطوحت البلطة نحوي، وكادت تصيب صدري.

هرع فيسك بجانبي، وأمسك معصمها بيده، وقبض بيده الأخرى على عنقها.

طوقته بذراعيّ، وجذبته للخلف وأنا أصيح: «اتركها!».

طرحها أرضًا فسقطت على ظهرها؛ لكنها ما لبثت أن انتصبت على قدميها، ولاحقته. أمسكت سترتها، ودفعتها نحو خط الأشجار وهتفت: «ماذا تفعلين؟».

نظرت إلى أبي وقالت من بين أسنانها: «سأقتله مثلما اتفقنا!».

التفتُّ إلى أبي وأجاب وجهه عن سؤالي: «ماذا؟ كنت ستخوننا؟».

قالت ميرا بصوت متوتر: «ستخوننا؟».

دفعتها للخلف قائلة: «لقد عقدنا اتفاقًا معه، يا ميرا».

التفتت ميرا نحو والدي: «لقد سمعت ما قاله إسبن».

وقف فيسك على الجانب الآخر من النار يستمع وقد استل سيفه.

أعاد أبي بلطته مجددًا إلى غمدها قائلًا: «كان ذلك قبل أن أعرف بأمر إيري».

صرخت وهي تنقل بصرها بيني وبين أبي: «ما خَطْبكما؟ إنهم الريكي. سيقتلوننا جميعًا حالما تسنح لهم الفرصة!».

صحت وأنا أتمنى تصديق ما أقوله: «لا، لن يفعلوا».

تلعثمت كلماتها؛ من الغضب وهي تقول: «إذا بقينا في فيركي، فلن يجدنا الهيريا، وسنكون بمأمن هناك، وسنجد قرية الريكي، ونقتل فيسك حتى لا يرشدهم إلى مكاننا، ثم نعود للآخرين لنجهز عليهم. كان ذلك ما اتفقنا عليه. ولا يهمني أن إيري على قيد الحياة، فقد خاننا جميعًا!».

اقتربت مرة أخرى من فيسك، ورفعت بلطتها فأشهرت سكيني وقلت مزمجرة: «إياكِ!». لن أؤذيها أبدًا، سأموت قبل أن يحدث أي شيء لميرا، لكنني لن أسمح لها بقتل فيسك.

اتسعت عيناها تحدقان إلي وتساءلت بصوت خفيض: «لماذا تفعلين ذلك؟».

أجبت: «البقاء على قيد الحياة!». لكنها كانت نصف الحقيقة فقط؛ فالأمر يتجاوز ذلك.

راقبتها وهي تفكر، كنت أعرف ميرا جيدًا، كنت أعرف ما ستفعله قبل أن تفعله. دارت على عقبيها، وتجاوزتني متجهة نحو فيسك. انقضضت عليها وسقطنا على الأرض بقوة، وتدحرجنا نحو الأشجار. خدشت بلطتها ساقي، ومزقت سروالي، وثبتتني أرضًا.

تقدم فيسك نحونا، لكن أبي أمسك به وأعاده للوراء. «لا تفعل».

نظرت إلى ميرا، وأبصرت النظرة الشرسة المجنونة. كانت تمنح أعداءنا هذه النظرة في المعركة، والآن تحدجني بها. تدحرجت، وجثمت فوقها، وضربت معصمها بعقب سكيني، محاولة تحرير البلطة من قبضتها لكنها ألقتني بعيدًا.

لم أمهلها لتطوح بها، وألقيت سكيني، وراقبتها إذ تدور في الهواء بجوار وجهها ثم تنغرز في جذع شجرة خلفها. تجمدت وحدقت مصدومة، ووجهها يتباين بين صديقتي الصدوق وبين المحاربة الشرسة التي تقاتل بجانبي. واغرورقت عيناها بالدموع الساخنة وهي ترمقني. ثم ركضت. وألقت البلطة على الأرض وعندما وصلت إليّ، ضربت وجهي بقبضتها. حنيت رأسي جانبًا وانقضضت عليها وأسقطها مجددًا.

ضربتها بشدة وصرخت: «ما خَطْبك؟».

ركلت وقاومتني، لكن بلا جدوى. تسربت قوتها وغضبها، وحلَّ محلها شعور بالهشاشة والضعف ملأ عينيها حتى سالت الدموع على خديها، فغطت وجهها بذراعيها ترتجف.

قلت وأنا أسحب ذراعيها محاولةً رؤيتها: «ميرا»، لكنها دفعتني بعيدًا.

عندما وقفت على قدميها مجددًا، مضت تترنح باكية نحو الأشجار.

«ميرا!». مددت يدي نحو كتفها؛ لأجعلها تستدير، لكنها تملصت، وتعثرت. وأمسكتُ سترتها ولم أتركها.

التفتت لتواجهني، وقد احمرَّت عيناها الكحيلتان وانتفختا.

سألتني بكلمات متقطعة: «هل صرت واحدة منهم أيضًا؟ أتريدين أن تكوني واحدة منهم، مثل إيري؟».

نظرت مباشرة إلى عينيها، وأنا أصرخ فيها: «لا! أنا آسكا، يا ميرا، أريد أن يبقى شعبنا على قيد الحياة، هذا كل شيء».

تهاوت عليّ، ودفنت وجهها في كتفي، فطوقتها بذراعيّ وعانقتها بشدة. وأخذت تجهش بالبكاء وأنا أمسك بها. وقف والدي وفيسك يراقبان ما يحدث بيننا أمام النار كظلين أسودين.

صاحت: «أنا وحيدة ليس لي في الدنيا سواكما». ثم قالت بصوت هامس متوسل: «رجاءً لا تتركيني. أرجوكِ».

رفعت رأسي لأنظر إليها وقلت بصوت يغالبه الانفعال: «أنتِ لست وحيدة، وأنا لن أتركك أبدًا».

ازداد ثقل جسدها بين ذراعيّ، وعندما لم أعد قادرة على حملها، انزلقت إلى الأرض وجذبتها إلى حضني. وهمست في شعرها: «إيلسكا يكار. إيلسكا يكار».

بكت كما لم تبك من قبل، ورددت الغابة نحيبها. بكت كل من فقدته؛ عائلتها، هيلي، الأسكا- كل شيء.

لم أتمالك نفسي وغالبتني دموعي، فسالت أنهارًا.

الثاني والأربعون

انزوت ميرا بعيدًا عنا، بينما كان فيسك يقودنا لصعود الجبل؛ لم تنبس ببنت شفة منذ الفجر، وكذلك فيسك. مشيت بينهما، أراقبها بينما الثلج يزداد كثافة تحت أقدامنا.

كان والدي مرهقًا في الغابة المغطاة بالثلج. وأخذ جسده الضخم يتمايل من جانب إلى آخر أمامي، بينما نصعد المنحدر. وكان الهدوء الذي اكتنفه يبدو كعبء نجرُّه خلفنا. ولم أستطع معرفة ما يدور في قلبه. كنت أعلم أنه سعيد بأن إيري حي، لكن المحارب داخله ربما يرغب في قتله. والأدهى من ذلك أن الذنب سيطاردني ويطارده لبقية حياتنا، لقد تركنا إيري، هذه هي الحقيقة ولا مفر منها.

كان صعود الجبل أشد وعورة من الهبوط. قادنا فيسك عبر كهوف زرقاء متجمدة، بينما شرع الثلج يتساقط من جديد. وارتفع الجليد حولنا كأمواج متجمدة في الجو، وصدى خطواتنا يتردد من حولنا أثناء المسير.

عرفت أننا قريبون عندما انفرجت الأشجار لتكشف مساحة زاخرة بالأعشاب ومزينة بأعواد القيصوم الطويلة والمتجمدة. وقد تحولت أوراقها إلى اللون الأصفر بفعل البرد القارس، وغدت رءوس الزهور هشَّة منذ زيارتي الأخيرة. مررت يدي فوق قممها ونحن نتوغل فيها، وتذكرت اختباء هالفارد وراء فروعها الطويلة، وتلصصه وأنا جاثمة على التراب. أمسكت واحدة وانتزعتها ودسستها في عباءتي.

لاح أمامنا الدرب المؤدي إلى القرية حين انسدل الظلام على الغابة. وأوقفنا فيسك بإشارة من يده. «سأعطي إشارة لهم، إنهم يعلمون بقدومنا».

نظرت ميرا إلى نهاية الطريق.

أحكم أبي قبضته على حزامه قائلًا: «سنحتفظ بأسلحتنا».

أومأ فيسك، لكن التوتر كان باديًا على وجوههم. وتصاعد بداخلي التوتر نفسه. كنت أقود عائلتي إلى عرين العدو.

نظر والدي في اتجاه القرية وتساءل: «هل إيري هناك؟».

أجبت محاولة تهدئة صوت الشك بداخلي: «نعم».

«أود أن أراه، أريد أن أراه أولًا».

أومأ فيسك ثم تقدم نحو الأشجار وأطلق صفيرًا. وانتظرنا يخيم علينا السكون فيما عدا دقات قلبي التي لا يسمعها سواي، حتى دوّى صفير مجددًا، فقال: «سنلتقي بهم في دار الطقوس».

قال أبي بنبرة حادة: «كلا».

هززت رأسي نحو فيسك؛ كان والدي يؤمن بالخرافات، ومن المستحيل إقناعه بدخول دار طقوس ثورا.

قال فيسك موافقًا: «إذًا، سنقابلهم في بيتي».

حرر والدي وميرا بلطتيهما من غمدهما، وتقدما بخطوات ثقيلة. وفعلت مثلهما، وتحسست بأناملي بلطتي على ظهري. وعندما ظهرنا أخيرًا، تعثرت خطواتي، واتسعت عيناي. كان الظلام يلف كل شيء، لكن المنازل كانت مضاءة كنقاط صغيرة في مسار متعرج، وقد تمركزت قبائل الريكي في كل حيز. كانوا يغطون كل شبر من القرية.

كان الريكي مسلحين، وعلى أهبة الاستعداد للقتال.

تباطأت خطواتي، وحرر أبي وميرا سيفيهما. ووضعت يدي تلقائيًا على مقبض سيفي، واستيقظت بداخلي غريزة الدفاع. لم يسبق لي رؤية هذا العدد من الريكي مجتمعين في مكان واحد منذ أَسْري في أورفانجر.

لازمنا طرف القرية، وتحركنا بطول الأشجار، متوارين عن الأنظار. وتقدم فيسك إلى جانب والدي من الجهة الأخرى، وسحب بلطته من ظهره. وسار أربعتنا متجاورين، كتفًا بكتف وأسلحتنا جاهزة. وإذ كنا نقترب أكثر، استدارت الرءوس نحونا، كتموج في الماء، كانوا هادئين، وأعينهم تلمع.

أحاطت بنا، ونحن نصعد المنحدر، النظرات الباردة والهمسات الغاضبة. واندلع رنين المعركة داخل صدري، وجعلني مستعدة للالتفات وتطويح بلطتي. نظرت إلى عيونهم حين مررت بجانبهم، أخبرهم بما لم أقله بصوت عالٍ.

إننا لسنا خائفين.

وإنني سأقتلهم.

وإن ما تبقى لأخسره كان موجودًا هنا في هذه القرية.

قادنا فيسك نحو البيت المألوف المكسو بالألواح الخشبية، والقابع على أطراف القرية، وأطلق صفيرًا مرة أخرى، فيما كان الدخان يتصاعد من السقف وفُتح الباب.

وقفت إنجيه وقد شبكت يديها معًا على صدرها، وشعرها الأسود الطويل المبعثر يتناثر على كتفيها كجناحي غراب.

خدش الصمت صوت هالفارد الحاد: «فيسك!».

ظهر عند المدخل واندفع نحو فيسك، ولف ذراعيه حول وسطه، وربَّت فيسك ظهره، وما زال يراقب من حولنا. وحين فتح هالفارد عينيه، ترك فيسك، وركض حتى اصطدم بي.

رفعت بلطتي في الهواء وعانقته بيدي الأخرى، وأفلتت مني ابتسامة. وقد سحبت زهرة القيصوم من عباءتي وقدمتها له. اتسعت ابتسامته وهو يتناولها ثم ركض مرة أخرى للداخل نحو إنجيه.

راقبتني ميرا ووالدي، والصدمة ترتسم على وجهيهما، ثم تغيرت ملامح أبي، حين صوب بصره بعيدًا إلى الداخل، حيث وقف إيري في الظلال عند الحائط الخلفي. تهدلت كتفاه، وحنى جسده ليرى عبر المدخل.

ودون تفكير، اندفع فورًا، يجري على الثلج، وقد اجتاحته رغبة جامحة مكبوتة منذ زمن طويل، فيما تحركت إنجيه جانبًا لتفسح له الطريق، لكنه تجاوز البوابة قبل أن ألحق به. ثم دلف من الباب، متجاوزًا إنجيه. تبعته إلى داخل البيت وتوقفت فجأة، وقفز قلبي إلى حلقي.

كان أبي يلف ذراعيه معانقًا إيري بحرارة وهو يبكي على كتفه، وجسده يرتعش بالنحيب. ساد أنينه وشجنه المنزل ثم انتشر في أرجاء القرية. وكذا فعل إيري، فتغيرت ملامحه كليةً ووالدي يعانقه. أغلقت الباب بمجرد دخول فيسك وميرا، تاركة بقية الريكي خارجًا. وكانت رونا تقف بجوار النار تراقبهما وكفاها على مرفقيها. ووقفت إنجيه أيضًا تحدق عند الحائط.

كتمت البكاء الصاعد بقوة من صدري، لطالما كان والدي رجلًا ذا كبرياء، ولطالما تساءلت أيهما يكون له الغلبة في نفسه: دماء الأسكا التي تجري في عروقه أم حبه لإيري. تنفست الصعداء، وتلاشى توتري، واستكان قلبي. كنت أعرف أن انتماء إيري لنا يفوق خيانته. لكن حين أدركت أن والدي يعلم ذلك أيضًا، وقرت في قلبي هذه الحقيقة.

كان يهمس بشيء في أذن إيري، لكن لم أتبين ما كان يقوله له. أومأ إيري، ومسح وجهه محاولًا التقاط أنفاسه. كان يفوق والدي عرضًا، بينما تساوت قامتاهما الفارعتان. ومن خلفي أخذت ميرا تراقب المشهد بعينيْ محاربة، ولا تزال تقبض بيديها على أسلحتها.

سمعت صوت إنجيه اللطيف بجواري: «إيلين»، ثم ربتت على ظهري مبتسمة وهمست: «تسعدني عودتك».

استنشقت أنفي رائحةً ألفتها في هذا المكان؛ حبوب محمصة وأعشاب مجففة. قلت: «هذا والدي، آجي، وهذه صديقتي ميرا».

أومأت إنجيه نحوهما تحييهما، واقترب مني هالفارد متطلعًا إلى ميرا بفضول. مسح والدي وجهه بكُمه واستجمع شتات نفسه، وشعرت فورًا بالأمان. كنت مذعورة حين رأيته يفقد السيطرة. جال ببصره في البيت الصغير يتأمله، حتى وقعت عيناه على إنجيه، وتبادلا النظر في صمت.

سمعنا طرقة قوية على الباب، فتقدمت إنجيه لترفع المزلاج. وقف فيدر على الجانب الآخر من العتبة، ومن خلفه التالا. ووقعت عيناها عليّ أولًا. دلفا إلى المنزل، فانتشرنا على طول الجدار الخلفي، حيث دخل المزيد من الريكي الذين لا أعرفهم. نظر والدي إليّ ورأيت يده تقبض بإحكام على بلطته. كانت ميرا تقف في الزاوية وشرعت تراقبهم، وكانت وجوههم أيضًا يعلوها الارتياب.

وقف فيدر في طليعتهم ينظر إلى والدي من رأسه حتى أخمص قدميه، وهو يقول: «إننا سعداء بقدومكم».

تفرس فيهم والدي بدقة من اليسار إلى اليمين، كان يقف بجانبي، وسيفه معلق بجانبه، والدموع اللامعة ما زالت تتلألأ على خديه. لكن والدي كان رجلًا خطيرًا. والجميع يعرفون ذلك.

وقف هالفارد بجواري، ما زال يحدق إلى ميرا، ومد يده ليمس شعرها المسترسل لكنها تراجعت، مقتربة أكثر من الجدار للابتعاد عنه.

تقدمت التالا وأصابعها تتشابك في قلائدها، وقالت كاسرةً حاجز الصمت: «مرحبًا بكم في فيلا. عرفنا أن الأسكا تعرضوا لهجمات من الهيريا. وكما ترون، فقد تعرضنا لخسائر كبيرة أيضًا».

لم ينبس أبي بكلمة.

راقبه فيدر بعينين جامدتين وقال: «هؤلاء هم قادة القرى الأخرى؛ فريديس ولاثام وتورين وهيلدي». وأشار إلى وجوههم في الغرفة المزدحمة.

قال أبي مصححًا: «هناك سبع قرى للريكي».

أجابت فريديس: «لقد مات القائدان الآخران». كان طرف عباءتها معلقًا على كتفها، وتدلت منه ذراعها المصابة.

«ماذا تريدون منا؟». تولى أبي زمام الحديث مثلما يفعل مرارًا، حيث كان يسيطر دائمًا على الأمور.

«لدينا عدو مشترك، عدو قد يقضي علينا جميعًا». تقدم فيدر خطوة وأردف: «نريد من الأسكا الانضمام إلينا ضد الهيريا».

«وبعد ذلك؟ ما الذي سيمنع الريكي من الانقلاب على الأسكا بعد هزيمتنا للهيريا؟». كشف والدي عن قلقه الحقيقي، إذ كانوا سيكتشفون سريعًا أن الأسكا أضعف مما يبدون.

تطلع قادة القرى الأخرى إلى فيدر، كأنما يرغبون في سماع الإجابة مثلنا، والذي سرعان ما قال: «هدنة، ممنوع على أي منا أن يقاتل الآخر بعد مواجهتنا للهيريا. وحتى إذا كنا قادرين، فلن نقاتل بعضنا بعضًا».

سألت وعيناي تحدقان إلى التالا: «والحروب التي استمرت لأجيال هل ستنتهي بهذه البساطة؟».

ران الصمت ثم أجابت: «ربما اختارت الآلهة لنا طريقًا جديدًا».

ردد أبي والشك يقطر من كلماته: «طريق جديد؟!». انعكست تلك الكلمات على نظرة ميرا التي وقفت بجواري كالحجر الأصم.

«من العسير علينا أن نفهم مشيئة الآلهة أحيانًا، أليس كذلك؟ ما نعرفه هو أن الهيريا عادوا مجددًا من مكانهم الملعون أيًّا كان. ولا أعرف كيف تعامل الأسكا معهم، لكنهم قضوا على أكثر من نصف عشيرتنا في غضون أسابيع. وبعد شهر واحد قد نقضي نحبنا جميعًا. وسيعودون إلى الجبل وسيفعلون المثل مع الأسكا». نظرت إلى كل واحد منا واستطردت: «لكن بوسعنا أن نتكاتف معًا».

لم يبد على أبي الاقتناع، ورأيت الشك يطل من عينيه، إنه لا يثق بحفاظهم على الهدنة، وكذلك أنا.

قال: «الأسكا يوفون بعهودهم دائمًا».

ارتفع صوت فيدر في نبرة دفاعية: «وكذلك الريكي».

غمغمت ميرا: «الريكي الذين قتلوا أختي ربما يقفون بالخارج الآن».

قالت فريديس مزمجرة: «فقدت ابنين في أورفانجر خلال السنوات العشر الماضية. إنني لا أود الوقوف حول النار التي يقف الأسكا حولها. ولا أود الوثوق بأحدهم خلف ظهري في معركة. لكن لديّ ابنين آخرين». ورفعت يدها مشيرة إلى الباب وأضافت: «بالخارج هناك».

جذبت إنجيه هالفارد إليها وسألتها: «هل تستطيعين التخلي عن الثأر الدموي، يا فريديس؟».

«من أجل إنقاذ أبنائي أستطيع أن أتخلى عن أي شيء».

«لكن هل بوسع الآخرين فعل ذلك؟». نظرت إلى التالا، ثم عادت عيناي إلى ميرا: «هل يمكننا؟».

مدت التالا يدها إلى حزام فيدر وأخرجت سكينه. وبحركة سريعة واحدة جرحت راحة يدها، وامتلأت بالدماء.

مد فيدر يده نحوها: «تالا؟».

تقدمت ونظرت إلى والدي ثم مدت يدها نحوي.

التصقت بالحائط وهو يردد: «ماذا تفعلين؟».

«أعرض عليكم عهد الدم». كانت تمد يدها في الفراغ بيننا، والدماء تقطر على الأرض.

شخصت الأبصار نحوها، لكنها كانت تنظر إليّ. كانت تعلم أنه أثمن شيء تقدمه. فمن المستحيل عليها أن تخرق عهد الدم، فحينها ستلعنها الحياة الآخرة. وإذا أراد أحدهم أن يخالف التالا، فسيضطر إلى قتلها، وإزهاق روح التالا سيجلب المصير الأسود نفسه للقبيلة بأكملها.

سحبت سكيني قبل أن يعترض أحد، وجرحت يدي وأمسكت يدها. ابتسمت، وضغطت راحة يدها على راحتي.

راقبنا فيدر بقلق واضح. لقد وضعت نفسها في موقف حساس، وربطت نفسها بي. وإذا كان يضمر شرًا للأسكا، فقد حبط عمله الآن بالتأكيد.

التفتت التالا إلى أبي وقالت: «افعلوا هذا وسنكون مدينين لبعضنا بعضًا؛ إنه دَين لا يمكن سداده أبدًا».

كان فيسك هادئًا، يقف مع إيري ورونا خلف الطاولة المكدسة بحزم من القصعين الطازج. وأخذ يختلس عدة نظرات تجاهي.

لم أشأ التفكير في معنى كل ذلك، وما قد يعنيه مستقبل كهذا. وشعرت بأن الثقل، الذي حملته منذ اليوم الذي نظرت فيه إلى عيني الدب عند النهر، يثبتني بالأرض. أرجعت كتفيّ اللتين تؤلمانني للخلف لأمددهما.

بدت الغرفة فجأة ضيقة؛ كان الهواء ساخنًا، ولم أستطع التنفس.

خطوت جانبًا، ووجدت منفذًا إلى الباب، فتسللت بهدوء إلى الخارج، وأخذت أعبُّ الهواء، بينما أهرع نحو الحديقة، حيث حرثت إنجيه صفوفًا للزراعة. سحبت بلطتي من غمدها، وفتحت ياقة قميصي لأبرّد بشرتي. كانت الشجرة على حافة الغابة ممزقة بضربات البلطات. رفعت ذراعي فوق رأسي وألقيت البلطة إلى الأمام مرسلة إياها عبر الهواء. فانغرزت بقوة في جذع الشجرة بصوت عالٍ.

صر الباب فلم أستدر لأنظر إليه. كان الشعور به كافيًا. بتُّ آلفه الآن. نظرت إلى بلطتي المغروزة في الشجرة.

تحدث فيسك من خلفي: «سيغادرون عند الفجر للعودة إلى فيركي».

مضيت نحو الشجرة وحرّرت البلطة، وضغطت بإبهامي على نصلها متسائلة: «وماذا بعد ذلك؟».

«ثم يعودون بالأسكا، سنلتقي بهم في أورفانجر بعد يومين».

ضغط إصبعي بقوة أكبر على المعدن: «وبعد ذلك نموت جميعًا؟».

«ربما»، ظل على مسافة مني. «هل ستذهبين معهم؟ هل ستعودين إلى فيركي؟».

نظرت إلى المنزل، حيث كان والدي ما زال يتحدث مع الريكي. كيف وصلنا إلى هنا؟ كيف يمكننا العودة إلى الوراء؟ تمنيت أن أدفن وجهي في الثلج وأصرخ.

تقدم نحوي، وأمسك يدي المجروحة، فقلبها ثم لف شريطًا قماشيًا حولها، وعقد عقدة على راحتي. جذبت نفسًا وشعور يتدفق في داخلي، كشمعة تذوب: «لا تذهبي». نشبت الكلمات في قلبي حين أطلقها.

عضضت شفتي حتى اغرورقت عيناي، وكبحت جماح نفسي عن التحدث. كنت خائفة مما سأقوله.

«ابقي معي وتعالي معنا إلى الوادي. سنلتقي الأسكا هناك».

أغلقت عينيّ وانسالت دمعة على وجهي الملتهب، أحاول الهروب، أحاول الإفلات من هذه اللحظة، والتظاهر بأنه لم يكن أمامي خيار للقدوم إلى هنا. لم يكن أمرًا، كان طلبًا، طلبًا لم أعتقد أن بوسعي رفضه. لقد ترك عائلته وجاء معي عبر الجبل، متحديًا الأخطار بينما قومه يلعقون جراحهم بعد الهجوم، ورافقني إلى دياري، وساعدني في العثور على أبي. والآن حان دوري لاتخاذ القرار.

لأختاره مثلما اختارني.

التفتّ إلى الشجرة حين غادر، وحذاؤه يسحق الثلج حتى وصل إلى الباب، وانفتح المزلاج مجددًا. انحنيت ودفنت وجهي بين راحتيّ، وشعرت بالعالم يدور حولي، وحاولت أن أتذكر مَن كنت:

قوية، شجاعة، شرسة، وواثقة.

حاولت استدعاء إيلين التي إذا خُيرت بين قومها وأي شيء آخر، فستختار قومها، فتشت عنها داخل أعماقي، ولكنني لم أجدها، وعوضًا عنها وجدت إيلين أخرى مختلفة عنها تمام

الاختلاف الآن، كنت مختلفة بالتأكيد، تلك هي الحقيقة ولا أملك تغييرها.

الثالث والأربعون

كانوا يتحدثون عن الأعداد؛

عدد الأسكا؛

عدد الريكي؛

عدد الهيريا.

بعد ساعات من المناقشة، غادر قادة الريكي المنزل بصمت. هسهست النار في الحفرة بين عائلة إيري القديمة والجديدة. ازدردت ريقي بصعوبة، وتساءلتُ أيهما أصبحتُ جزءًا منه الآن.

طرح والدي بعض الأسئلة، لم يكن يريد إجابات، إنما كان يرغب في الشعور بالسعادة لأن قلب إيري ما زال ينبض. ولكن في نهاية المطاف سيتحمل إيري عاقبة عمله، وجميعنا نعلم ذلك.

هبطت إنجيه السلم ومعها حصيرتان لأبي وميرا، فيما قالت لي: «سريرك ما زال في العلية».

كنت أعلم أنهم سيفهمون الأمر عما قريب. وغمر الفهم وجه ميرا ثم أبي. وسرعان ما استحالت الحيرة اشمئزازًا. نهضت ميرا وقالت بغضب: «كنتِ جاريتهم؟».

تنهدت ومررت يدي في شعري، كنت مرهقة، ولا تنتابني أي رغبة في الشرح. وما من تفسير في جعبتي يمكن أن يقنعهما. مطلقًا. لو كنت مكان ميرا، سينتابني الشعور نفسه.

حدج والدي إنجيه بنظرة حادة وباردة، ثم سحب بقوة الحصيرتين من ذراعيها وخرج. تبعته ميرا، وصفقت الباب بقوة، فأجفلت إنجيه.

قالت بوجه حزين: «أنا آسفة».

لم أجب، إذ لم تكن لدي القدرة على ادعاء أن كل شيء على ما يرام، لأنه لم يكن كذلك. عوضًا عن ذلك، أخذت حزم القصعين المربوطة من على الطاولة، وسحبت مشعلًا من الجدار، وانحنيت على النار، وأشعلته، ثم اتجهت نحو الباب. كنت بحاجة إلى ذلك الأفق السماوي الممتد على امتداد بصري في الأعلى ليغمرني الهدوء بعيدًا عن ضجيج الجميع وكل شيء في هذه القرية.

خرجت إلى الظلام وشعرت بوجود الأجساد وراء الأبواب المغلقة وبين الأشجار. صارت فيلا مأوى، مترعة بغضب الريكي. وتوهجت المنازل بنيران الليل المضطرمة لبث الدفء بين الأسر المكلومة.

استوعبت كل شيء.

موتى الأسكا. وموتى الريكي. وكل شيء.

واصلت السير حتى وصلت إلى القبو، فركلت الثلج من أمام الباب لأتمكن من فتحه، ووضعت المشعل في الحامل على الحائط. الرائحة العطرة للقصعين جعلت رأسي يدور بذكرى المرة الأولى التي وطئت فيها منزل فيسك. ولم أفهم الشعور الذي تبعه. أردت أن أضعه في ركن مفهوم داخل أعماقي، إذ أحيانًا ما لا نفهم أنفسنا جيدًا، ولا نتفهم ما نمر به من أحاسيس مختلطة، وتمنيت أن أكرههم جميعًا بسبب كل ما حدث.

لكن حين راجعت الأمر برمته في ذهني، أيقنت أن كل ما حدث بدأ من عندي وانتهى بي.

أنا من شاهدت إيري يسقط في المعركة وتركته، وأنا من اقتفيت أثره في الغابة الظلماء في تلك الليلة التي أسروني فيها.

لقد بدأ الأمر بي. واتخذت قرارًا.

مثلما اتخذ فيسك قرارًا عندما أنقذ حياة إيري.

سمعت صرير مفصلات الباب فمددت يدي نحو سكيني.

وقف فيسك عند مدخل القبو ثم أغلقه خلفه وانقطع ضوء القمر، تاركًا فقط ضوء المشعل على الحائط. تشبثت يدي بقوة بالقصعين، رائحته الحلوة ما زالت عالقة في رئتي. نظر إليّ، وتلاشت الصلابة التي تخفي وجهه دائمًا، ورأيته مجددًا مثلما رأيته عند النهر، ومثلما رأيته في هيلي. الجزء الهش والمكشوف داخله يمد يده نحوي؛ يسير على أرضية القبو ويلامسني، ويشعل لهيب الأحاسيس بداخلي.

احتشدت الدموع في عيني، فحاولت إغلاقهما. لكنني أردت أن أراه وأشعر به. وكأنما كان يقرأ أفكاري، تجاوز المسافة بيننا ببطء. وكاد حذاؤه يلامس حذائي وهو يأخذ حزم القصعين من بين ذراعيّ، ويمد يده، ويميل عليّ، ويعلقها في الصف.

همست: «ماذا تفعل؟».

لكنه لم يجب. نظر إليّ، واقترب. لوى شعري بأصابعه، حتى ملت برأسي للخلف، وشهقت.

قال بصوت عميق: «أنا آسف».

تأملت وجهه وقلت: «على ماذا؟».

حنى رأسه وحامت شفتاه فوق شفتيّ وأجاب: «على كل شيء».

غاص فيسك بعمق داخلي، وملأني بالدفء الذي سلبه الشتاء. وأذاب ندف الثلج المتجمدة.

كانت يداه ساخنتين على بشرتي، تنزلقان على عنقي، وتمران فوق عظمتي الترقوة، ثم تلتفان حول خصري وتجذبني إليه. وقفت على أطراف قدمي، محاولة الاقتراب أكثر، محاولة السباحة في تيار الأفكار الكثيف والغامض الذي يجتاح رأسي، وطردها جميعًا. فتح أعلى قميصي وعندما لثمت شفتاه جيدي، تأوهت. كانت قبلة مؤلمة، أكثر ألمًا من جرح السهم، وأكثر ألمًا من اليوم الذي فقدت فيه إيري، لكنه كان نوعًا مختلفًا من الألم؛ كان ألمًا ممتعًا.

انزلقت يداه من حولي وحامتا حول الندبة المحيطة بعنقي، والتي ما زالت تلتئم. ابتعد عني وعادت الصلابة إلى وجهه مجددًا.

أمسكت سترته المدرعة وجذبته نحوي. لكن الحذر عاد إليه، فكرة تلو الأخرى.. «أنا لست مِلكك». كررت الكلمات التي قلتها له في تلك الليلة التي نزع فيها الغرز من ذراعي. قلتها هذه المرة، لرفع العبء الجاثم عليه، وإخراس أي شكوك تجاهي في ذهنه.

ولأن بعضًا مني ما زال يتمنى أن تكون تلك الكلمات صحيحة.

أزاح شعري للخلف لينظر إلى وجهي وهمس: «بل أنتِ كذلك، مثلما أنا مِلكك».

الرابع والأربعون

كان إيري يعانق إنجيه، وينظر إليّ فوق كتفها. لم يكن بحاجة إلى أن يطلب لأنني كنت أعرف أفكاره. سنرافق رونا بأمان إلى أورفانجر، بينما يذهب مع والدي إلى الأسكا.

تركها ولم يمد يده نحوي. لم يكن بحاجة للتعبير عن أسفه، وكذلك أنا. عانقني أبي وودعني، بينما وقفت ميرا بالخلف، تتحدث إلى فيسك. كان يفوقها حجمًا، لكنها وقفت بثبات، وتلقفت نظرته بنظرة شرسة أعرفها. كانت تلك طباع ميرا؛ صغيرة ولكنها شرسة. لقد رأيتها تجندل رجالًا ضِعف حجمه. وكان بوسعها قتله في تلك الليلة في طريقنا إلى فيلا، مثلما كان بوسعه قتلها.

سارت نحوي خافضة بصرها، مددت يدي لأصافحها فقالت: «أنا آسفة». ومدت يدها تلمس الكدمة على وجهي حيث ضربتني.

لم أسامحها لأنني لم أكن بحاجة لذلك. إنني أفهمها، وأتفهم خوفها من خسارة كل شيء تمتلكه، وتهديد مَن تبقى من أحبائها. كنا محاربتين. وكانت مستعدة للتضحية بحياتها من أجلي، مثلي تمامًا. ولن يتغير ذلك أبدًا.

لم أدرك ما فعلته إلا بعدما أخذوا يهبطون السفح المغطى بالثلوج. لقد قضيت كل لحظة في أيامي أحاول العودة إليهما، والآن أرسلهما بعيدًا عني. وإذا كانت هناك فرصة أخيرة، فقد حان وقتها. لكن قدميّ لم تتزحزحا قيد أنملة.

قال فيسك محاولًا تهدئة التوتر البادي على وجهي: «يومان».

سألته، وأنا أراقب ميرا تختفي وراء التل: «ماذا قالت لك؟».

«قالت إنها ستقتلني إذا حدث لكِ أي شيء»، ثم أردف ضاحكًا: «إنني أصدقها».

بمجرد أن اختفوا عن الأنظار، بدأنا العمل. واستمعت إلى فيسك وإنجيه يتحدثان عن الخطط والمؤن والسفر إلى أورفانجر. وتجاهلت الشعور بأن قلبي معلق حيث ذهب أبي، وتركت صوته يلتصق بي ويلامس قلبي الهش. ارتجفت وأنا أفكر في يديه على جسدي، وأتذكر مذاق قبلته الحانية. لم أستطع فك ذلك الارتباط بيننا، كذلك لم أكن أرغب في ذلك.

قمنا بتجهيز كل ما تحتاج إليه إنجيه ورونا لعلاج المصابين. وفحصنا الأسلحة، والحبال على الخيول، وملأنا حقائب السرج، ولففنا الخبز. وعندما اكتملت التجهيزات، ذهبنا إلى منزل رونا وساعدنا عائلتها. كانت أمها ستقاتل للمرة الأولى منذ عشرين عامًا. أخرجت سيفها من صندوق يعلوه الغبار في ظلال منزلهم. وجلست خارجًا أرتق ثقبًا في سترتها المدرعة. وراقبت الآخرين يجهزون خيولهم، وغمرني شعور بأنني واحدة منهم للمرة الأولى، كأنما نسوا وجودي.

انطلقنا مع أولى بواكير الصباح باتجاه الجبل في صف واحد طويل، نمشي على الدرب، وكنت أمشي بجوار حصان إنجيه مع هالفارد. كان فيسك يتقدمنا ممتطيًا حصانه، ويرافق فيدر وفريديس، وظل يصوب بصره للخلف نحونا. راقبتهم إنجيه بطرف عينها، ولاحظت أنها شرعت تفعل ذلك بعد الهجوم، حين كان فيدر والتالا يضعان أعينهما على فيسك ويميزانه. ولم يرقني ذلك أيضًا. ولم يعجبني ما قد يعنيه ذلك في المعركة.

خيمنا في الغابة، وتجمعنا حول النيران الصغيرة لنبقى دافئين. وأخذ فيسك يستكشف مع مجموعة رافقت لاثام. ما زالت قبيلة الهيريا تخيم بالأسفل، عند سفح الجبل في الوادي الشمالي. وكانت أضواء نيرانهم تبين حجم معسكرهم الكبير. وكنت سعيدة لأننا لم نستطع رؤية أعدادهم. لم أكن أرغب في معرفتها عندما أخطو إلى ساحة المعركة، أردت أن أقاتل مثلما اعتدت دائمًا؛ دون التفكير في الاحتمالات.

نِمت جنبًا إلى جنب مع إنجيه وهالفارد مفترشين أرض الغابة. واستيقظت في منتصف الليل لأجد فيسك يندسُّ تحت بطانيتي في الظلام. دفن وجهه في شعري، وطوقتني ذراعاه بإحكام. راودتني الأحلام، حتى شعرت به يبتعد مجددًا ليلتقي فيدر والآخرين في

الفجر. وقبل أن يغادر، قبلني بين عينيّ، واستمعت إلى خطواته إذ يتحرك بصمت بين الأشجار.

تقلبت ورأيت إنجيه تنظر إليّ. كانت عيناها المتعبتان شبه مفتوحتين، ترمقانني فوق جسد هالفارد النائم، وشعرت بغصة في حلقي انتظرت أن يفصح وجهها عن خوف أو عدم رضا، لكن ذلك لم يحدث، بل مدت يدها نحوي. وعندما أمسكت بها، رفعت جلد الدب وجذبتني إلى جانب هالفارد، ووضعت طرف الجلد حولي. ابتسمت ثم عادت إلى النوم، وراقبتهما يتنفسان بهدوء، حتى انفض المعسكر للتحرك مجددًا. تمدد هالفارد وهو يحتضنني أسفل الفراش.

درنا حول البحيرة عبر الطريق الطويل بسبب أعدادنا الكبيرة. راقبت رونا، وظللت على مقربة منها ونحن نسير في الليلة الثانية. وعندما تقدمنا نحو المنعطف الأخير للجبل، رأينا الأسكا في الوادي الشرقي، يجتمعون وراء التعرجات. بدت أعدادهم ضئيلة، مقارنة بمعسكر الهيريا.

كانوا آخر مَن تبقى من عشيرتي.

توقف فيسك بجانبي عند حافة الهاوية، وشرع ينظر إليهم. وقفنا هناك في صمت لبرهة بينما يمر صف الريكي، والرياح تهب علينا. ودوّى هزيزها في أذنيّ.

أمسك يدي وسأل: «بمَ تفكرين؟».

«أفكر فيما حدث ويحدث وسيحدث لنا، كذلك أفكر في القتال».

ضغطت أصابعه بقوة على يدي. بات في نظري كل ذلك القتال سخيفًا الآن. كل ذلك الموت والخسارة والحزن. كان الصراع بين عشيرتينا لا يقارَن بالحزن الذي ألمّ بنا.

سأل هامسًا: «ماذا ستفعلين بعد ذلك؟».

نظرت إليه، ولكن عينيه ما زالتا على المعسكر، دون أن تلتقي عينيّ. «والدي وميرا في هيلي». كانت تلك هي الإجابة الوحيدة التي بوسعي تقديمها له. حاولت تخيل العودة إلى الديار وتركه في فيلا، لكن لم تكن هناك فائدة من تخيل أمر قد لا يحدث، ربما سنموت أنا وهو في المعركة.

افترقت شفتاه، كأنما يود أن يقول شيئًا، لكنه أطبق شفتيه، وطوقت ذراعه كتفي جاذبًا إياي نحوه.

كانت الشمس تجنح للمغيب حين وصلنا إلى الوادي. وقد نصب الريكي معسكرهم على الجانب الآخر من النهر. واتفق القادة على أنه من الأفضل انفصال العشيرتين لتحاشي المشكلات. ووقف الأسكا في صف على حافة الماء، يتطلعون إلينا. ولكن هذه المرة، ليس من أجل التقاتل فيما بينهم، بل الدفاع معًا عن البقاء.

عبرت النهر وشققت طريقي بين الخيام البيضاء، باحثة عن أبي وإيري. وأشار هاجن في اتجاه خيمة الاجتماع ووجدتهما يجلسان حول النيران مع إسبن. نهض إيري وتوجه نحوي. وكان منظره وهو يقف بينهم يبدو غريبًا وغير مألوف، ولا سيما وهو يرتدي سترة الريكي. ولكن كان ذلك ما سيكون عليه في المعركة. أسكا وريكي معًا.

«رونا؟».

«إنها مع إنجيه». أومأت برأسي وتساءلت: «أين ميرا؟».

«تساعد كالدا في تجهيز أدوات التطبيب خلال المعركة». وأشار برأسه نحو خيمة المعالجة حيث تتحرك الظلال على القماش في ضوء النار.

«فيدر يود أن نلتقي في الصباح. هذه الليلة، سينصبون المعسكر ويراقبون طرف الوادي للتأكد من أن الهيريا لا يعلمون أننا هنا».

تحدث إسبن وراءه: «لن يكون لدينا الكثير من الوقت. ربما أمامنا يوم واحد قبل أن نضطر للهجوم».

أومأ والدي مؤمِّنًا على كلامه.

مالت الشمس نحو الغروب حين كنت أمشي مع إيري عائدة إلى النهر. وصلنا إلى المياه الضحلة، وعندما توقفتُ التفت مترقبًا.

«سأبقى هنا، الليلة».

كان مخيم الريكي على الجانب الآخر من النهر يتوهج من بعيد بنيران الليل المشتعلة. وقفنا كتفًا إلى كتف، نتطلع إليه.

«سأخبر فيسك». كان صوته العميق رقيقًا وحذرًا.

حاولت تبين ملامح وجهه، لكنه كان يفعل المثل معي. «لا أعرف ماذا يجب أن أفعل». لقد اتخذت بالفعل قرارًا، لكنني لا أعلم إذا كانت عشيرتي ستتقبله.

نظر إليّ مجددًا: «بل تعرفين».

همست: «لا أستطيع ترك الأسكا، ليس الآن».

«ربما لن يتعين عليكِ القيام بذلك».

لن أطلب أبدًا من فيسك أن يعيش بين الأسكا، مثلما يعيش إيري بين الريكي.

حلَّ الليل، ووقفت أشاهد إيري يعبر النهر. وعندما مددت بصري نحو حافة الماء، رأيت فيسك يقف على ضفة النهر. كان يتطلع عبر الماء إلى مخيمنا. وتساءلت إن كان بوسعه رؤيتي في الظلام، وإن كان يشعر بأنني أراقبه.

سمعت صوت أبي ينادي: «إيلين»، فألقيت نظرة أخيرة على فيسك، ثم ذهبت إليه. دلفت إلى الخيمة، حيث كان ينتظرني هو وميرا، كان شعرها منسدلًا على كتفيها، ويصل إلى خصرها. لم تتبدل هيئتها منذ الطفولة. جلستُ على كرسي، وأمالت وجهي جانبًا، وأجرت النصل بعناية فوق الجزء الخالي من شعري على الجانب الأيمن من رأسي. وعندما فرغت، مددت يدي ومررت أصابعي عليه.

مسحت النصل بسروالها وسألت: «ماذا حدث في فيلا؟ قبل قدومك إلى هيلي؟».

انحرفت عيناي نحو والدي، ولكنه كان منحنيًا فوق سيفه يشحذ النصل فتساءلت: «ماذا تعنين؟».

قالت بنبرة لا تكشف عما يدور بذهنها: «لقد منحت قلبك لذلك الريكي».

لم أكن لأنكر ذلك. إن ميرا ووالدي يعرفانني جيدًا. لكن كان من دأب أبي عدم طرح أسئلة عما لا يود معرفته. همست: «لن تفهميني». وأغمضت عينيّ متذكرة إيري يخبرني بالكلمات نفسها.

أعادت السكين إلى غمدها ونظرت إليّ قائلة: «لا داعي للفهم». ثم مدت يدها نحوي وأمسكت بها. «إنكِ على قيد الحياة ومعنا، وهذا كل ما يهمني».

ركعا وفعلت بالمثل بجانبهما، وأخرجت تمثال والدتي من سترتي. كانت ميرا تحمل تماثيل عائلتها بين يديها؛ والدتها، ووالدها، وشقيقتها، وشقيقها. ما زالت وجوههم عالقة في ذهني. وشعرت بأنفاسي تتهدج بالذنب الثقيل والحاد في صدري.

أخرجت نفسًا طويلًا، وشعرت بالدفء حين طوقتني أصوات الأدعية المألوفة. ارتفعت همهماتهما الهامسة في الخيمة، وبقيت هادئة أصغي إلى أصواتهما. وأغلقت عينيّ، وضممت تمثال والدتي بقوة إلى صدري، لكنني لم أبكِ. اختفى القلق؛ لأنني كنت بجوارهما، واطمأن

قلبي لأن إيري وفيسك كانا بأمان على الجانب الآخر من النهر، وكذلك إنجيه وهالفارد ورونا.

لمست وجه تمثال والدتي ولثمته. ودعوت، مثلما أدعو سيجر منذ يوم وفاتها.

ثم أقدمت على شيء لم أفعله في حياتي ألبتة.

دعوت ثورا!

الخامس والأربعون

انطلقت مجموعة أخرى تضم مَن لم يقاتل نحو فيركي في مجموعتين منفصلتين، معظمهم من المسنين والأطفال. وبقي هالفارد مع جيدا، التي كانت تحمل طفلها مربوطًا على ظهرها. وكان هالفارد يسير خلف حصان كيرلينج. وحين عبروا الوادي ألقى علينا نظرة. لم يعترض، لكنه لم يكن راضيًا، وكذلك كيرلينج. تحرقا شوقًا للقتال، وتوهجت تلك الرغبة في وجهيهما.

ساعدت إنجيه على تحضير الضمادات، وانتظرت فيسك ليأتي لكنه لم يفعل. وعندما استقر الريكي في خيامهم، وقفت أنتظره بالخارج. وعبق الهواء برائحة نار المذبح، تحملها الرياح عبر النهر من مخيم الأسكا. كانوا يقدمون القرابين ويسألون سيجر أن يبارك معركتنا.

لم يظهر فيسك على الطريق إلا بعد حلول الظلام. وقف عند مدخل الخيمة، وأخذ وجهه، الذي اكتسى بالتعب والإرهاق، يراقبني. ضفرت شعري استعدادًا للحرب، وأسدلته على ظهري في عدة خصلات طويلة مجدولة. وتفحصت درعي وجميع أسلحتي مرة أخيرة، واختلست النظر لأرى فيسك يفعل المثل. تُرى كم عدد المرات التي استعددنا فيها لقتال بعضنا بعضًا؟!

عقصت شعره للخلف في عقدة محكمة، وأخذت الكحل من حقيبة السرج وبإبهاميّ مررت به حول عينيه، ثم جلست على السرير وسلمته وجهي ليفعل المثل. أملت رأسي للوراء وأغلقت عينيّ وهو يمر بأصابعه الخشنة على بشرتي.

سألته: «هل سينجح الأمر؟».

كفت يداه عن العمل وفتحت عينيّ.

أجاب: « نعم».

لكنني لم أكن واثقة. كنت قاب قوسين أو أدنى من الموت مرات عديدة، حتى إنني حسبت أن نِعَم سيجر عليّ أوشكت على النفاد. ازدردت ريقي وقلت: «إذا متُّ غدًا، فاعتن بإيري».

أومأ برأسه. لم يقل إنه لن يحدث؛ لأننا رأينا أفرادًا كثرًا من عشيرتينا يسقطون، واستقر في قلبينا أن ذلك قد يقع. «وإذا لم تموتي؟».

«ماذا تعني؟».

نظر إلى وجهي، وهو يرتب الكلمات في ذهنه قبل النطق بها. «إذا عدتِ إلى هيلي، فسأرافقكِ».

أحكمت قبضتي على طرف البطانية. «وماذا عن أسرتك؟».

«سأذهب حيثما تذهبين». هذه المرة، كانت كلماته قاطعة.

أومأت، وحاولت التنفس بين الدموع التي ترتفع في حلقي. لم أرغب في البكاء. مددت يدي نحوه فجثا أمامي، وأطلق نفسًا طويلًا وهو يضمني. عانقت جسده الضخم بقوة. وقلت بصوت خافت متحشرج: «لم أود أن أطلب منك ذلك».

وضع رأسه على كتفي. «لم يكن عليكِ أن تطلبي مني».

ابتسمت، ولثمت أذنه. كان فيسك يتبع قلبه فيما يفعل. لهذا لم يترك إيري في الأخدود، ولهذا أيضًا رافقني إلى دياري.

صعد إلى السرير بجانبي وتشابكت أعيننا، جذبت البطانية فوقنا وراقبته حتى غرق في سبات عميق، واسترخى وجهه، وتلاشى التقطيب على جبينه. طبعت قبلة عليه وطفقت أنظر إليه حتى ثقل جفناي.

ثم غرقتُ بدوري في سبات أعمق.

دوى صفير بعيد ففتحت عينيّ فجأة. أبصرت فيسك وقد استيقظ بالفعل ووقف على قدميه، كان يفرك وجهه ثم انتعل حذاءه. استيقظت ببطء، أتلمس حذائي في الظلام ثم وقفت ووضعت غمد سيفي. وعقدت ذراعيّ، وتركت فيسك يُحكم شد الأبازيم. ثم وضع تمثال أمي داخل القميص قريبًا من قلبي. وتمنيت أن يخف ألم كتفي.

وبينما استعد المعسكر في الخارج، كنت أساعده على ارتداء الدرع، وتفحصت كل شيء مرتين. وحين عاودت يدي الفحص للمرة الثالثة، أمسكهما وانتظرني لأنظر إليه.

قال متأهبًا: «سأكون مع إيري في الجانب الأيسر، بالقرب من الرصيف البحري».

أومأت برأسي. كنت على حق بشأن خطط فيدر. لقد جعل فيسك رئيسًا لإحدى المجموعات.

ثم فتح قبضتي وطبع قبلة على راحتي، واجتاحني شعور قوي به رسَّخ قلبي وبث فيَّ الطمأنينة.

همست بصيحة القتال التي يقولها قومه وشفتاي تنفثان نارًا في شفتيه: «كوند إلدر».

ابتسم، وأمسك مؤخرة رأسي وقبّل خدي: «كوند إلدر».

خرجنا من الخيمة، إلى ظلام ساعة السَّحَر. ضغط على يدي للمرة الأخيرة ثم انطلق عبر الطريق، منضمًّا إلى الريكي الآخرين المتوجهين إلى مواقعهم. لم ألتفت خلفي وأنا أركض في الاتجاه المعاكس، نحو الأسكا. لكل عشيرة مهمتها، وإذا نجحنا، فسنرى الريكي في هيلي.

الناجون منا.

وصلت إلى الصف، أبحث عن ميرا. رأيت والدي أولًا ولمحتني عيناه حين اقتربت منه. انحنى ليقبِّلني ثم دفعني إلى مكاني دون أن ينبس بكلمة.

كانت ميرا تنتظرني، وفحصت كل واحدة منا درع الأخرى مجددًا كالأيام الخوالي.

نظرت إلى كتفي. «كيف حالها؟».

أدرتها للخلف فآلمتني وقلت معترفة: «يمكنني استخدامها، لكنها ضعيفة».

أومأت، وزمت شفتيها: «إذن، ابقي على يميني».

سيتعين عليها أن تقود بيسراها، والتي لم تكن جانبها القوي. لكنني فعلت الكثير لأجلها في الماضي. وكان ذلك ما نفعله فيما بيننا ويجعلنا نبقى على قيد الحياة. وكم كان وجودي برفقتها على أرض المعركة يشبه العودة إلى الديار؛ ديار لا يمكن حرقها أو دكّها.

توجهت نحو الوادي الشرقي المظلم. عجزنا عن رؤية الغابة التي تفصلنا عن الهيريا، لكنها هناك. ونحن نعرف جيدًا تلك الغابة؛ لأننا قاتلنا فيها طيلة حياتنا.

مددت يدي نحو سترتي لآخذ تمثال أمي، وتلمست أصابعي شيئًا آخر بجوار قلبي. انتزعته وأمسكته أمامي. ارتسمت على شفتي ابتسامة عريضة، واغرورقت عيناي بالدموع. كان التوقر؛ الطلاسم التي يستعين بها الريكي لحماية أحبائهم. لا بد أن فيسك وضعه في سترتي مع التمثال. كان الحجر أسود أملس، وقرأت الكلمات المنقوشة على سطحه.

آلا سال. حامل الروح.

أعدته إلى سترتي.

رفعت ميرا درعها أمامها، فيما أخرجت سيفي وبلطتي، وشعرت بثقلهما على جانبيّ. وشرع أفراد قبيلتي يتلون صلواتهم وانضممت إليهم، مثبتة عينيّ على الظلام، بينما نبضات قلبي

تتسارع. واستيقظت كل عضلة تبث الحياة في جسدي.

صليت إلى سيجر من أجل والدي وميرا، وصليت إلى ثورا من أجل إيري وفيسك.

دوى الصفير وبدأنا الركض بوتيرة متساوية، وضربت أقدامنا الأرض في آن واحد تقريبًا، والتحمنا بالغابة أمامنا، محافظين على خطوطنا أثناء تحركنا بين الأشجار. وعندما وصلنا إلى الكشافة، اخترقهم الأسكا على يميننا، وأسقطوهم على أرض الغابة واحدًا تلو الآخر. ووصلنا إلى الجانب الآخر من الغابة، والنجوم ما زالت تتلألأ في سماء صافية وباردة تطل على المعسكر. وكان الحراس من الهيريا يقفون في الموضع الذي توقعنا أن يكونوا فيه تمامًا.

انخفضنا إلى الأرض وهبطنا التل، وانتشرنا حول الجانب الشرقي للمعسكر. ولم نتوقف. تحركنا كسرب من الطيور، وأشرت إلى ميرا عندما اخترت إحدى الخيام. أومأت بذقنها موافقة، وتبعتني عندما انحرفت لليسار. توقفنا عند كلا الجانبين من الفتحة ونظرت لعينيها في ضوء القمر ثم تسللت إلى الخيمة، وصوت خطواتي الخافت على الأرض الرطبة.

وجدت فراشين لرجل وامرأة. ولم نتردد. وقفت كل واحدة منا فوق الجسدين النائمين، وأخذت نفسًا عميقًا ثم وضعت يدي على فم المرأة ومررت النصل حول عنقها. ركلت إلى الخلف وانحنيت فوقها أكتم صراخها وهي تتلوى أسفل مني. وانتظرت حتى فارقت الحياة.

كانت ميرا تنتظر خلفي عند المدخل.

ركضنا إلى الخيمة التالية وانقض الأسكا الآخرون في الظلام حولنا. قتلنا سبعة آخرين من الهيريا النائمين قبل أن ترتفع أول صرخة عالية وتخدش الصمت. تجمدت، وأنا أقف فوق الجثة الدافئة على الفراش، وأصغي بعيدًا عن أصوات أنفاسي المتتالية.

ثمة تمتمة، ثم سمعت شيئًا يسقط.

ثم تعالى صوت الأبواق؛ لقد علموا بوجودنا.

درت على عقبيّ حين اندلع الصراخ في المعسكر، وقفز رجل من فتحة إحدى الخيمات بجوارنا، وهو يطوح ببلطته. رفعت ذراعي فوق رأسي وألقيت بلطتي، فأصابت كتفه وسقط على ركبتيه، ثم على وجهه ودفن بلطتي.

ركضت وانزلقت في الطين، وقلبته لأستعيدها، وحين جاء رجل آخر من خلفي أغمدت ميرا سيفها في جسده، وطقطقت بلسانها نحوي إيذانًا بأنه حان وقت الذهاب. قفزت، وثبت كعبيّ في الأرض لدفعي إلى الأمام، متجهة نحو الغابة مع الأسكا. وأعدت سيفي وبلطتي إلى غمدهما وركضت.

بسرعة انتشر الذعر في المعسكر خلفنا، وارتفعت الصرخات وصليل الأسلحة بينما يصيح الهيريا بالأوامر. تلفتُّ حولي أعيد تقدير الموقف، ما زالت أعدادنا جيدة. يمكننا إحراز النصر.

توارينا وراء صف الأشجار ولم نتوقف. اندفعنا نحو هيلي، بخطوات خفيفة فوق جذور الأشجار والصخور المتشابكة في متاهة على أرض الغابة. وسمعت وقع خطوات ميرا المألوفة بالقرب مني، ونحن نركض بسرعة أكبر.

تناهت إلى مسامعنا دمدمة الهيريا عندما وصلنا إلى الوادي الشرقي. ومع تسلل خيوط الفجر الأولى عبر الأشجار، رأيناهم قادمين من بعيد، وهم يتعقبوننا.

السادس والأربعون

زدت من سرعتي ودفعت جسدي بشدة في كل خطوة أثناء عبورنا الوادي. ومن خلفنا تعقبنا الهيريا بشكل فوضوي. وأمامنا، انتظر الريكي في هيلي.

كان فيسك وإيري يترقبان بحذر وهما ينتظران الإشارة.

قدرت أنفاسي بعناية، واتجهت عيناي نحو البحر. وتنشقت رائحة الديار في الريح. كانت تطوقني ثم تحملني وتدفعني للمضي قدمًا.

ارتفعت أصوات محاربي الهيريا من خلفنا، وأخذ السيف المتأرجح من خصري يؤلم ساقي. لكنني واصلت الركض بسرعة أكبر وبوتيرة أقوى. وانبعثت من أعماقي مجددًا إيلين التي قاتلت ونجت مرات عديدة.

تذكرت كل المعارك التي خضتها، وتراءى لي إيري وهو بجانبي، ممسكًا بلطة في كل يد. وميرا، تجري أمامي، مطلقة زئيرًا. ذكّرت نفسي بمَن أكون؛ محاربة الأسكا التي فقدت كل شيء، والفتاة ذات الدماء النارية. وحثثتها على مواصلة الجري بأقصى ما لدي من سرعة.

تحركوا بسرعة مقتربين منا. ولاحت في الأفق أسطح هيلي المحترقة، وتردد صفير عبر التلال. اتجه الأسكا يمينًا نحو الجروف حيث تحوم طيور البحر، وتنحدر في الريح. وأرجعت رأسي للوراء، لأستجمع قوتي وأندفع بقوة أكبر.

لم نبطئ سيرنا، بل انطلقنا نحو الهاوية، حيث تلتقي السماء الزرقاء بالصخور في خط صارم، وتتلاطم الأمواج وتفور بالزبد الأبيض أسفل منا. حملنا زخم الركض نحوها. واختفى أفراد عشيرتي فوق الحافة أمامي، بينما أبصرت رءوسًا تبرز من مواقعها في

القرية. رماة السهام. ولم نكد أنا وميرا نصل إلى الجرف، حتى اخترقت الهواء السهام الأولى، وحلقت فوقنا بحركة قوسية.

أحصينا خطواتنا، وألقينا أجسادنا للأمام، بينما تميل الأرض إلى الأسفل أمامنا، وسقطت على جانبي، انزلقت بقدميّ أولًا ثم انحدر جسدي فوق الصخرة السائبة، حتى انتهى الجرف أسفل منا، ثم سقطنا. زأرت الريح من حولي واعتدلت بجسدي، وقبضت على سيفي بجانبي، وجذبت نفسًا عميقًا ملأت به رئتي حين اقتربت مني زرقة البحر اللامعة.

اصطدم جسدي بقوة بالماء. وقد ارتفعت الفقاعات حولي في مسارات متعرجة، بينما سقط المزيد من الأجسام في الماء. خرجت للسطح، وأجلت ببصري بحثًا عن ميرا، فوجدتها تنجرف نحو الشاطئ، وتكافح للتحرك في الماء بذراع واحدة. اندفعت نحوها، ورئتاي تؤلمانني، والماء البارد يشل عضلاتي المنهكة.

اندفعت مرة أخرى في الهواء، وجذبني التيار في كل اتجاه. وأبصرت ميرا تجر جسدها هي الأخرى وتتهاوى على الصخور، بينما انزلق المزيد من الأسكا فوق الجرف وسقطوا في الماء. وسرعان ما سيلحق بنا الهيريا. تفحصت الوجوه عند الرصيف الممتد فوق الماء بالقرب من القرية، بحثًا عن فيسك وإيري. وحين وجدتهما، كانت عيونهما مسلطة عليّ. وقفا ينتظران للإجهاز على الهيريا في الماء. تنفست الصعداء وأعدت ترتيب أفكاري. خدشت ظهري حافة حادة لإحدى الصخور، بينما كنت أشق طريقي بصعوبة إلى الشاطئ، حيث كانت ميرا تحاول النهوض.

ناديتها: «ميرا!». ثم أبصرتها تسقط على ركبتيها، وتمسك ذراعها.

نظرت إليّ بوجه شاحب وقالت: «لقد انخلعت كتفي».

ركعت بجانبها، ونزعت عنها الدرع، ومددت يدي تحت سترتها لأتحسس عظام كتفها. وضغطت بأصابعي حتى وجدت انبعاجًا خفيفًا أعلى الذراع، فانكمشت متأوهة. وكانت

على حق. لقد انخلع كتفها، فأخرجت سكيني وقطعت أبازيم سترتها المدرعة تحت ذراعها. لم يكن ثمة وقت. سحبت السترة فوق رأسها، وقوست ظهرها فصرخت من الألم.

خرج الأسكا من الماء حولنا متجهين نحو القرية. أرجعت جسدي للوراء، ووضعت كعب حذائي في الضلوع تحت ذراعها، بينما الأمواج تتلاطم من حولنا. وأمسكت معصمها بيديّ، ونظرت لعينيها، وانتظرت موافقتها. جذبت نفسًا عميقًا وقالت: «هيا!».

مال جسدي ببطء للخلف، وسحبت ذراعها بحذر، بينما أخذت تزأر بصوت مكتوم. وانتظرت حتى يعود المفصل إلى مكانه، وقبضتي عليها ما زالت قوية وثابتة. وأصدرت الذراع فرقعة، وفتحت ميرا عينيها فجأة وشهقت. نظرت إلى أعلى واتسعت عيناها المرتاعتان.

«إيلين!».

تركتها، وعثرت على سكيني في الرمال. كانت امرأة من الهيريا تقترب منا راكضة، وقدماها تركلان الماء. قفزت من على الأرض وألقيت جسدي عليها، وأسقطتها تحت الماء. قاومتني حتى غرزت النصل في بطنها، وتلونت المياه بالأحمر من حولنا. وحملت الموجة التالية جثتها، وصوبت بصري إلى أعلى فرأيت المزيد من الهيريا يسقطون من الجرف، بعضهم بسهام مغروزة فيهم. كانوا يسقطون في الماء كالصخور، وأذرعهم تتمايل، وأرجلهم تضرب الهواء.

حين عدت للشاطئ وجدت ميرا قد نهضت، ساعدتها بسرعة على ارتداء سترتها، والتقطت غمد سيفها من الصخور، ثم مررته فوق رأسها، وشددته على صدرها بشكل مائل، كي يثبت كتفها، ودفعت السيف في يدها الأخرى، وركضنا نحو هيلي، بينما سقط المزيد من الهيريا في البحر.

طارت مجموعة أخرى من السهام فوق رءوسنا، وأصابت أهدافها وراءنا. وتقدمنا نحو الجزء الهادئ من الشاطئ المفضي إلى دار الطقوس. وعادت عيناي إلى الرصيف البحري

الذي يغص بالريكي، لكنني لم أر فيسك ولا إيري. تحركنا نحو الطريق الرئيسي الذي يمر عبر القرية، ووجدت أن من لم يتبعنا من الهيريا عند الجرف قد هبط التل، تمامًا كما خطط والدي.

دوى بوق آخر واندفع الصف الأول من الريكي نحوهم. التقوا على المنحدر في صدام عنيف، واندفعت مع ميرا بين المنازل المهجورة، نحو الأرض الجرداء، حيث كانت تقع دار الطقوس السابقة. سيهجم الهيريا بضراوة، وسنكون نحن حائط الصد لمواجهتهم.

تلونت السماء باللون الرمادي مع تتابع السحب فوقنا وراقبت ميرا. كانت تركض وذراعها مثبتة بجانبها، وتحمل السيف بيدها اليسرى، وحين اتخذنا موضعنا بين الأسكا الآخرين، جلست على كعبيها، وأخذت تلهث ألمًا.

شققت طريقي بين الأجساد وهبطت بجانبها: «هل أنتِ بخير؟».

أومأت وقالت من بين أسنانها المطبقة: «نعم، لا تقلقي، أنا بخير».

نظرت خلفنا، إلى الشاطئ المؤدي إلى الكهف المتواري خلف الصخرة.

عندما التفت إليها مجددًا، حدجتني بعينين حانقتين وصاحت: «إياكِ أن تقوليها».

لن تغفر لي أبدًا أن أطلب منها الاختباء، أعرف ذلك لأنه سيكون رد فعلي لو كنت مكانها. لن تتراجع ألبتة، ولا سيما إن كنت منخرطة في قتال مثل هذا القتال يمثل لنا طوق النجاة من الاندثار. تناولت ذراعها اليسرى، وساعدتها على الوقوف بجانبي. وقفت منتصبة القامة، وجذبت نفسًا عميقًا، وشحذت قوتها.

اشتبك الريكي مع الهيريا على الشاطئ. وغطى المحاربون كل شبر من الأرض، وتطايرت النصال فوق الرءوس، وعلت الصرخات فوق صوت الأمواج. وحين تفرقت الأجساد، رأيت التالا، تدور حول نفسها ممسكة بلطة فوق رأسها. وأخذت توجهها بحركات تبين مهارتها

القتالية الفائقة. وتقدمت نحو أحد الهيريا الساقطين على الأرض، وأمسكت شعره ورفعت رأسه لتذبحه. وبعدما انتهت مسحت الدماء عن النصل وأخذت تبحث عن الهدف التالي.

لازمت مكاني مترقبة، ولم تكد تصل مجموعة أخرى من الهيريا عند المنحدر أعلى القرية، حتى اندفعنا نركض نحوهم.

طابقت سرعتي سرعة ميرا ووجدت هدفي الأول. كان واحدًا من الهيريا ذا شعر فاتح، ودرعه الفضية تملؤها شقوق عميقة جراء ضربات السيف. وعندما رآني، ضيق عينيه تجاهي، وعدل مساره للتصادم معي. فجريت بدوري مباشرة نحوه، وزفرت حين لامست قدماي الأرض، ثم درت حول نفسي، وطوحت ببلطتي فوق رأسي لتدفعني جانبًا. وارتفعت قدماي عن الأرض وثنيت ذراعي، وانغرز النصل في وركه، ثم اصطدمت بالأرض وتدحرجت.

ضربني حذاء في كتفي فصرخت، ورأيته مستلقيًا على ظهره، وذراعاه ممددتان جانبًا، وعيناه تشخصان للسماء، بينما الأقدام تمر بجواره. اقتربت منه، وسحبت بلطتي من جسده، واندفعت الدماء، وقد فارق بريق الحياة عينيه.

كانت ميرا تحرر بجواري سيفها من إحدى الجثث، وأخذت تتعثر في مشيتها. تقدم نحونا محاربان آخران. أمسكت درع جثة ممددة على الأرض، وجلست على كعبيّ، ورفعت بلطتي. وانتظرت حتى اقتربت المرأة الأولى، وانحنيت وأسقطتها. طارت فوق الدرع ورفعت ذراعي، وغرزت بلطتي في ظهرها.

كانت ميرا على الأرض تحت الهيريا الآخر. وكان على وشك أن يغرز سيفه في أحشائها.

«لا!». اشتعل الذعر داخلي وكأن الأرض تنشق تحتنا.

قفزت فوق المرأة النازفة على الأرض، وأسقطت الدرع فوق ميرا، التي تكورت تحته، بينما استدرت أنا لمواجهة الهيريا. وهبط سيفه بيننا، فرفعت بلطتي لأوقفه. فاصطدم بها بقوة،

وانزلقت من بين أصابعي، وسقطت على الأرض بجواري.

كان يمسك سكينًا بيده الأخرى، فصوبها نحوي بسرعة، وحاولت التراجع، لكنها اخترقت جانبي، تحت ضلوعي. رفعت رأسي عن الدماء المتدفقة من تحت سترتي، وفتحت ذراعيّ مندفعة نحوه. وتدحرجنا حتى أفلتت يده السيف. وحين سقطت على ظهري، كانت ميرا تقف فوقنا بالدرع. رفعته وأسقطته على رأس الرجل بصرخة قوية. وانسحقت عظامه تحت وطأة الدرع، وهمد جسده بجواري، ثم زحفت نحو بلطتي.

توجه بقية المحاربين صوب الشاطئ، حيث كانت آخر مجموعة من الهيريا محاصَرين عند الصخور بين القرية والبحر. مضينا نحوهم. وتجاهلت الألم في جانبي، حيث كانت الدماء تسيل من جسدي بقوة، فلم أكد أشعر بها. قتلت ميرا الهيريا الأول في طريقنا، وقتلت أنا الثاني، وصوبت عينيّ نحو الماء، حيث تطفو الجثث وترتطم ببعضها وقد اصطبغت مياه البحر بالدماء الحمراء.

كانت تمتد أمامي جثث الأسكا والهيريا. أبصرت جثة لأحد محاربي الريكي، كان طويلًا وعريض البنية، شعره الأسود مربوط للوراء في عقدة مفككة.

هوى قلبي بين قدميّ فأسرعت أركض نحو الماء وأمسك الجثة وأقلبها. لم يكن هو.

انتقلت بين الجثث، حيث أمسكت جثة ثانية، وثالثة.

كاد قلبي تتوقف نبضاته وقد نسيت صوت القتال من حولي. ولم أعد أشم رائحة الدماء التي تغرق سترتي. بحثت بجنون، أقلب الجثث في الماء من حولي، حتى أوشكت على الانهيار؛ من شدة القلق.

اندفعت ميرا نحوي.

قلت بتلعثم: «لا أجده». ظهر رجل من الهيريا من خلفها، فمسحت الدموع عن عيني وقلت بنبرة آمرة: «إلى الأسفل!». أطاعتني، وأخرجت السكين من حزامي وألقيتها. غاص النصل في عنقه. وواصلت اندفاعي في الماء، وتركته يمسك حنجرته وهو يفارق الحياة.

«إيلين!».

سمعت صوته فتوقفت جميع الأصوات من حولي: المياه، القتال، الريح، نظرت إلى الشاطئ، محاولة العثور عليه، لكنني رأيت إيري أولًا، كان يدفع بلطته بحركة قوسية في اتجاه أحد مقاتلي الهيريا على الشاطئ.

«إيلين!».

ثم وجدته أخيرًا؛ كان فيسك يقف على حافة الماء لاهث الصدر، ينظر إليّ، كان سيفه معلقًا بجانبه، ومن حافته تقطر الدماء الحمراء القانية. التقت عينانا، فخفضت سيفي إلى جانبي في الماء. وشعرت فجأة بثقل وضعف في جسدي، وغمرني شعور بالراحة لرؤيته؛ فيما استرخت عضلاتي المجهدة والمتألمة. ثم تغيرت نظرته. وانفرجت شفتاه، وامتقع وجهه. وعرفت تلك النظرة، تذكرتها، إنها النظرة التي ارتسمت على وجهه يوم رأينا هالفارد مربوطًا بالحصان والدماء تنزف من أنفه.

فجأة اندفع جسد نحوي وأسقطني، فغاص سيفي في قاع البحر. كنت تحت الماء، وأشعة الشمس تخترق الغيوم، وتضيء المياه القانية من حولي كحجاب وردي. أبصرت بجواري قدمين ثم يدين تندفعان وتقبضان على رقبتي وتضغطان. انبثقت الفقاعات من حولي وأنا أصرخ. ورأيت مهاجمي كأنه شكل ضبابي فوق السطح؛ مغضَّن الوجه، يكشر عن أنيابه. ترنحت تحت ثقل جسده، وأخذت أركل محاوِلة إيجاد موطئ قدم. لكن هيهات إذ كانت الرمال والصخور تتحرك تحتي. فحاولت أصابعي التشبث بذراعيه، لكنني كنت أزداد ضعفًا رويدًا رويدًا.

تمايلت وحاولت الإفلات، لكن قبضة الهيريا كانت قوية جدًّا. وحين توقفت عن الحركة، رأيت يديّ تطفوان أمام وجهي، وخصلات شعري الذهبية ترتفع أمام عيني. وببطء تراجعت الأفكار في ذهني، وارتخى وجهي، وشَخَص بصري للسماء، بينما تدفقت مياه البحر الباردة إلى رئتي.

تلألأت أشعة الشمس على درعه الفضي، وانتشر الضوء الساطع وتمدد حتى طوق كل شيء. وغمرني معه.

اهتز جسدي بفعل حركة في الماء، وتراخت اليدان عن عنقي، وتراجعت عنّي. وطرفت بعينيّ ببطء، ثم تلاشى الرجل. لم أبصر إلا سماء متمايلة. كنت في حالة من الهذيان إذ أحسست بأن أحدهم أخرجني من الماء ورأيت وجهه؛ فيسك، كان يصرخ وينظر إلى وجهي. لكنني لم أستطع سماعه.

ثم اندفع الماء من داخلي بقوة، وأحرق ملحه صدري وحلقي، فجذبني فيسك نحوه، وعادت الأصوات ثانية؛ البحر، والقرية، والمحاربون. حملني فيسك بين ذراعيه، وكنت أسعل وقد جثم شعور بالاختناق على صدري. لففت ذراعيّ حول عنقه، متشبثة به بقوة حتى آلمني الجرح في جانبي.

تركني، ووضع يديه على وجهي، يديره من جانب إلى آخر، ثم تحسس ذراعيّ، تفحصني بعناية حتى وجد الجرح تحت ضلوعي. وشهقت حين لمسه ليعرف مدى الإصابة.

قلت لاهثة وأنا أجذبه نحوي: «أنا بخير».

ضغط عليه براحة يده بقوة، وسالت دمائي بين أصابعه. وكرر الكلمات كأنه يبث الطمأنينة في نفسه: «أنتِ بخير».

ضغطت خدي على خده محاولة التقاط أنفاسي، بينما رفعتني ذراعه الأخرى. خضنا في الماء باتجاه الشاطئ. وكانت ميرا تتقدم نحونا من الجانب، وينزف من جبينها جرح بغزارة.

بينما كان إيري يقف على الصخور من خلفها، ثم دوى البوق الأخير، معلنًا انتهاء القتال.

تطلعت إلى القرية؛ موطني.

كانت القرية تبدو كشخص تلقى الضربات من كل جانب، إذ كانت تتكوم عاجزة على الشاطئ؛ وقد غصت الطرق بالجثث وطفت الأجساد في البحر من حولنا. لكن رغم كل هذا فهيلي الحبيبة كانت لا تزال صامدة تعج بالناجين من الأسكا والريكي، ستظل في نظري رمزًا للصمود والشرف الذي يأتي بالنسبة لنا كمحاربين قبل الحياة، هكذا كنا نحيا، وهكذا سوف نموت ميتة الشرفاء لا الجبناء.

السابع والأربعون

أمسكت شعر رونا الأسود اللامع وأخذت أمشطه بأصابعي. جلست تحدق إلى النار في منزل إنجيه، وعندما سالت على خدها دمعة ببطء، مسحتها بحافة تنورتها.

لم يمضِ سوى خمسة أسابيع منذ مقتل أمها في معركة هيلي. وكنت أعرف شعور فقدان الأم، وأعرف كذلك شعور إيجاد أم جديدة. رفعت نظري إلى إنجيه التي جلست أمامنا، تضفر تاجًا من زهور الربيع البرية من أجل رونا.

كانت رحلة العودة من هيلي طويلة. وحين انتهت المعركة، رجعنا إلى معسكر الهيريا حيث كان الأسرى من الأسكا والريكي ينتظرون. وأعدنا المصابين من الريكي إلى الجبل، وبقي العاجزون عن السير في هيلي، حيث قام على رعايتهم معالجان ممن تبقوا من معالجي الأسكا. لكن الثلوج ذابت قبل موعدها بأسبوع، وعلى الفور أعلنت رونا رغبتها في التعجيل بالزفاف.

لففت على رأسها الضفائر المتشابكة، بينما وضعت إنجيه التاج فوقها، فحلقت الأزهار الصفراء والبيضاء فوقها كالفراشات. كانت ترتدي الفستان الذي ارتدته أمها في ليلة عرسها؛ كان فستانًا أزرق فاتحًا من الصوف تزينه حاشية ذهبية. بدت كأميرة، وهي تقف أمام الجبل المغطى بالثلوج في المرج.

رغم الألم البالغ في عينيها، فإنهما امتلأتا أيضًا بحب عميق. أخذت تنظر إلى إيري وهما يقفان معًا أمام التالا ويرددان الكلمات المقدسة، على مرأى ومسمع من الريكي. وقف فيسك بجانبي مبتسمًا، وعندما لاحظني أحدق إليه، مال عليّ ولمس خصري، فتمايلت تنورتي الطويلة حول كاحلي. كان فستاني الأسود الذي ارتديته في أدالجيلدي يغطي تقريبًا جميع الجروح والندوب التي كانت تلتئم، لكنه لم يمحُ أثرها تمامًا.

تبعنا الموكب إلى دار الطقوس وأقمنا وليمة للاحتفال. لكن هذه المرة جلست أنا ووالدي برفقة عائلة إنجيه. مد إيري يده إلى يدي تحت الطاولة، وانحنى ليقبلني بلطف خلف أذني.

تذكرت كيف كان يبدو في ذلك اليوم الذي تركته، مستلقيًا في الأخدود في أورفانجر، وعيناه تشخصان للسماء. والفتى العاجز النازف في الثلج بجانب أخي. وتساءلت عما إذا كان القدر يخبئ له مصيرًا آخر غير الذي نراه أمام أعيننا. كانت تلك الفكرة تراودني في كل لحظة تقريبًا منذ أن خطرت على بالي لأول مرة، حين كنت واقفة في البحر بعد معركة هيلي. إذا لم يكن إيري وفيسك قد التقيا في ساحة المعركة في ذلك اليوم قبل خمس سنوات، فلم أكن لأتركه، ولم يكن ليعثر عليه الريكي أو يحبوه. ولم يكن لينضم إليهم، ولم أكن لأراه في تلك الليلة، ولم أكن لأقع أسيرة أو أن أكون هناك عند هجوم الهيريا. ولم يكن الأسكا ليتحدوا مع عدوهم. ولكننا جميعًا موتى أو نحيا حياة لا روح فيها.

لم أكن أنا السبب في كل ما حدث، لم أكن مميزة، بل كان إيري.

شعرت بغصة وأنا أراقبه يحمل شقيق رونا الصغير في دار الطقوس. ستقع الآن على كاهله مسئولية رعاية إخوتها. ومثلما أضحت إنجيه أمًّا لإيري، سيصير أبًا لهم. ولم يحتمل قلبي كل ذلك. ما زلت أبحث عن موضع داخلي يستوعب كل ما حدث ويحدث، وأتساءل عن كراهية الريكي في قلبي والتي تلاشت إلى الأبد وحلَّ محلها حب غير محدود.

والآن بات قلبي ينتمي إليهم ويتمنى العيش بينهم إلى الأبد.

تلونت مياه المضيق بزرقة لامعة، كأنما عرفت أننا عائدون إلى الديار. بيد أن مشهد المياه الحمراء القانية في المعركة لم يفارق خيالي.

أمسكت أنا وإنجيه جانبي الباب بينما كان فيسك يضعه في المفصلات.

حين أخبرناها بأن فيسك سيأتي معي إلى هيلي، ضحكت وقالت إنها عرفت ذلك منذ فترة طويلة حتى قبل أن نعلم. لكن الابتسامة على وجهها امتزجت بشعور الحزن والوحدة.

ومرت أشهر قبل موافقتها على القدوم مع هالفارد والعيش معنا في المضيق. عاد الأسكا من القرى الأخرى إلى بيوتهم، تاركين هيلي جرداء وبلا معالج. وقبل حلول الشتاء التالي فوق جبل ثورا، أصبح هناك ثلاثة من الريكي في هيلي.

راقبت إنجيه المنزل وهو يتضاءل حجمه خلفنا ونحن ننطلق. سافرنا عبر شِعاب الجبل، وشعرت بأن ثمة أمورًا لم تنته بعد بيني وبين إيري. إذ ربما نقضي بقية حياتنا نحاول فهم ما حدث. لكن ربما يكون لدينا الوقت الآن.

بنينا منزلنا في الجانب الجنوبي البعيد من القرية، والمطل على الماء، على قطعة أرض كانت منزلًا فيما مضى. لكن النيران أتت عليه، وما زال السواد يلطخ الأرض. وتذكرت قاطنيه؛ رجلًا عجوزًا يدعى إيفاندر وابنه. لكنهما ماتا وحلقت روحاهما إلى سولبيورج ولحقتا بزوجة إيفاندر التي توفيت منذ سنوات.

حلت ميرا محلي في المنزل مع والدي. لطالما كان مكانها هناك. وقف خلفنا يراقبنا ونحن نعمل. أخذ الجرح في ساقه من المعركة يلتئم ببطء. لكنه كان يتكئ على عكاز ربما سيحمله طيلة حياته. ولم يثر ذلك خوفي؛ فلم يعد هناك موسم قتال مقبل. أبدًا، فقد انتهت مواسم القتال وحل محلها السلام والأمان والطمأنينة.

لقد قُتل معظم الهيريا الذين جاءوا إلى الوادي في هيلي. وطاردنا القلة الأحياء منهم. وعلقنا جثثهم على الأشجار المطلة على الجروف. بيد أنني ما زلت أحلم بهم في الغابة. وأحلم بهم في البحر. إذا كان هناك أحد متبق منهم، فإن إلههم قد أعادهم مجددًا إلى الظلال.

جلست في الخارج عند الجرف تلك الليلة، والشمس تجنح للمغيب. كانت قدماي العاريتان تتأرجحان في الريح التي عبقت بروائح الملح والسمك التي تهب من المياه. وتذكرت منظر الجثث الطافية، لكنني دفعتها سريعًا عن مخيلتي. وأغلقت عينيّ لأتذكر هيلي القديمة؛

قرية صغيرة يحيط بها المضيق ويسكنها الأسكا، شعب سيجر، وترسلهم عندما يحل موسم القتال.

وهكذا كانت الحقيقة؛ حين يجد الإنسان نفسه في مكان لا ينتمي إليه، كنت مثل امرئ وجد نفسه في برزخ بين سماءين متقابلتين في أفق جليدي ممتد على مشارف البصر؛ واحدة تطل من الأعلى، والأخرى من الأعماق تتنازعه نفسه إلى أن تظلله إحداهما بما تمثل له سعادة المستقبل، بينما في أحيان أخرى يتوق إلى سماء أعماقه التي تمثل الماضي بكل ذكرياته الدفيئة.

قلبت يدي وحدقت إلى الندبة الممتدة على راحتي. كانت الوعد الذي قطعته التالا لي وأوفت به.

فُتح الباب وشعرت بجسد فيسك الدافئ حين جلس خلفي، ومد قدميه حولي، وعانقت ذراعاه خصري. جذبني نحوه في الضوء الخافت، ودفن وجهه في عنقي، وتنشق شذى رائحتي.

راقبنا هالفارد يركض على الشاطئ بالأسفل، يصيح ويقذف الحجارة مع الأطفال الآخرين.

أطفال الأسكا.

قال فيسك: «سيكون الأمر مختلفًا. وستتغير الأمور بالنسبة له».

لن يكبر هالفارد وهو يتدرب استعدادًا لموسم القتال، ولن يشب على كراهية الأسكا، بل بات يعيش الآن بينهم، وسيتحلى بالقوة؛ لأسباب مختلفة عن أسبابنا.

ما زلت أرى إيلين الشابة واقفة على الشاطئ، تستدير في الريح، وتمسك بيدها سيفًا، وفي الأخرى بلطة. لم أفقدها، ولم أدفنها، إنما تركتها تتحول إلى شخص جديد. لطالما حسدت إيري على قلبه الصادق، والآن صار قلبي يتسع الجميع أيضًا.

ما زلت أحمل بداخلي روح إيلين في الماضي ولكن روح إيلين في الحاضر والمستقبل صارت مختلفة؛ لا يسع الكون كله ما تحمله من سعادة وحب.

أغمضت عينيّ مجددًا، وملت برأسي للخلف على كتف فيسك، وتشابكت أصابعنا.

هنا حيث التقينا في الماضي وحيث نجلس معًا الآن.

وحيث سيصير مستقبلنا أكثر سعادة وأمنًا.

شكر وتقدير

الشكر لن يوفيكم حقكم، ولا تَسَعني الكلمات للتعبير عما يموج به قلبي.

إلى جول، رفيقي الدائم، نجمي الشمالي وعرَّاف ذاتي الحقيقية. لن تخبو أبدًا شعلتي. شكرًا لأنك لم تسمح لي بالاستسلام أو التنازل عن أحلامي. وشكرًا لأنك لا تفتأ تكرر على مسامعي أنني بارعة. تلك الرواية لم تكن لترى النور لولاك، أحبك.

إلى أطفالي؛ النيران الصغيرة التي تلهب خيالي وتبث بداخلي الإلهام، كل يوم.

إلى عائلتي الصلبة والحديدية؛ إلى أبي، الذي منحني الثبات والعناد لأحارب من أجل ما أريد بعزم قوتي. ليتني أرى وجهك وأنت تقرأ سطور روايتي تلك بين يديك. لكنني أعلم أنك تراقبني. وإلى أمي، التي علمتني معنى القوة والصلابة. وإلى أختي، التي تتحلى بكل الرقة والعطف. وإلى شقيقيّ، أفضل شخصيتين على الإطلاق، وإلى ريانون التي اختارتنا.

إلى باربارا بويل، التي انتشلتني من التساؤلات الباردة وفعلت المستحيل من أجلي. لا تسعفني الكلمات حين أفكر في كل ما فعلته من أجلي. لكِ مني وافر الامتنان وعظيم الشكر.

إلى محرّرتي إيلين روتشيلد، التي دافعت بشراسة عن تلك الرواية. شكرًا على مساندتك لي. لقد حققتِ أنتِ وجميع العاملين في «وينزداي بوكس» حلمي. لقد صنعتم نافذة ليطل منها العالم على قلبي.

إلى ميجان ديكرسون، وكريستين واتسون، وليزي بروفوست، اللاتي دعمنني وعلمنني معنى الصدق مع الذات. لطالما أردت أن أكون مثلكن حين أكبر. وما زلت أتمنى ذلك.

إلى إيمي ساندفوس، وأنجيلا بوراس، وأندريا توريس، الملاذ الذي لا أفتأ أهرب إليه. شكرًا على محبتكم.

إلى عائلة ساندفوس الكبيرة دائمًا، وأصدقائي الأعزاء بيل وإيدا سيتلاج، وريتش وميليسا ليستر، وكلاي وإيميلي باتلر. دعمكم يعني الكثير لي.

إلى ستيفاني فانتاسيل؛ أول صديقة نظرت في عينيّ وأخبرتني بأن قصصي ستُنشر. وإلى ستيفاني بروبكر وليندزي ويلكن؛ أجهزة الطفو على بحر الإبداع القاسي. وإلى كاندي شاند، التي لبت دعوة لتناول الغداء من فتاة تجهل تمامًا هذا المجال. وإلى ناتالي فاريا، شكرًا لكِ على قراءة النسخة الأولى من هذه المغامرة، والسماح لتلك الشخصيات بتحطيم قلبك.

إلى جماعة الكُتّاب الذين فتحوا أذرعهم لي، خاصةً رينيه أهديا. لولا توجيهاتكم ونصائحكم لترديت في هاوية ليس لها قرار.

إلى رفاقي الكُتّاب، الذين رحبوا بي وعاملوني على قدم المساواة حينما كانت شكوكي في أوجها؛ ستيفاني جاربر، وشانون ديتمور، وروز كوبر، وكيم كولبرتسون، وجيني لوندكويست، وجوانا رولاند. وفي المقام الأول، جيسيكا تايلور، التي أنقذتني مرات لا تُعد ولا تُحصى. شكرًا على وقتكن وجهودكن. والأهم أشكركن على نصحي بإرسال بريد إلكتروني إلى باربرا.

إلى ستيفاني وتيفاني نوردبرج، اللتين حرصتا على رعاية أطفالي الصغار، بينما كنت أبني عالم هذا الكتاب وشخصياته.

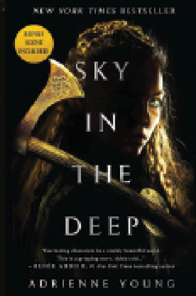
إلى المعلمين الذين أبصروا ما بداخلي قبل أن أراه، والذين لم يخشوا عيوبي، وتمكنوا من النفاذ إلى جوهري. لقد غيرتم حياتي، وأنارت لي مشاعلكم الدرب المظلم. إلى السيدة زفايج؛ معلمتي في الصف الثالث وأول شخص أخبرني بأنني أمتلك مهارة الكتابة. وإلى

آبي جاكوبسن، التي علمتني أنه لا توجد قواعد سردية. وإلى جاي جاريت، الذي عاملني بصفتي فتاة مثقفة وأنار ذهني.

أنا ممتنة للأبد للعديد من الأصدقاء وأفراد العائلة الذين آزروني وشجعوني.

إلى كريستين دواير. ها هو سطرك الفاصل. لقد آمنت بذلك الحلم الساطع والمتلألئ الذي سطع في السماء. بهزة رأس وتنهيدة، منحتني أربعًا وعشرين ساعة لإيلين وفيسك، وفي تلك الساعات قُدحت الشرارات التي أشعلت حرائقهما. لا أطيق صبرًا حتى أقرأ سطري الفاصل على ظهر كتابك. وأتمنى أن يحوي اعتذارًا لتركي في عالم هاري بوتر.

الغلاف الخلفي



تربت إيلين البالغة من العمر سبعة عشر عامًا على الفنون القتالية وأصبحت محاربة تقاتل جنبًا إلى جنب مع رجال عشيرتها "أسكا" في منافسة امتدت لعصور ضد عشيرة "ريكي". كانت حياتها قاسية ولكنها بسيطة، فقد تلخصت في القتال ومحاولة البقاء على قيد الحياة، حتى جاء اليوم الذي رأت فيه ما صدمها في ساحة المعركة -شقيقها يقاتل في صف العدو - الشقيق الذي شهدت موته بعينيها قبل خمس سنوات.

وبعد علمها بخيانة أخيها، تضطر إيلين إلى أن تقضي الشتاء بين الجبال مع عشيرة "ريكي"، العشيرة ذاتها التي كان كل أفرادها أعداء لإيلين، وجنودها الذين تركت إيلين على وجوههم الندبات خلال معاركهم، ولكن عندما أغارت عشيرة ذات قوة أسطورية على قرية عشيرة "ريكي"، ازداد اشتياق إيلين لعائلتها وتمنت العودة لها أشد التمني.

لم يكن أمامها خيار سوى منح ثقتها لـ"فيسك"، صديق شقيقها، الذي لا يثق مطلقًا بإيلين ويراها مصدرًا للمتاعب. كان على كل منهما أن يفعل المستحيل؛ كان عليهما توحيد العشائر كافة ليقاتلوا جنبًا إلى جنب ضد العشيرة الدخيلة ذات القوة العاتية وإلا انتهى المطاف بهم جميعًا مذبوحين واحدًا تلو الآخر. ومن منطلق حبها لعائلتها، وحبها الذي بدأ يتنامى تجاه "فيسك"، تُعيد إيلين التفكير في مفهومها عن الولاء والعائلة في حين تبدأ منح ثقتها للأشخاص الذين أمضت حياتها كاملة في كرههم.


ISBN 628-1072-14-036-6
6 281072 140366
282208748



